

عندما يتدخل الله

كريج بارنز

عندما يتدخل الله

حياة جديدة من خلال تغيير غير مرغوب فيه

بقلم

كريـــج بارنـــز

ترجمة

فوزي جرجس حنا



Originally published by InterVarsity Press as " **When God Interrupts** " by M. Craig Barnes. @1996 by M.Craig Barnes. Translated and printed by permission of Intervarsity Press. P.O.Box 1400, Downers Grove, IL 60515, USA.

طبعة أولى

عندما يتدخل الله
صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨- القاهرة

١٠/ ٧٩٦ ط١/١-١/ ٩٩
رقم الإيداع بدار الكتاب: ١٠٠٠٩/ ٩٩
I.S.B.N. 977 - 213 - 487 - x
جمع وطبع بمطبعة سيوبرس
تصميم الغلاف: أمجد تناغو

مقدمة الدار

يختبر الكثير من المؤمنين قسوة ألم فقدان أشخاص عزيزة أو أشياء غالية لديهم ، ولا شك أن الفقدان والترك لابد أن يصاحبهما إحساس بوقع الخسارة ، فمن يقاسى بسبب ضعف صحته ليس سعيداً ، ولا الأرامل سعداء بفقد شريك الحياة ، ولا رجال الأعمال المفلسون فرحين بسبب عدم مقدرتهم على سداد ديونهم .

ويقول كريج بارنز : عندما يحملنا يسوع إلى اختبار ألم الترك والخسارة فهو بحق يختار لنا الأفضل ، لكن إدراك حقيقة ذلك هو عطية لاننالها إلا فيما بعد ، عندما نرجع بأفكارنا إلى الماضى ، ونتذكر ما كنا عليه مقارنةً بما نحن عليه الآن . بل وأهم من ذلك من كان الله فى رأينا ، فقد كان إلهاً غامضاً ، لكننا الآن نعرفه كمخلص شخصى .

ويسر دار الثقافة أن تقدم هذا الكتاب إلى المؤمنين بيسوع المسيح الذى قال من أضاع حياته من أجلى يجدها . ففى اتباعنا ليسوع يجب أن ندخل فى حساباتنا الكثير مما يجب أن نتركه، فأخبار الإنجيل سارة لكنها صعبة ، وفى صعوبتها تتاح الفرصة للحصول على حياة جديدة .

دار الثقافة

محتويات الكتاب

تمهيد :

سنظل دائماً نفقد أشياء عزيزة لدينا مثل الزوجات والأزواج والأصدقاء والصحة والأحلام والأمال، ثم الأمان الذى كان لنا فى الماضى . فليس هناك شئ يبقى على ما كان عليه.

وأنا شخصياً أبحث عن إنسان يحيا الحياة كما خطط لها ، إلا أننى لم أجد حتى الآن ، والبعض يهتز طرباً بسبب عدم تحقيق خططه قائلاً : شكراً لله فقد تحولت الحياة إلى أفضل بكثير جداً مما تمنيت .. ومع ذلك فنادراً ما ينقضى أسبوع إلا وألتقى كراعٍ بمن هم بعيدين عن تقديم الشكر الله بسبب فقدان ما كان عزيزاً لديهم ، فلا أحد يريد أن يكون متروكاً .

يمكن القول إن الإحساس بالترك يكون بسبب فقد شئ بالتحديد أو شخص ما كانت هناك حاجة إليه . إذ تأتى الزوجة إلى البيت لتجد رسالة قد تركها لها الزوج على الثلاجة يقول فيها : قررت أن أتركك .. ، ويدخل موظف شاب فى العشرين من العمر مكتب رئيسه ليقال له بأنه مفصول من العمل ، وسيدة شابة تجتاز تجربة استئصال ثديها وتتساءل ما إذا كانت سوف تكف يوماً عن العطاء . إن هؤلاء الناس كانوا قد اتكلوا على زوج أو زوجة أو مهنة - أو على الأقل على صحتهم - وفجأة ذهبت تلك الأشياء ولن تكون الحياة على ما هى عليه ، فدوام الحال من المحال . ففى طريق الحياة نحن نتوقع أن نعانى من بعض الخسائر المحتومة ، إذ يكبر الأولاد ويتركون البيت ، وتحتم علينا الوظيفة الجديدة أن نودع الأحباء فى مكان ما ، ويستودع الزوج المسن شريك حياته بين يدى الله . إننا نستطيع أن ندخل فى حساباتنا فقدان بعض الأشياء العزيزة أو الأشخاص الأعزاء ، غير أن هذا لا يعنى أن الفقدان سيكون أقل إيلاماً . إن أعظم الأعمال البطولية التى يقوم بها الناس هو أن يتخلوا باختيارهم عن جانب مريح لكنه فى نفس الوقت لا يعطيهم الإشباع والانتظارات التى يتوقعونها منه ، وذلك فى مقابل الحصول على الفرصة الجديدة التى يتطلعون إليها هنا أو هناك ، وعندما يحدث هذا فإن تجربتهم هذه ربما لا تمتلئ بالشفقة على الذين تركوهم وراءهم ، إلا أن رحلتهم وسط الخوف والحزن للوصول إلى تلك الحياة الجديدة لا تكون أقل ألماً مما أصاب من تركوهم .

وكيفما كان الأمر فإن الترك يمكن أن يقترن بالاحتمال والسرور كفرصة لاستقبال حياة جديدة، فالأرملة المحطمة يمكن أن تتخطى أحزانها ، والزوج المطلق المتألم يمكنه أن يجمع الأشلاء المبعثرة

ويستعيد نشاطه ويبدأ حياة جديدة ، والوظيفة التى ضاعت يمكن أن تصبح بداية لمهنة جديدة .

إلا أن اختيار قبول الترك كفرصة لاكتشاف حياة جديدة هو أمر صعب الاحتمال ، إنه أكبر تحدٍ تقدمه لنا الحياة ، إلا أنه يمثل قوة دافعة للحياة المسيحية .

فإن كنا ننوى اتباع يسوع بجدية ، فعلينا أن ندخل فى حسابنا قدراً كبيراً من ما نتركه ونتنازل عنه. فقد ظل الرب يسوع يحاول أن يوصِّل ذلك لتلاميذه ، إذ كان يسوع يتكلم دائماً بهذه الأمور مثل قوله « لكن هؤلاء الذين يخسرون حياتهم يجدونها »

وهذه العملية فى الكنيسة المسيحية ندعوها بالاهتداء وقبول الحياة الجديدة .

وهذا هو الموضوع الذى يتكلم عنه هذا الكتاب ، إذ يتناول قصص رجال ونساء فى الكتاب المقدس ، وأيضاً رجال ونساء شعب الكنيسة التى أخدم فيها ، الذين اكتشفوا أنهم لا يحيون الحياة التى كانوا قد خططوا لها . فقد واجه كل منهم خسارة عظيمة مثل شئ ما كانوا يشعرون أنه عزيز لديهم وقد حُرموا منه ، واضطرهم ذلك إلى اتخاذ اختيار مخيف . ترى هل يتشبثون بشئ آخرلأجل خلاصهم ؟ أم يمكن أن تظل أيديهم مفتوحة بدرجة كافية لقبول الحياة التى مات يسوع لكى يقدمها لهم ؟

الفصل الأول

خسارة حياتنا وضياعها

إن اختباراتنا فى هجر كل شئ لإحداث التغيير غير المرغوب فيه هو عبارة عن لحظات متضاربة ، وذلك عندما يتحتم علينا أن نقرر ما إذا كنا نترك أو لا نترك ورا منا الحياة التى انقضت إلى الأبد . لكننا نستطيع أن نفعل ذلك فقط إذا آمنا فى إبداع وخلق الله المتطور باستمرار الذى يحضر النور والجمال للفوضى المظلمة التى تظهر فى خسائرنا فى الحياة .

إلى كل القديسين :

دق جرس التليفون فى الساعة الحادية عشرة صباحاً فى يوم عيد الشكر . وترددت قبل الرد على المكالمة التليفونية ، لأننى أعلم أنها قد تعنى تعطل خططنا لهذا اليوم . وقد كنت على حق إذ كانت المكالمة من ممرضة من قسم العناية المركزة تقول : « ياقس بارنز Barnes إن جين بونفيلد قد أصابتها نوبة قلبية أخرى . ويبدو أنها تحتضر » .

فقد كانت جين ، البالغة الثمانية والسبعين من العمر ، عضوة فى كنيستى . وقد تعودت هى وزوجها ، بيل ، أن يجلسا باستمرار فى الصف الثالث من الجانب الأيمن . وكانت مدرسة فى مدرسة الأحد لأكثر من خمسة وثلاثين عاماً، ولم تتوقف عن التدريس إلا بعد أن ضعف بصرها ، وبعدها استقرت فى خدمة الصلاة .

وعندما وصلت إلى المستشفى كان أفراد العائلة ملتفين حول فراشها . فدخلت إلى حجرتها وأمسكت بيدها قائلاً لها « أنا كريج ياجين هل يمكن أن أصلى لأجلك ؟ » فابتسمت ابتسامة هادئة .

قمت بزيارة جين فى المستشفى عدة مرات . فقد كانت الصلاة لأجلها كأننا نسأل من الله أن يمنح بولس الرسول صاحب الإيمان القوى مزيداً من الإيمان . فقد آمنت جين بنعمة الله . وآمنت أنه فى المسيح قد غُفرت خطاياها ، وقد آمنت أيضاً بأنها سوف تحيا حياة أبدية معه عندما تموت.

وكانت تندهش من عظاتى التى كنت أتناول فيها الآية التى تقول « أؤمن فأعن عدم إيمانى » فقد كان لجين إيمان قوى جداً .

وبينما أنا جالس بجوار فراشها ، بدأت أقرأ بعض النصوص الكتابية . وبمجرد أن أبدأ القراءة ، أجدها تكمل النص الكتابى ، مستدعيةً إياه من الذاكرة . كان صوتها ضعيفاً ، لكن ذاكرتها كانت تبدو قوية حتى خلال فترة التخدير بالمورفين لتخفيف آلامها .

وقد همس أحدهم قائلاً بأنه قد كان أمراً بغيضاً أنها كانت تحتضر يوم عيد الشكر . غير أن جين أجابت هاتفة « ياله من عيد شكر مجيد . إننى سوف أكون حالاً مع ربى وإلهى . فأنا هناك الآن تقريباً » .

ثم بدأت تصلى . وقد صلّت لأجل جميع الواقفين حول فراشها : لأجل زوجها وأبنائها ثم لأجل أحفادها . ثم صلت أيضاً لأجل راعيها . إذ قد طلبت من الله وهى تصلى بأن يعيننى على أن أؤمن بالكلام الذى أقوله به فى عظاتى . وفجأة ماتت جين بعد صلاتها مباشرة . وبينما كنا نراقب حركة الخطوط التى كانت تظهر على المونيتور لقياس الوظائف الحيوية لجسمها ، خيَّم على الحجرة روح الهجر . فقد كانت لحظة مقدسة ، ولم يجرؤ أحد أن يفسد هذه اللحظة بمحاولته أن يقول شيئاً ذا معنى . فقد كانت جين تموت بين أيدينا لتنطلق وتكون بين يدى الله .

وبعد أن رحلت من دنيانا قضى كل منا لحظة بجوارها لنودعها الوداع الأخير . ثم أمسكنا أيدى بعضنا البعض وبدأنا نصلى مرة أخرى ، ثم اكتشفت أثناء صلاتى بأننى قد افتقدتها بالفعل كثيراً جداً . وقد كان على شخص آخر أن يكمِّل صلاتى !.

وبينما كنت أنطلق بسيارتى من المستشفى خطر على بالى للمرة الأولى بأن جين كانت قديسة ، إنها امرأة عادية لا تستخدم زينة أو حُلى ، لكنها قديسة بكل ما فى الكلمة من معنى حتى أن وضوح إيمانها ورؤيتها يسَّر علىَّ أن أؤمن . إن ما كنت أفتقده لم يكن مجرد أحد رعايا كنيستى المحبوبين ، بل نافذة من نوافذى التى أطل منها إلى السماء .

لقد تأخرت كثيراً عن موعد حفل عشاء عيد الشكر .. فعندما دخلت من الباب كنت أسمع ضحكات أصدقائى على مائدة الطعام ، وتساءلت لأول وهلة ما إذا كنت مهيئاً لهذه المناسبة السعيدة . فإنه من أصعب الأمور لكونى قساً راعياً هى لحظات الانتقال والتحول من حال إلى

حال . فقلبى وعواطفى لا يتغيران بالسرعة التى تتغير بها الأحداث وتتبدل . ولكن ما أدهشنى وما لم أكن أتوقعه أن هذا الانتقال والتحول فى العواطف كان سهلاً ، فقد جعلته جين أمراً سهلاً . فقد جلست على مائدة الطعام وقلت ببساطة « ياله من عيد شكر مجيد ! » .

لقد اكتشفت أن الناس يموتون تقريباً بنفس الطريقة التى بها يحيون . فقد سمعنا جميعاً عن الاعترافات التى ينطق بها الناس على فراش الموت ، غير أنى لم أشهد أبداً واحدة منها . وما رأيته فى نهاية حياة شخص ما يعكس ما كان يتخذه نموذجاً لحياته . فإن من يعيشون معظم حياتهم في خوف وقلق عادة ما يرتعبون خوفاً وجزعاً من الموت . ومن لهم أصدقاء نادراً ما يموتون وحدهم . ومن يقدِّرون الصلاة يرغبون أن يصلّوا عند الموت .

وأما «جين بونفيلد » ، بإيمانها البسيط الذى لا يتساءل ، فهى ليست المثال الوحيد للحياة المسيحية . وبصراحة تامة ، أنا لا أستطيع أن أتصور أن يكون هناك إيمان كامل لا يرقى إليه الشك ، ولست أدعو إليه . إننى أغتاظ من الردود السهلة التى تسرع إلى تكوين رأى قبل ما يُصاغ السؤال ، فبسرعة شديدة يتم التأكد من صحة السؤال وبسرعة شديدة أيضاً تسمع ما يثير الشفقة والرثاء نحو الشخص الذى يعانى من الشكوك . والواقع ، أنى قد اكتشفت بأن الشك ما هو إلا مدخل آخر إلى إيمان أعمق بنعمة الله .

لكننى أرجو أن أنهى أيام حياتى كإنسان عاش حياة مسيحية . إننى أتطلع لأن أنال هذا الحق . فقد غرس العديد من مدرسى مدرسة الأحد منذ أن كنت طفلاً ، وكذلك من يقومون بخدمة النصح والمشورة فى المخيمات – رجاءً ثابتاً بذلك اليوم الذى يظهر فيه المسيح وأسمعه يقول « نعماً أيها العبد الصالح والأمين » .

إن الإيمان لم يدخل إلى حياتى بسهولة . فإن هتاف « مجداً لله » ليس هو التعبير الأول الذى أجد نفسى أردده فى أوقات المحن ، لكننى أيضاً فى رحلة روحية أتبع يسوع المسيح ، ومع ذلك أبدو كما لو أننى أجر شكوكى ورائى . وإننى أرجو من خلال الطرق الملتوية والفوضى واختلاط الحقائق بالكذب فيما يتصل بحياتى ، أن أنهى حياتى فى آخر الأمر وأموت مثل جين – كأحد « القديسين الذين يستريحون من أتعابهم » .

إن جين بونفيلد قد ماتت ميتة كريمة . فقد كان واضحاً بأنها ماتت كما كانت تحيا بإيمان ومحبة . والسؤال الذى كان يجول بخاطرى منذ ذلك اليوم هو كيف نجحت فى حياتها ؟ إن القديسين لا يولدون هكذا ، بل يُعدون على طول الطريق ليصبحوا قديسين .

صناعة القديس :

إننا كرعاة نقضى بعضاً من وقتنا مع من هم على وشك الموت ، غير أننا نقضى معظم أوقاتنا مع الذين يشقون طريقهم بهدوء وطمأنينة فى حياة يومية غامضة . فنحن نرى الحياة التى لا تزال تُخلق . ونحن مدعوون لأن نشهد ما قد دعاه الأسقف « آلان جونز Alan Janes الوجود الإنسانى اللامتناهى .

فما هو ناقص ولم يتمم بعد هو عمل يسوع فى شعبه من حيث تكليفه لهم واختياراتهم لهذا التكليف ، هل سيصبح هذا الإنسان مثل بطرس الذى ترك كل شئ ليتبع يسوع إلى أن يكتشف أن لا وجود لحياته القديمة فيما بعد ؟ أم هل سيكون هذا تلميذاً متجاوباً مثل الرئيس الغنى ، الذى لما واجهته نفقة تبعية يسوع مضى حزيناً مكتئباً إلى الحياة التى لم يستطع أن يتركها ويتخلى عنها ؟

إن القديسين يدركون ماذا يعنى أن يخسروا حياتهم فى سبيل اتّباع يسوع . وهم يدركون أيضاً أنهم سوف يجدون حياة فى خسارتها . وسواء كانت حياة القديس بطرس أو القديسة جين بونفيلد ، فإن نفقة التقدير الذى يمنحه الناس لهم فيما بعد غالية - بل وأغلى بكثير جداً مما قد تصوروا يوماً. ربما لو أنهم أدركوا النفقة التى سوف يدفعونها فى هذه الصفقة مع الله لكان من المحتمل أن يتراجعوا .

ومن جانب آخر فإنه على فراش الموت ، سوف يخبرك أى قديس عن « يوم عيد الشكر المجيد » . ولكن كواحد يكون له الشرف النبيل لمصاحبة القديسين فى رحلة الإعداد ، فقد أصبحت مقتنعاً بأن المسيحية هى أساساً عبارة عن اختبار ضياع وخسارة أحلامنا لكى ما ننال الحياة التى مات يسوع ليمنحها لنا .

إن هؤلاء الذين قد يحملون أسم المسيح يختبرون بشقة كيفية ترك الكثير فى الحياة . ولقد أوضح المخلّص هذا الأمر بصورة مؤلمة .

« وفيما هم سائرون فى الطريق قال له واحد ، ياسيد أتبعك أينما تمضى . فقال له يسوع للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار . وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه . وقال لآخر اتبعنى فقال ياسيد ائذن لى أولاً أن أمضى أولاً وأدفن أبى . فقال له يسوع دع الموتى يدفنون موتاهم . وأما أنت فاذهب وناد بملكوت الله . وقال آخر أيضاً أتبعك ياسيد ولكن ائذن لى أولاً أن أودع الذين فى بيتى . فقال له يسوع ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله » . (لو ٩:٥٧-٦٢) .

لقد قضيت السنوات الأولى من رعويتى محاولاً أن أخفف صرامة هذه الآيات الواردة فى لو ٩ : ٥٧-٦٢ قائلاً « حسنا ، إن يسوع لم يقصد حرفياً بأن عليك أن تترك كل شئ وتهجر كل شخص، فكل ما كان يقصده أنه عليك أن تكون مستعداً لأن تفعل ذلك » . غير أننى الآن لم أعد أردد تلك الفكرة لشعب كنيستى . فأن أزودهم بما يساعدهم على الهروب من تعليم يسوع الواضح لن يكون هو الإنجيل الذى كنت أنوى أن أبشِّر به يوماً ما . فالبشارة التى أنادى بها لهم هى أن يسوع هو رجاؤهم الوحيد . فلو أن المسيحيين كانوا على استعداد بحق لأن يتركوا كل شئ ليتبعوه ، فسوف يتركون حقاً كل شئ فى آخر الأمر . سواء طوعاً أو كرهاً ، وسواء بقصد أو مصادفة . فسوف يأتى يوم عندما يدركون ويتحققون بأنه ليس لهم إلا يسوع . فإن كان هو وحده المخلِّص ، عندئذ نستطيع أن نجد حياتنا فقط فى كوننا تلاميذه .

ينبغى علينا أن لا نعلق آمالاً فى أننا يمكن أن نتمسك بأى حلم آخر ، أو بأية علاقة أخرى أو بأية مهنة أو وظيفة أخرى ، لأن هذا الأمر بالنسبة لأغلبنا يتطلب الكثير جداً ، فأن يكون لنا حق الاختيار بين بيع كل مالنا لنتبع يسوع بتعهد والتزام ، أو الرجوع حزانى إلى حياتنا القديمة التى اعتدناها ، فإننا سوف نختار الاختيار الأخير فى كل مرة . وهذا هو السبب الذى يجعل النعمة تأتى بطرق صارمة وعسيرة . إننا لسنا مطالبين بأن نسعى إلى ترك كل شئ . فذلك الترك هو الذى سيسعى إلينا بسهولة . وعادة ما يأتى الترك والهجر بواسطة ملاك الرب الذى لم ندعه ليعلن لنا « الأخبار السارة » ويقول إننا على وشك أن نضيع حياتنا . وبطريقة أو بأخرى التقى معظمنا بذلك الملاك . والسؤال الذى يطرح نفسه أمامنا هو : هل يمكن أن نجد رغبة للترك ؟ .. هل نستطيع أن نقبله ونوافق عليه على اعتبار أنه دعوة المخلص لأن نجد حياتنا الأبدية ؟ .

من المحتمل أننا سوف نقضى معظم حياتنا مع العائلة والأصدقاء والصحة الجيدة ثم العمل الملائم . غير أن هذه الأشياء ليست حقاً مكتسباً لنا ؛ وهى ليست وعداً معطى لنا ، وربما يجب علينا أن نعيدها إلى الله فى أية لحظة . وسوف نعيدها يوماً ما . فالدور الذى يجب أن نقوم به هو أن نتعلم كيف نفعل ذلك قبل أن تتركنا وتهجرنا . وهذا يدعنا أن نقضى بقية حياتنا على اعتبار أننا نستمتع بها كعطايا وقتية ، وأنها فعلاً كذلك .

زمن ترك كل شئ :

إننا نعيش فى مجتمع قد حل فيه الاضطراب وبلبلة الفكر محل اليقين والأمان . إذ يصف المعلقون الاجتماعيون زماننا على اعتبارأنه زمن ما بعد الحداثة Postmodern وهذا يعنى بأن زماننا هو عهد معروف ليس بسبب قدرته الإبداعية الخلاقة ، بل بسبب الترك والتخلى عن الآمال القديمة . فالوعود التى يستند عليها المجتمع المعاصر والمتمثلة فى التعليم والتقدم، والتفكير المنطقى ، والصلاح الفطرى المتأصل فى الطبيعة البشرية ، والعائلة ، والعلم ، ثم التكنولوجيا ، كل هذه قد برهنت على محدوديتها وقصورها أكثر مما كنا نعتقد من قبل . ونحن نرى فى هذه الأيام بأن الفنون والآداب وفن العمارة وأيضاً علم اللاهوت يركز كثيراً على ما يحدثه العالم المعاصر من تحطيم .

وطبقاً للبحث الشامل الحديث الذى أجراه معهد جالوب Gallup يمكن القول بأن اثنين من ثلاثة أمريكيين يؤمنون بأن الولايات المتحدة الأمريكية تعانى من حالة ذبول وانحطاط خطير طويل الأجل، أى أنه انحطاط اقتصادى وأخلاقى وروحى . وبحسب رأى أحد رجال الأعمال الذى كان يتساءل قائلاً ، بأن القضايا التى تشغل أذهان الناس فى هذه الأيام ليست من نوعية حكاوى القهاوى ، فهى قضايا مقلقة قلقاً شديداً حتى إنها تؤرقنا وتجعلنا يقظين فى فراشنا نحملق فى السقف طوال الليل متسائلين ما الذى نورّثه لأبنائنا ؟ وما الذى نبنيه لأنفسنا ؟

فإنه من قضية تلو الأخرى ، أى من الجريمة والاقتصاد والرعاية الصحية والفقر والتشرد نجد أن أغلب الناس يؤمنون بأننا نفقد الأساس ، إذ يعتقد ٧٣٪ منا بأن أبناءنا سوف يحرمون من تحقيق مستوى عالٍ من المعيشة كالمستوى الذى وصلنا إليه ، فقد انخفض معدل الزواج بنسبة ٢٥٪ منذ عام ١٩٦٠ بينما تضاعف معدل الطلاق ، ثم تضاعفت النسبة المئوية للأسر التى

يقودها عائل واحد أب أو أم ثلاثة أضعاف . وطبقاً لبعض التقديرات للاحتمالات المستقبلة نجد أن ٣٠٪ من الأطفال البيض المولودين عام ١٩٨٠ سوف يعيشون مع كلا الوالدين حتى سن الثامنة عشرة .

إن الترك لكل شئ أصبح قوة ديناميكية اجتماعية دائمة تغذى نفسها بنفسها . فإنه عندما يكبر الأولاد الذين يعيشون فى بيوت محطمة بسبب الطلاق يجدون أنه من الصعب الوثوق فى التعهدات والوعود ، وغالباً ما يعملون على تحطيمها وتخريبها بسبب الخوف . والبعض لا يقتربون اقتراباً كافياً حتى لا يصيبهم أذى ، وآخرون يحاولون التأكد من أنهم هم الذين يبدأون بالترك .

وأنا بدأت أرى فى الكنيسة هذا الانهيار الاجتماعى والاقتصادي وهو يصيب أعضاء معروفين بالكنيسة ، هذه ليست مجرد قضايا بل وقائع .

فقد قضى زوجان ثلاثين عاماً يعملان بجد واجتهاد ويسددان ما عليهما من الرهونات والديون ، وعلاقاتهما طيبة بالجيران ، وهما يرنمان فى فريق ترنيم الكنيسة . ثم يأتى أحدهما يوماً ما ويخرج من باب البيت ويقرر أنه سوف لا يرجع إلى البيت .

ويتم عمل نقل دم لشخص فى عملية تُجرى له . وقد كان الدم فاسداً . وأب له أربعة أبناء مصاب الآن بمرض الإيدز. والأطباء يعبرون عن أسفهم ويرثون له . وتُستدعى سيدة إلى مكتب رئيسها فى العمل . ويشرح لها ما يتصل بالركود المؤقت فى النشاط الاقتصادى . ولذلك فوظيفتها قد انتهت وفقدت عملها . وهو يأمل بأنها سوف تدرك ما قاله لها ، ثم تعود إلى مكتبها ، وتفقد آمالها وتكف عن التفكير في الفوز والنجاح . وهى تتساءل ما الذى سوف تقوله لأولادها .

لا شئ ثابت . فقد قطعنا الأمل فى الأحلام التى رسمها لنا أباؤنا. فقد قيل لنا بأن تلك الأحلام لا تتحقق وتصبح واقعاً إلا إذا ثابرنا وعملنا بكد واجتهاد . وها نحن الآن نجد العالم فى غاية التسلط والجور لأن يؤمن بالأحلام والآمال . فنحن نشعر بالاستسلام والترك ، بل إننا نشعر أنه حتى إنجازاتنا الاجتماعية العظيمة تبدو كما لو أنها خانت أحلامنا وآمالنا .

ففى كتاب بعنوان « الرجاء في زمن الترك لكل شئ » كان جاك إيللول Jacues Ellul قد تتبع سير وتطور سخريات الأقدار المأساوية التى يواجهها هذا العصر : نحن نعيش فى عصر من أعظم عصور التاريخ هدوءاً واطمئناناً ، غير أننا نشعر بعدم أمان شخصي بدرجة أكبر من أى وقت مضى ، فعلى الرغم من أننانعيش فى مجتمع من أعظم المجتمعات تقدماً من الناحية العلمية والتكنولوجية ، فنحن نتصرف بصورة لا عقلانية وسلوك مخالف للمنطق فى علاقاتنا الشخصية . وعلى الرغم من أننا نعيش فى مجتمع من أكثر المجتمعات قابلية للتحرك والتحول ، نجد الحياة جامدة ويصعب تغييرها . وعلى الرغم من أننا نعيش في مجتمع من أعظم المجتمعات تحرراً فنحن نتزاحم ونندفع أفواجاً ملتجئين إلى الأطباء النفسيين لمعالجة أنماط سلوكنا القهرى . وبالنسبة للكثير ، نستطيع القول بأن أفضل مخدر لعلاج هذا الضيق والقلق هو التردد على المتاجر لشراء المزيد من السلع والبضائع . إلا أن المخدر يتناقص تدريجياً ، وحالاً ما نطلب المزيد . وعلى الرغم من كوننا أغنى مجتمع فى التاريخ ، ونملك الكثير من الثروات فنحن غارقون فى الديون إلى حد بعيد .

إن حالة من الحتمية الغريبة تبدو أنها تنتزع التحكم والسيطرة من بين أيدينا . فلم يحدث أبداً من قبل أنه كان لدينا مثل هذه الوسائل لنصنع تاريخنا ، إلا أننا مازلنا نتذمر بسبب هؤلاء الأسطوريين الذين يجب أن يلاموا على ما يصيبنا من مشاكل.

وما يظهر للوجود والعيان وسط كل هذا الضعف والانحطاط التدريجى هو القوى الشيطانية التى تنادى بالتمييز العنصرى والجشع . وعندما تكون عصور الازدهار الاقتصادى الأمريكى قد تقلصت ولم تعد (الفطيرة) الأمريكية تتزايد ، يقلق الناس وتنتابهم الشكوك على حصتهم من الفطيرة. ونحن نبدأ فى الإصغاء إلى أولئك الذين يحذروننا بأن شخصاً ما متربص بنا فى الخارج ليتلصص على أسلوب حياتنا . إن شياطين التمييز العنصرى والجشع ليست مجرد قوى اجتماعية . فهى تجد قوتها فى قلوبنا . إنهم يتقدمون إلى بيوتنا . وهم يجعلوننا نخشى أن نلحق أولادنا بمدارس رسمية حكومية. وهم يجعلوننا نراقب باهتمام من الذى اشترى ذلك المنزل المهجور الكائن فى نهاية الشارع . إن لم يجعلوننا نقطع الأمل فى أنبيائنا المعاصرين الذين كان لهم حلم ورؤيا لأجلنا جميعاً .

إن هذا الأمر يخلق تحديات جديدة لمن يرغبون في التحدث إلى الناس بطرق مناسبة من الناحية الثقافية ، وفي نفس الوقت أمينة من الناحية الكتابية . لقد شرحنا من قبل كيف يستطيع المسيحيون أن يعرفوا الله معرفة يقينية . وفيما بعد سوف نكون بحاجة إلى تأكيد الإيمان بالله في غمرة الشكوك الخطيرة ، ففي كل المجالات لا يوجد شئ يقيني .

ينبغي على الكنيسة أن تتعلم كيف تصغي للأسئلة التي تلح على الناس بشكل مستمر ومزعج ، والتي تُسأل في الخطب والأحاديث العامة والافتتاحيات التي تعبر عن رأي ما . وكثيراً جداً ما يتم إلقاء هذه الأسئلة بعيداً عن أنظار الجمهور ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، عندما يُصاب الناس بالأرق . وما أن نسمع هذه القضايا والمسائل المعاصرة ، نندفع فوراً إلى الكتاب المقدس لكي ما ندعِّم قضايانا ونؤكد أحلامنا. غير أننا نقرأ فيه عن المسيا الذي لديه بعض الأفكار المختلفة تماماً عن الخلاص . فقد رفض يسوع أن يخفف مخاوف الناس ويحررهم مما يزعجهم ويقلقهم فيما يتعلق بالقضية الرومانية أو مشكلة الجزية أو مشاكل الصحة والجوع أو الدين . لكنه عوضاً عن ذلك دعى الناس إلى الدخول إلى أعماق مخاوفهم ، إذ كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي بها يجدون مخلصاً .

فكرة عن الإيمان المهجور

عندما كنت أشارك رعايا كنيستي في معرفة ما الذي يعنيه أن يسوع هو مخلصهم ، لاحظت أنهم يختبرون دائماً نور الرجاء عندما يشعرون بالخوف الشديد الغامض ، وقد عبر الرب يسوع عن هذه الفكرة على نحو أفضل حينما قال : « فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ومن يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلصها » (لوقا ٩ : ٢٤).

من المتعذر علينا أن نتبع يسوع دون أن نضطر إلى ترك شئ ما بدون تردد . فإن رحلة التبعية هذه التي تبعدنا عن الأماكن السابقة وتحملنا إلى المكان الجديد هو ما يهدينا إلى الإيمان والحياة الجديدة .فالاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة ليس مجرد قبول صيغة لاهوتية لأجل خلاص أبدي ، رغم أن ذلك صحيح . غير أنه أكثر من ذلك بكثير . إنه عبارة عن الكشف عن خلق وإبداع الله المؤلم والجميل والمستمر على طول الطريق في مسيرة حياتنا .

فقد كان ذلك عمل الله المغِّير والهادي إلى الإيمان والحياة الجديدة الذي حول تائهاً وشارداً

عبرانيا إلى محرر شعب إسرائيل ، ومن راعى غنم إلى ملك ، ومن صيادى السمك إلى صيادى الناس ، ومن مضطهد يهودى للكنيسة إلى رسول للأمم . إنه عمل الله الذى أقام لعازر الميت ليكون المحب الحى ليسوع الذى أكل معه وكان أحد الجالسين معه لتناول الطعام .

فى كل مثل توضيحى كتابى عن الاهتداء إلى الإيمان بالله وقبول الحياة الجديدة معه ، نجد أن هناك مهمة وعمل تبشيرى قد صاحباه ولازماه ، فلا يوجد من اهتدى إلى الإيمان وقَبِل الحياة الجديدة لأجل فائدة ونفع شخصى مقصورين عليه . وربما يكون هذا هو السبب الذى لأجله لابد وأن نخسر حياتنا لكى نجدها . إن القصد من الاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة فى الكتاب المقدس هو ليس لتحقيق الذات روحياً ، بل لأجل إرسالية المسيح التبشيرية . إن سلسلة أحداث الاهتداء الكتابى المثيرة ليست مقصورة أبداً على الصراع المضمون المأمون بين الشك والإيمان فى العقائد والتعاليم المسيحية ، ولكنها تشتمل دائماً على عملية رائعة وفوق العادة لخلق رسل غزيرى الرؤى عن طريق تلاميذ خائفين .

هذا هو ما أعرفه عن هذا الموضوع . فأنا أكتب وأعظ وأعلّم عن هذا الموضوع لأنى أجد آن الله يعمل فى حياة من أحبهم أنا . هؤلاء هم مسيحيون عاديون ، وهم متميزون فقط لأن خسائرهم قد حملتهم إلى مهام تبشيرية جديدة . إذ كانوا يظنون بأن إصابتهم بمرض السرطان أو طلاقهم أو بليتهم وحزنهم كان يعنى نهاية حياتهم ، وهذا صحيح . ولكن الحياة كما كانوا يعرفونها قد انتهت . ولم يُعطوا بدلاً منها حياة جديدة فحسب ، بل قد أعطوا هدفا جديداً للحياة .

ففى الكنيسة نحن نشير إلى رسالة شخص ما فى الحياة على اعتبار أنها مهمة مسيحية . وربما يتقاضى عنها أجراً أو ربما يعمل بدون أجر ، وربما ينظر إليها على اعتبار أن رسالته جديرة بالاعتبار أو غير مهمة . فإن بعض المهام يكون غرضها هو الإبقاء على العلاقات والتأكيد على استمرارها . وبعض المهام الأخرى يكون مركز اهتمامها إتمام الواجبات ، وبعض المهام تحترمها الكنيسة بلا جدال . مثل أولئك الذين تقيمهم ليكونوا شمامسة وشيوخ ورعاة . وبعض المهام لم نكن قد قررنا وحكمنا كيف تقام ، مثل أولئك الذين يعتبرون ملحاً ونوراً فى ميدان الحياة، أولئك الذين يهتمون بالحاجات الكبرى لصغارهم فى البيت ، ثم أولئك الذين يدعون إلى خدمة الصلاة .

إن كلمة Vocation تأتى عن الكلمة اللاتينية Vocarie التى تعنى تماماً يدعو . فإن مهمتك هى دعوتك التى دُعيت إليها . إنها ما قد طلبه منك الله أن تعمله بحياتك . وعادة يدرك الناس هذه الدعوة عندما تكون لديهم دعوة للعمل بالفعل، إلا أنهم يدركونها دائماً عندما لا تكون لديهم دعوة.

فإن كانت الدعوة المسيحية تختص بما دُعيت للقيام به ، فإن الاهتداء المسيحى هو ما يختص بما يجب أن تكون عليه . فلا يمكن أن يكون لديك أحدهما دون الآخرى . فإن الكنيسة تميل لأن تدعو الناس أولاً إلى الاهتداء إلى الإيمان بالله وقبول الحياة الجديدة .

ثم بعد ذلك تتجنب تحميلهم بالتزامات . ولكننا نجد فى الكتاب المقدس رجالاً ونساء كانوا قد اهتدوا إلى الإيمان بواسطة مهامهم التى دعاهم الله إليها أمثال إبراهيم وموسى وداود وإيليا وبولس ثم تلاميذ المسيح . فقد كانت الدعوة هى التى غيَّرتهم وهدتهم إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة . على أنه لم يكن هناك أمامهم طريق آخرلأن يقبلوا نداءات الدعوة لتغيير الحياة ، بدون ترك كل شئ وبدون قطع الأمل تماماً فى حياتهم السابقة .

وكما تنبأ يسوع لبطرس ، فإن مهمتنا هى الذهاب إلى مكان ما « ويحملك إلى حيث لا تشاء » (يو ٢١ : ١٨) . فجزء من سبب عدم رغبتنا فى الذهاب هو أننا لا نريد أن نترك المكان الذى كنا نحاول فيه أن نخلّص حياتنا . ولكن السبب الرئيسى الذى يدعونا لرفض الذهاب إلى المكان الذى يريد المسيح أن يدعونا إليه هو أننا نعلم بأنه سوف يتحتم علينا أن نتخلى عن معظم انطباعاتنا الباقية فى أذهاننا المتصلة بمن نكون نحن .

أعطنى ذلك الدين القديم الزمان :

عندما كنت فى الثالثة عشر من العمر ، جاء أبناء الوادى الشرقى إلى بلدتنا ، وهم مجموعة تتكون من أربعة أفراد للترنيم والوعظ ، وكانوا قد دعوا لقيادة أسبوع فى خدمات اجتماعات نهضة روحية .

وكانو يرتدون سترات خضراء فضفاضة ، وكانت أسنانهم تلمع بينما كانوا يرنمون . وقد أدوا ترنيمة « رقصة الصليب القديمة » بحماس ، وساعدهم على أداء مهمتهم بشكل هائل وجود خيمة ضخمة ذات القوائم الثلاثة التى استؤجرت خصيصاً لاجتماعات النهضة الروحية . هناك

كنت تشم رائحة نشارة الخشب وقماش الخيام المبلل وترى صفوف الكراسى القابلة للثنى المرتبة ترتيباً دقيقاً ومحكماً وتسمع أصوات مكبر الصوت العالية والصاخبة جداً وترى سلك المصابيح الكهربائية المتوهجة الضياء المتدلية على قوائم الخيمة ، كل هذا خلق جواً يوحى بالروحانية الأرضية .

لا أحد كان يعنيه الأمر كثيراً بخصوص تعليم مبشرى نهضتنا الروحية . ففى الاجتماعات - التى لم يطلق أبداً عليها عبادة- لم يكن هناك قوانين إيمان وثياب الكهنوت أو حتى نشرات وإعلانات كنسية .. وفريق الترنيم المتطوع للخدمة ، المكون من سيدات ذوات الوزن الثقيل الزائد عن اللازم تقريباً لم يرتلن أية ترنيمة من تأليف باخ المؤلف الموسيقى الألمانى ، غير إننى أعلم بأنهن كن بارعات على الأقل فى الأعداد العشرة من ترنيمة « كما أنا آتى إليك .. » فى نهاية الليلة .

وكصبى صغير كنت أبتهج بكل هذه الأمور . فقد خلقت الخيمة الكبيرة مدخلاً جديداً لعالم عمال الطبقة الكادحة لكى يقبلوا إلى حياة مختلفة تماماً . فإنه على الرغم من جوها الذى يوحى بألعاب السيرك ، فقد شجعتنا الخيمة على أن نرى شيئاً مختلفاً تماماً عن عالمنا الذى عرفناه .

وقد جلست بجوار رفاق طفولتى . لم نكن نعتبر أنفسنا من الطبقة الفقيرة ، لكن قد يكون من السماحة والكرم أن ندعو بعضاً من والدينا من عمال الطبقة الكادحة . فقد كان الكثيرون منهم عاطلين عن العمل تماماً ، إذ كانوا ينتقلون من عمل إلى آخر . ولقد كانت مفاسد إدمان الكحوليات مشكلة كبيرة ، ربما كانت مثل إساءة معاملة الزوجات ، غير أنه لم يكن من يتحدث كثيراً عن هذه المشكلة . لقد رأينا والدينا يتحملون تقريباً كل (ترك وهجر) تحت الشمس . فلو كانت لدينا الجرأة بأن نتحدث فى هذا الأمر ، لكنا قد سلمنا بأن الحلم الأمريكى قد هجر بلدتنا منذ عهد بعيد . حتى الصبى البالغ من العمر الثالثة عشر استطاع أن يقرر بأن هذا النوع من الحياة لم يكن فى فكر الله .

إن كل شئ كان يحدث فى ليالى النهضة الساخنة هذه أدى إلى الاستجابة لدعوة المبشِّر فى نهاية الليلة . فبينما كان فريق الترنيم يدندنون بالموسيقى المصاحبة لكلامه ،كان هو يشجعنا مراراً وتكراراً بأن نخطو ونتقدم إلى الأمام ونسلم حياتنا ليسوع . تلك كانت مرحلة خاصة بأحداث اجتماعات النهضة الروحية . أما الآن فقد حان الوقت لأن نأخذ خطوة أوسع بأن نرجع

ونتحول عن أمور العالم المحبطة والمخيبة للأمال، وأن نرجع مرة أخرى إلى المخلص يسوع المسيح .

لقد مر زمن طويل منذ أن جلست في خيمة اجتماعات النهضة الروحية . فقد حصلت الآن على شهادات لاهوتية كثيرة جداً ، وقد ارتبطت بتقليد لاهوتى يقف مندهشا أمام كل شئ كان يجرى فى الخيمة القديمة . فأنا أستطيع أن أحصى أعمال الطبقة الكادحة فى كنيستى المشيخية على أصابع اليد الواحدة .. فلم يعودوا بالكثيرة التى كانوا عليها أيام الخيمة ، وقد أصبحت مغرماً حقاً بإنتاج باخ الموسيقى . وأكثر من ذلك ارتبطت أحاسيسى ومشاعرى بأنابيب الأرغن التى ملأت موسيقاه أرجاء معبدنا المقدس الضخم المصنوع من الرخام . إننى أميل إلى نظام العبادة والطقوس الدينية ، وإذا لم أسمع عبارة الكرياليسون الجميلة - يارب ارحمنا - أو ناقوس القداس من جوقة الترنيم فى خدمة العشاء الربانى ، أشعر بأننى سُلبت شيئاً ما . ولكننى أحياناً، عندما أرتل فى الحمام أثناء استحمامى بالدش ، أجد نفسى أرتل ترنيمة « رقصة الصليب القديمة » .

وفى خدمتى الدينية ، ربما كان من السهل أن أصرف النظر - أو على الأقل أحاول أن أخفى اختباراتى القديمة المتصلة باجتماعات النهضة الروحية . وربما لا يكون من الصعب أن يتحدى المرء الكثير من الفكر اللاهوتى لأولاد الوادى الشرقى- إذا كان لهم فكراً لاهوتياً - وأنا أشك حقيقة إن كنت أستطيع الآن البقاء فى خيمتهم طويلاً . ولكن لا يمكن أن يغيب عن ذاكرتى دعوتهم لنا قائلين : « ها هى الفرصة أمامك الآن ، أن تخطو وتتقدم إلى الأمام وتسلم حياتك لله » . فأنا لا أزال أعتقد بأنهم كانوا على صواب تماماً فيما يقولون .

وكراعٍ للكنيسة فى هذه الأيام ، فإننى أتكلم إلى أناس يبدو أنهم يختلفون تماماً عن أولئك الذين كانوا يقومون بالتهوية لأنفسهم فى خيمة اجتماعات النهضة الروحية فى ليالى الصيف الحارة . إنهم يرتدون ثياباً أفضل قليلاً ويكسبون قدراً كبيراً من المال ، وقد بذلوا بوجه عام جهداً ملموساً فى تحقيق الحلم الأمريكى. غير أننى كل يوم أحد احدِّق فى مقاعد الكنيسة وأرى الناس الذين هجرتهم العائلة والصحة والانشغال فى العمل بقصد الوفاء بمتطلباتهم وحاجاتهم .

إننى أرى نساء ناجحات تجاوزن الأربعين من العمر ، وأتساءل لماذا هن غير متعلقات بأولادهن . وأرى نساء كن قد انقطعن عن أعمالهن ليمكثن فى البيت مع الأبناء وأتساءل ما إذا كان العالم يهملهن .

لدينا كنيسة ممتلئة برجال في الخمسينيات من العمر الذين ليسوا سعداء في أعمالهم إلا أنهم لا يمكنهم أن يتحملوا ترك أعمالهم ووظائفهم ويكفون عن العمل لأنهم بحاجة لهذه الوظائف للإنفاق على حياة لا يحبونها .

وفي العبادة كل يوم أحد ، نجد أن هناك آباء وأمهات يجلسون بجوار صغارهم مباشرة ومع أنهم لا يفهمونهم بالقدر الكافي ، إلا أنهم يقلقون ويهتمون بشأنهم . وإذ يملأ القلق قلوبهم نجد أن الوالدين يقولون ويفعلون أشياء تتسم بالتهور الناشئ عن اليأس وفقدان الأمل التي تدفع الأولاد إلى صمت مروع تماماً .

مقابل كل زواج أجريه ، هناك على الأقل زيجتان على حافة الهاوية في كنيستنا . في كل مرة أعمِّد فيها طفلاً جديداً أبدو دائماً وكأني ألمح بسرعة خاطفة نظرة أرملة فقدت زوجها حديثاً وتحاول أن تحسب كيف يتسنى لها أن تثابر وتواصل الحياة بدون محبوبها .

إني أرى كل هذه الحالات كل يوم أحد في الكنيسة . وأراها طوال الأسبوع في المستشفيات وفي غرف المعيشة وفي مطاعم الشركات ثم أراها في مكتبي الخاص . وعندما أقارن هذا كله بما حدث للصبي البالغ من العمر الثالثة عشرة الذي جلس ذات يوم في خيمة اجتماعات النهضة الروحية القديمة ، فإني أدرك أن هذا لم يكن كل شئ في فكر الله بالنسبة لي. فلم تكن دعوة الله لي أن يكون هذا كل ما هو في الموضوع ، فدعوة الله لي للارتباط به ليس في جو النهضة، ولكن في جو الحياة العملية ، ومثل القساوسة الذين ينظمون اجتماعات النهضات الروحية من قبلي ، أحاول أن أخلق مدخلاً بين الأرض والسماء فأقول لهؤلاء المؤمنين الذين أحبهم كثيراً جداً : ربما تكون الآن فرصة مناسبة أن تخطو إلى الأمام وتتقدم وتسلم حياتك ليسوع لكن دعوتي هنا تأخذ مفهوماً جديداً .

فمن المؤكد أنهم قد فعلوا ذلك منذ زمن طويل ، ربما في فصل التثبيت الديني أو رياضة الشباب الروحية ، أو ربما قد نشأوا بالفعل في مناخ ديني مؤمنين بيسوع . وأما الآن ينبغي عليهم أن يؤمنوا به ويتكلوا عليه في طريق حياتهم العملية كل يوم ، فقد تخلوا الآن عن كل الأشياء الأخرى التي تعمل على خلاصهم . وما عليهم الآن إلا أن يدعوا الموتى يدفنون موتاهم ، وأن يضعوا أيديهم على المحراث وألا ينظروا إلى الوراء .

كراهية التجديد :

إن الحديث عن الاهتداء إلى الإيمان والتحول إلى الحياة الجديدة يلقى كراهية حتى فى الأوساط الإنجيلية وبين العاملين فى خدمة الإنجيل ، ربما يكون السبب لأننا مرتبكين بسبب القسوس الملتهبين الذين يخدمون بيننا ، فانفعالهم الغاضب يلاشى كل الكلمات الحقيقيه عن النعمة والمحبة الحقيقية الصادقة . وربما لأننا نحيا وسط أناس مهتدين إلى الإيمان منذ فترة طويلة لدرجة أننا نتصور بأن ليس هناك الكثير والمؤثر الذى يكون مختلفاً عنهم . وربما يكون السبب أننا مللنا من الكارزين بالإنجيل الذين يتكلمون فقط عن حالات الاهتداء إلى الإيمان بالله وقبول الحياة الجديدة ، غير أنهم نادراً ما يقولون شيئاً عن أولئك الجياع والغرباء والمرضى والعرى أو المأسورين (مت ٢٥ : ٤٣).

إننا نعلم جميعاً بأن هناك ما هو أكثر عن الإنجيل من مجرد أن نؤثر فى الناس ونأتى بهم للتوقيع على بطاقات اتخاذ قرار قبول الإيمان .

لكن هذه الأسباب ليست هى أفضل الأسباب التى تدعونا لأن نكون فى حالة خوف شديد بشأن الاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة . فإن أقوى سبب هو أنه سوف يغير كل شئ فالاهتداء إلى الإيمان بالله أمر مركزى فى العهدين القديم والجديد ، فأنت لا تستطيع أن تدرك تعاليم الأنبياء والرسل أو تعاليم الرب يسوع نفسه بدون مواجهة والدعوة بأن تتخلى عن الحياة التى تقودك إلى لا مكان ، أن تهجر ما قد هجرك ، وأن تخطو إلى الأمام وتسلم حياتك لله . فمن يدرى ما الذى قد يفعله بها ؟

إن كلمة الاهتداء إلى الإيمان بالله عينها تجعل الانفعالات والعواطف تنطلق بسرعة . فالبعض يسمعون الكلمة ثم يفكرون فوراً فى الذكريات الدافئة يوم أدركهم الله ودخل إلى حياتهم . إنهم يذكرون بالضبط زمان ومكان اهتدائهم وقبول الحياة الجديدة . وهم يريدون للآخرين أن يكون لهم نفس الاختبار . والواقع أنهم يعتقدون بأن الكتاب المقدس يلزمهم بقوة لكى يتأكدوا بأن الآخرين لهم نفس الاختبار تماماً . ولكن عندما يسمع البعض الآخر كلمة الاهتداء يريدون الهرب سريعاً من المكان . ولا ينطبق هذا الكلام فقط على غير المسيحيين الذين يقاومون الاهتداء بهذا الأسلوب ، بل هكذا يفعل أولئك ، أمثال تيموثاوس ، الذين كانوا قد تربوا ونشأوا فى « مهد الإيمان ومنذ الطفولية » . إن مثل هؤلاء لا يمكنهم أن يذكروا الزمان والمكان المحددين اللذين فيهما بدأوا

الإيمان بيسوع كمخلص ، تماماً مثل عدم مقدرتهم علــى تذكر الوقت الذى آمنوا فيه بمحبة والديهم .

إن مناقشة كيفية الاهتداء إلى الإيمان ونوال الحياة الجديدة بدأ منذ زمن طويل ، وهو أمر مرتبط بوجهات النظر حول موضوعات المعمودية والكرازة بالإنجيل وطبيعة الكنيسة . إن هذه المناقشة فى هذا الأمر والتفكير فيه هو أمر فى غاية الأهمية ، لكننا ننبش فقط على سطح العقيدة أو التعليم الأساسى للاهتداء إلى الإيمان بالله إذا ما قصرناه على مناقشة متى تبدأ حياة المؤمن المسيحى .

إن الاهتداء إلى الإيمان ونوال الحياة الجديدة يصور لنا رحلة المسيحى ، وليس بداية دخوله فى رحلة الإيمان بالمسيح فقط . والاهتداء يصف لنا أيضاً ما يحدث لمن يواصلون وقوفهم على الطريق وبقائهم خلف يسوع وهو يحملهم إلى مكان قد لا يفضلون الذهاب إليه ، ويقدم لهم الدعوة إلى العمل التى تغير كل شئ .

الدعوة :

إن محور تعليم الكتاب المقدس حول موضوع الاهتداء إلى الإيمان بالله ونوال الحياة الجديدة هو الدعوة إلى اتخاذ قرار الاختيار . فإنه بالمواجهة المتصلة بترك كل شئ ، يستطيع المسيحيون أن يرجعوا بقلوبهم وأفكارهم إلى الأشياء التى خسروها أو يتحولوا إلى الرجاء بأن يسوع المسيح هو بحق مخلصهم .

والمصطلح اللاهوتى لهذا الاختيار هو التوبة . والكلمة اليونانية للتوبة هى metanoia وهى تعنى تماماً « يتحول أو يغيِّر طريقه » . وقبل أن تصبح الكلمة مصطلحاً كتابياً كانت الكلمة اليونانية metanoia تستعمل عادة لتصف عملية الرجوع . فإذا غادر رجل بيته ثم تذكر بأنه نسى شيئاً فقد « يتحول » ويلتفت حوله ويرجع إلى البيت . وعبر العصور أضافت الكنيسة لكلمة التوبة مفاهيم وأعطتها مدلولات الدينونة والندم ، ولكن دعوة الكتاب المقدس التى تدعونا إلى التوبة والاهتداء إلى الإيمان بالله ونوال الحياة الجديدة لا تزال تعنى أساساً أن نتحول متجهين نحو العمل الذى يعمله الله فى حياتنا .

إن الحياة تستمر فى مواجهة المسيحيين بنداءات الدعوة إلى أن نتوب ونهتدى إلى الإيمان بالله ونوال الحياة الجديدة ، حتى بعد أن كنا قد بدأنا أن نحوِّل وجوهنا نحو الله . فقد يكون خلاصنا الأبدى مضموناً عن طريق القرار الأولى بقبول غفران المسيح ، وأما الاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة فى المسيح فهو عملية مستمرة مدى الحياة فيما يتصل بالرجوع عن خططنا وتدبيراتنا والتحول نحو إبداع وخلق الله المذهل الذى ليس فى الحسبان .

وعلى الرغم من حرصنا ويقظتنا وعملنا الشاق ، فقد لا نصل أبداً إلى الحياة التى نحلم بها . فالواقع أن أحلامنا تتعلق بالأشياء التى تخلت عنا وتركتنا . إلا أننا الآن نسمع دعوة يسوع المسيح القائلة : « ها هى الفرصة أمامك الآن ، وهى أن تخطو وتتقدم إلى الأمام وتعطى حياتك لله » .

الفصل الثانى

مناسبة رهيبة

يأتى الاهتداء إلى الإيمان ونوال الحياة الجديدة حسب خطة الله وليس وفق خطتنا نحن . إن ذلك يفزعنا ، لأنه سوف يغير من نمط حياتنا الذى اعتمدنا عليه ، ونظراً لأن الله هو الذى بادر بهذه الخطوة ، فالاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة هو نعمة إلهية والنعمة هى عطية مجانية لم نكن مستعدين لقبولها مما يزعجنا هذا ويرهبنا كثيراً جداً .

اهتداء المتدين :

معظم شعب كنيستى يميلون إلى بولس الرسول قبل أن يهتدى إلى الإيمان ويقبل الحياة الجديدة فى المسيح يسوع . فقد كان مثابراً مجتهداً طموحاً ومكرساً نفسه تكريساً حقيقياً لقيمه الدينية . وقد كان شاول ، كما كان يُسمى آنذاك ، هو المحقِّق للأحلام المتطرفة والجامحة للأمة اليهودية .

فقد كانت له مهمة ضخمة فيما يتصل بالنظام الدينى . وكأمر جوهرى وأساسى ، نستطيع القول ، بأن مهمته كانت التأكيد على أن لا شىء قد تغير . وقد كان أعظم تهديد يهدد ذلك التنظيم هو دين يهودى جديد يدعى مذهب الطريق أو مذهب الرب . وبعد حوالى أربعين سنة انتهى به الأمر ليدعى المسيحية . فالذين كانوا ينتمون إلى مذهب الطريق أصبحوا أتباعاً لنجار يدعى يسوع ، وها هو الآن قد مات ، الذى ادَّعى يوماً ما بأنه هو المسيا . ولقد أصرَّ هو والهراطقة - من وجهة نظر شاول وأتباعه - أنه قد قام من الموت وبأنه قد كان رجاء العالم .

وكان شاول يبغض هذه الأفكار الدينية الجديدة . فلماذا يهدد شخص ما التعاليم التى تتميز بقداسة وتبجيل القديم ، التى تعطى المتعة العقلية من الناحية اللاهوتية . كان الأمر الوحيد الذى أراده شاول أن يغير هو أى شئ كان يهدد فهمه لله . فقد كان شاول يعلم كل ما يختص بالله ، ولم يكن يفكر فى أن يتخلى عن موقفه من الحقيقة .

فقد تلقى شاول نبأً بأن بعضاً من جماعة الطريق أو مذهب الرب كانوا يختبئون فى دمشق .

لذلك بدأ يتعقبهم . وفي الطريق إلى دمشق ، أو في الطريق التى يسلكها ليتقدم فى عمله لكى يعمل الصالح والصحيح جداً بالنسبة لله . أصيب شاول بالعمى بسبب نور من السماء كان أكثر لمعاناً من شعاع الشمس . فوقع على الأرض وسمع صوتاً يقول « شاول شاول لماذا تضطهدنى ؟ » فقد كان هناك الكثير بالنسبة لله الذى يعلّمه لشاول .

ونلاحظ أن هذا لم يكن الاهتداء إلى الايمان بالله وقبول الحياة الجديدة لخاطئ تائب . فلم يأت شاول إلى الرب طالباً الغفران . والواقع أن هذا الاهتداء لم يكن أيضاً فى فكرة ، شاول . فالاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة يبدأ دائماً بمبادرة الله المزعجة لحياتنا .

يزعجنا أن نفكر فى الإله الذى عندما يتدخل فى حياتنا الصالحة ويقول « أنا لا يعنينى نوع تكريسك الذى تؤمن به فالقضية أنك لا تعرف من أنا » ، فلو حدث ذلك ، لكانت الحياة مختلفة تماماً . وعكس ذلك هو صحيح أيضاً . فلا يهم مدى ما نشعر به من يأس ونحن نطلب أن نتغير ، فلن يحدث التغيير إن لم ندرك الله بصورة مختلفة . فإن الله وحده هو الهادى إلى الإيمان ، فنحن لا نستطيع أن نغير أنفسنا ، ولا نقدر إلا أن نتغير عندما يكشف لنا عن ذاته أكثر .

أن نتبع يسوع يعنى أن نبدأ عملية مستمرة مدى الحياة لاكتشاف المزيد عن الله أكثر مما نعلم ، اكتشاف أن « طرقى ليست طرقكم » هو اكتشاف بأننا لم نكن نعبد الله بل كنا نترقبه . فلا شيء يجعل الأمر أكثر صعوبة لأن نرى الله أكثر من توقعاتنا وانتظاراتنا بالنسبة له . فهى تعمينا وتخدعنا عن الطرق الجديدة التى يعدها لخلاص حياتنا . إن الاهتداء وقبول الحياة الجديدة يأخذنا بعيداً عن كوننا متدينين ، بعيداً عن أن يكون لدينا كل الأجوبة . إنه يرجع بنا إلى الرحالة والسائحين الذين يرتحلون من الحياة وهم يحملون معهم أسئلة معينة . ولأن الله يعمل دائماً فوق محدودياتنا فإنه يدعونا إلى أن نقوم بمغامرة إلى المجهول حيث نُترك من جانب كل شيء ، ولاسيما من جانب انتظاراتنا الرئيسية من الله .

وما أن نال شاول هذه الرؤيا العظمى للرب ، إلا وتحول من كونه مضطهداً للكنيسة إلى نصيرها ومؤيدها القيادى .

إن شخصية شاول لم تتغير كثيراً ، إلا أن الحماسة والغيرة التى اضطهدت الكنيسة من قبل

أصبحت الحماسة والغيرة التى انطلقت بالإنجيل حول العالم . ثم تغير اسمه أخيراً إلى ترجمته الهلّينية بولس . وبهذا التغيير كان من الواضح أن هويته اليهودية كانت قد تحولت بمقتضى إرساليته الجديدة إلى الأمم . مرة أخرى نقول إنها الإرسالية التى أجرت التحول إلى الحياة الجديدة.

وفى الوقت الذى كان يتلقى فيه بولس رؤيته من الرب ، كان حنانيا ، وهو شيخ فى الكنيسة الجديدة ، قد تلقى أيضاً رؤية من الرب . حيث قال له الرب فى الرؤية بأن يذهب إلى بيت يهوذا ويعتنى ببولس . وقد كان حنانيا متردداً فى بادئ الأمر أن يعتنى ويهتم بمضطهد الكنيسة ، غير أن الرب أصر على موقفه بأن يقوم حنانيا ويذهب ، وهكذا تحول الشيخ أيضاً واهتدى . كان تحول بولس موجهاً إلى الكنيسة . وأما تحول حنانيا فقد كان بالرجوع إلى العالم الذى كانت الكنيسة محتجبة عنه .

لقد طمأن الله الكنيسة وأكد لها مرة أخرى بأن بولس كان لى إناء مختاراً ليحمل اسمى أمام أمم وملوك وبنى إسرائيل ، لأنى سأريه كم ينبغى أن يتألم من أجل اسمى (أع ٩ : ١٥). وهذا ما حدث ، فقد تحول بولس واهتدى لأنه كان إناءً للرب . فقد كان امتياز اهتدائه بأنه يتألم من أجل الرب . وعند نهاية عمله التبشيرى أخبر بولس الرسول مؤمنى فيلبى بأنه « يحسب كل شئ أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى » (فى ٣:٧). فإن عاجلاً أو آجلاً نترك كل شئ آخر لأجل ذاك الوحيد الذى سوف لا نخسره أبداً .

من الواضح أن بولس قد مات بينما كانت الكنيسة لاتزال ناشئة كجماعة دينية جديدة تشق طريقها جاهدة من أجل البقاء . وبينما كان قابعاً فى السجن الرومانى لابد وأنه اجتاز لحظات من الشك العميق يتساءل ما إذا كان على الإرسالية المسيحية أن تناضل وتصارع من أجل البقاء . وهذا توضيح آخر للحقيقة القائلة بأن الاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة له مقاصده التى تفوق امتيازاته للفرد . إن الله يهدينا إلى الإيمان لأجل إرسالية عظمى تبقى إلى ما بعدنا لنسلمها إلى غيرنا . فنحن نعمل الآن لأجل ملكوت يسوع المسيح الآتى الذى كان على الطريق قبل أن نجئ ، وسوف يواصل مسيرته إلى مابعد رحيلنا من هذه الدنيا . وفى كلمات مألوفة للقديس أوغسطينوس نستطيع القول « لا يوجد عمل قيم وجدير بالاحترام يمكن أن يتم خلال حياة شخص واحد ».

اهتداء المتدين - قصة أخرى :

قبل سن السابعة عشرة رجعنا أخى وأنا إلى البيت من المخيمات المسيحية حيث كنا نعمل طوال فصل الصيف ، وإذ بنا نكتشف بأن أبوينا قد انفصلا ، إذ كانت والدتى قد تركته بالفعل . وأما عن والدى فقد استقال من الكنيسة التى كان راعياً لها ثم هجر الجميع ، ونحن لا نعلم أين يوجد .

ربما كان شعور أبى بالإخفاق والعجز عظيماً للغاية حتى إنه لم يستطع رؤية أبنائه دون أن يعانى ألما نفسياً بسبب العائلة التى تحطمت وضاعت . ربما قد كان هجره لنا أمراً هيناً بالنسبة لأمور أخرى لا نعلمها . لقد فقد الأشياء التى تمثل أهمية لمعظم الآباء وهى حفلات التخرج من الجامعة وحفلات الزفاف واختيارات المهنة أو العمل والأحفاد . وقد بذلت وأخى كل جهد لنجده ، غير أننا فى الوقت المحدد رأينا أن نتركه وحال سبيله .

إننى أدرك ما يختص بالهجر والترك لكل شيء. وأنا أعرف بإنك لن تتغلب عليه حقاً . وإننى أعرف أيضاً بأنه يمكن للترك أن يفرض عليك التغييرات التى تعتقد بأنها سوف تقضى عليك ، غير أنها فى الواقع سوف تخلص نفسك .

أراد أخى وأنا يوم عيد الميلاد التالى لانفصال أبوينا أن نزور والدتنا . ولم يكن لدينا ما يكفى من المال لأجرة المواصلات ، لذلك قررنا أن نسافر متطفلين - أى أن نوقف السيارات المارة فى الطريق لنركبها مجاناً . فاذا ما سارت الأمور سيراً حسناً ، فإن الرحلة كانت ستستغرق يومين . ولكن ركوب السيارات لم يكن سهلاً . إذ أصبح الجو مكفهراً. وبدأت السماء تمطر . وأخذ عدد السيارات يتناقص بالتدريج على طريق النقل السريع .

وعندما كنا صغاراً كان والدنا يلزمنا على حفظ مقاطع من الكتاب المقدس . ولم أستطع أبداً أن أفهم تماماً القصد منه ، إلا بعد ما ظهرت بعض التهديدت بأن « الشيوعيين الملحدين » كانوا بصدد مصادرة كتبنا المقدسة . ولكن كثيراً ما كنا نجتاز امتحاناً قصيراً للآيات الكتابية التى كنا نحفظها. وقد يرغب والدنا فى أن يناقش شاهداً كتابياً ، وقد كان علينا أن نسمِّع النص الكتابى غيباً . وقد حفظت الكتاب المقدس لأنه قيل لى إنه ذو أهمية ، ولأن كل من أعجبت بهم فى كنيستى الصغيرة قد حفظوا الكتاب المقدس . ولأننى كنت متيقناً بأن الله نفسه أراد أن

أحفظ الكتاب المقدس ، إلا أنني في الغالب كنت أفعل ذلك لأني كنت مُلزماً . وبينما مرت الأعوام ، هكذا تجمعت الآيات الكتابية التي كنت قد حفظتها وتراكمت في ذاكرتي . فقد استوعبت الله في ثنايا عقلي .

وبينما نحن واقفين على جانب ذلك الطريق ، حيث حل الظلام واسودت السماء وتساقط الثلج بشدة ، بدأ أخي وأنا الحديث عن ما كان قد حدث لنا في هذه الدنيا . وبعد برهة من الزمن لم نستطع حقاً الحديث عن هذا الموضوع بعد الآن . فإنه لكي نتجنب التفكير في البرد ، وأيضاً ما يذكرنا ببيتنا الضائع ، بدأنا نمتحن بعضنا بعضاً على آيات الحفظ . إذ كنا نسير جيئة وذهاباً قائلين : « توكل على الرب بكل قلبك وعلى فهمك لا تعتمد . في كل طرقك اعرفه ، وهو يقوِّم سبلك » (أم ٣:٥) . ونحن نعلم أن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله الذين هم مدعوون حسب قصده (رو ٨ : ٢٨) . لأني عرفت الأفكار التي أنا مفتكر بها عنكم يقول الرب ، أفكار سلام لا شر لأعطيكم آخرة ورجاء (أر ٢٩ : ١١) «لا تخف لأني فديتك ، دعوتك باسمك ، أنت لي . إذا اجتزت في المياه فأنا معك . وفي الأنهار فلا تغمرك ، إذا مشيت في النار فلا تُلذع واللهيب لا يحرقك . لأني أنا الرب إلهك قدوس إسرائيل ، مخلصك جعلت مصر فديتك كوش وسبا عوضك . إذ صرت عزيزاً في عيني مكرماً وأنا قد أحببتك» (إش ٤٣: ١-٤) .

في تلك الليلة ولأول مرة في حياتي سمعت هذه الآيات الكتابية ، ربما لأني كنت مستعداً للاستماع إليها . فقد كنت مرتبكاً مشوش الفكر ومرتعباً وحزيناً على ضياع كل شئ ، الذي قد كان يوماً ما محور دنياي وسبباً في تماسكها . فقد كنت بحاجة إلى مخلص .

أكان هذا اختبار اهتداء إلى الايمان ونوال الحياة الجديدة ؟ من المؤكد أنه لم يكن الاختبار الأول . وبدون شك لم يكن الاختبار الأخير للاهتداء إلى الإيمان . غير أن هذا الاختبار قد دفعني إلى أن أخطو وأتقدم إلى الأمام وأسلم الكثير من حياتي ليسوع . ما هو الشئ الآخر الذي كنت عازماً على التخلص منه ؟ تلك هي الميزة العظمى للترك والتخلي عن كل شيء إذ تجعلنا أكثر اطمئناناً لأن نصغي إلى كلام الله عن المحبة وما يعتزمه لأجلنا .

وفيما يتصل ببولس الرسول فقد حدث اختبار الاهتداء وهو في الطريق إلى دمشق . وأما بالنسبة لي فلم أر نوراً مبهراً ، غير أنني اكتشفت بأن هناك الكثير عن الله لم أكن أعرفه . إذ

كنت أعتقد أنه من خلال دروس مدرسة الأحد ، وبيتى المسيحى الذى نشأت فيه وأصحابى من الشباب وآيات الحفظ التى كنت أحفظها ، أننى قد ملكت الله وأمسكته كطائر الكنارى فى يدى . ولكن كل ما وجدته عندما فتحت يدى كان عبارة عن شاهد كتابى . وقد كان علىّ فى تلك اللحظة أن أؤمن . كان علىّ أن أؤمن ليس بما كنت أعرفه عن الله ، لأن ذلك مجرد معلومات . فى تلك اللحظة كان على أن أؤمن بأن الله عرفنى . كان علىّ أن أؤمن بأننى كنت ثميناً ومكرماً ومحبوباً .

لم أتلق دعوتى للخدمة الرعوية فى تلك الليلة . ربما جاء ذلك بعد تلك الليلة بكثير من خلال محاولاتى وجهودى الهادفة كمعلم متمرن فى كلية اللاهوت . إلا أننى تلقيت دعوة نافعة ومفيدة . فقد بدأت فى تلك الليلة كشاب ضال على جانب الطريق ، وأن أسمع أمر الرب الموجه لى ، وأدركت بأن حياتى قد ضاعت لأجل غرض وقصد ما . ربما تطلب الأمر سنوات عديدة وقدراً أكبر من الاكتشافات المثيرة المختصة بالله لأعرف ماذا كان ذلك القصد.

لا شىء ضائع :

على الرغم من أن بولس الرسول اعتبر أن حياته السابقة مرفوضة بالمقارنة مع معرفة يسوع المسيح ، فهو يعبّر فى مناسبات عديدة عن تشكراته لله لأجل حياته السابقة . فمن هو الأفضل ليقود المناقشات والمجادلات التى تدور ضد الختان بالنسبة للأمم من الغيور اليهودى سابقاً ؟ ومن هو الأفضل خبرة يوضح ويظهر بالتفصيل لاهوت الكنيسة المرسلة للعمل التبشيرى من ذلك الباحث والعالم سابقاً ؟ ومن هو أفضل من يدافع عن الحرية المسيحية من ذلك العبد للناموس سابقاً ؟

لا شئ يضيع عبثاً عندما يهدينا الله إلى الإيمان والحياة الجديدة . فإن ما نريده أن يتغير هو ما يريد الله أن يحوّله إلى شىء نافع ، إذ سوف يستخدم إساءاتنا الماضية ، وطرقنا الملتوية الطويلة التى سرنا فيها فى الاتجاه الخاطئ ثم مواهبنا ومهاراتنا القديمة . وسوف يستخدم أيضاً كل تلك المعارف الدينية التى قد اكتسبناها من قبل ، وكل تلك الآيات الكتابية التى حفظناها .

لقد أظهرت تقديراً عظيماً للحياة التى ضحى بها أبواى وكرساها لأجلى كطفل . وإننى مدين لهما بالشكر بأن وضعانى على الطريق مع يسوع الذى قد يستمر حتى بعد ما يتوقف توجيههم

لى . وأنا مدين لكل قصص الكتاب المقدس ونظم التهذيب والتأديب فى الإيمان التى علمانى إياها . إذ كنت أستدعيها جميعاً عندما أكون بحاجة إليها . إلا أننى مدين بالشكر قبل كل شئ بأن هذين الأبوين كبشر غير معصومين من الخطية حاولا بشجاعة وتحدٍ أن يتطلعا تطلعاً شديداً لله ، ليس بسبب تعاليمهما الدينية ومواهبهما وانتصاراتهما أو ضعفاتهما التى قد ورثتها ، بل بسبب تعطشهما الشديد لله . إنه من الجيد بأن أكون قادراً على أن أعبر عن ذلك لأمى ، التى أحبها حباً جماً . ولازلت آمل بأننى سوف أتمكن يوماً ما بأن أعبر عن ذلك لأبى .

النظر ثانية إلى الولادة الثانية :

إننا معشر خدام الإنجيل تصيبنا بعض الحساسية الشديدة عندما تخبر الغرباء الذين يجهلون أمر الإيمان والحياة الجديدة عما نعمله . وإننى أجد الأمر حرجاً بشكل واضح عندما يطرح السؤال من شخص يجلس على الكرسى المجاور لى فى الطائرة . وعادة ما تكون إجابتى سبباً فى إصابة السائل بالعصبية . فإذا ما اكتشف السائل بأننى قسيس إنجيلى مشيخى ، ربما يحاول أن يعلن إيمانه . وأحياناً ما يصرح مسيحى إنجيلى قائلاً « نعم إنه لشئ رائع ولكن هل أنت مولود ثانية ؟ ». حسناً أستطيع الكلام فى هذه النقطة . فإننى أستطيع أن أجيب بالإيجاب وأعود للانشغال أو يمكن أن أحاول إيضاح ماذا يقصد بهذه العبارة الرائعة وهى : « المولود ثانية » .

وعلى الرغم من أن العبارة وردت مرة واحدة فى الكتاب المقدس فقد أصبحت إلى حد ما بمثابة شعار يميز نوعية المسيحى ، فإذا كنا نستخدم عبارة (مولود ثانية) بمعنى أننا قد انضممنا للجماعة الحقيقية للمسيحيين ، فإننا نقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الفريسيون والصدوقيون والغبوريون الذين نادوا جميعاً بوضع الحواجز التى تحول دون الدخول إلى ملكوت الله .

لقد استعمل الرب يسوع فكرة «مولود ثانية» ليصف شيئاً يحدث لنا ، شيئاً ليس إنجازاً وعملاً روحياً . فأن نُولد هو فى الواقع عملية سلبية . فلا يوجد شخص اختار أن يُولد . وليس من ينتقى أسرة ليولد فيها . وليس منا من قد وُلد لأننا كنا مقتنعين بأن ولادتنا كانت أمراً ضرورياً لنا . لقد استخدم الرب يسوع الصورة المجازية لأنها تصور بشكل جميل كيف ندخل ملكوت الله ونجد حياة أبدية . فبعد كثير من الألم والدموع تولد حياة جديدة . حتى وإن أرادت الحياة أن تولد فإن تلك الرغبة هى أمر جانبى .

لقد كانت ولادة ابنتى مأساوية للغاية . فبعد أن عانت زوجتى من المخاض مدة ست وثلاثين ساعة وهى وحيدة تماماً ، بدأت تنزف . ثم أطلق الجهاز الذى يلتقط صورة الجنين - إشارة الخطر ، ثم حضر الأطباء والممرضات إلى حجرة الولادة على الفور، فقد كنت مرتعباً . وفى حالة من اللاوعى حملوها إلى غرفة العمليات ، ثم انطلقت مسرعاً خلف النقالة المحمولة عليها . ووصلت إلى أبواب غرفة العمليات لأصطدم مع ممرضة منفرة حادة الطبع التى قالت لى « أنا آسفة . فهذا الأمر جاد وخطير جداً ولا يمكنك الدخول إلى غرفة العمليات » . لم أكن قادراً على أن أفكر فيما أقول ، غير أننى كنت أرغب حقاً فى الدخول إلى هذه الغرفة . وأخيراً اندفعت فى الكلام دون تفكير قائلاً لها : « ولكننى خريج جامعة لامازى . » فابتسمت وأغلقت الباب فى وجهى .

لقد تراءى لى بأن العملية تستغرق دهراً من الزمان . وبقدر ما أستطيع أن أتذكر ، أستطيع القول بأن تلك كانت المرة الوحيدة فى حياتى التى لم أستطع فيها أن أصلى . أذكر أننى كنت أحاول الصلاة ، لكن الخوف كان يغمرنى . لقد خسرت الكثير جداً . هل كان الله يريد أن يأخذ زوجتى وطفلتى ؟

كتب الرسول بولس بأن الروح يشفع لنا فى الصلاة « بأنات لا ينطق بها » (رو ٨ : ٢٦). إننى أعرف هذه الآية . فبينما كنت أجلس فى غرفة الانتظار تحول خوفى إلى سكون وطمأنينة، فأدركت بأنه كان يمكن أن أخسر الجميع ماعدا مخلصى . وقد كان علىَّ أن أسلِّمها كلها إلى خالقها . وسواء حدث ذلك الأمر فى ذلك اليوم أم لا ، فقد كان الأمر متروكاً إلى الله .

وعندما أخبرتنى الممرضة بأن زوجتى بخير ، وأننى قد رُزقت بطفلة بصحة جيدة وذات شعر أحمر، كنت أكثر من مرتاح ، فقد كنت شاكراً للغاية . لقد تبدل خوفى من أن أفقد أسرتى إلى عرفان بالفضل لإعادتها لى . وعندما أمسكت ابنتى وحملتها بين ذراعى لأول مرة ، تحول العرفان بالفضل إلى حب غامر. فلن أنسى أبداً تلك اللحظة عندما استقبلتها وقبَّلتها فى نفس الوقت . فهى لم تفعل شيئاً لتستحق هذا الحب . فقد سبَّب قدومها ألما شديداً لزوجتى كما هدَّد حياتها حتى الموت ، إلا أنها كانت ابنتنا ، وقد أحببناها .

أن نولد ثانية معناه أن نكتشف أنفسنا كأطفال رُضَّع بين ذراعى الله الحنونة الشفوقة .ليس هناك شئ نستطيع أن نعمله لنجعل الله يحبنا أكثر . وليس هناك شئ نستطيع أن نعمله لنجعله يحبنا محبة أقل . فنحن لا نستطيع أن نؤثر فى الله ونتلاعب به . وهو لن يعطينا اهتماماً أكثر

لو قررنا أن نصبح أبناءه المفضلين . إننا نفترض بأن محبة الله لابد وأن تكون مرتبطة بشئ ما - بعملنا وإنجازنا العظيم وبتضحياتنا أو على الأقل بمحبتنا له . ولكن الكتاب المقدس واضح حقاً بخصوص هذا الأمر . فإن محبة الله لنا متأصلة وراسخة فى طبيعته الرحيمة .

أن نصبح مقتنعين بتلك النعمة ، شبيه تماماً بكوننا مولودين ثانية . إننا ندرك بأنه حتى لو خسرنا العالم ، فإن محبة الله الأب تظل كافية .

هجر لإحباطاتنا وما يخيب آمالنا :

إن من الأشياء التى لابد وأن نتحول عنها ونصدها هو ترقبنا للمجد والشهرة . إذ يرغب معظمنا فى مجرد قدر ضئيل من المجد والشهرة التى سوف تضئ الحياة التى كانت قد بهتت وأصبحت مملة بسبب الحقائق القاسية المتعلقة بالمحدودية والخسائر ، إذ ترهق المدرِّسة نفسها أملاً فى أن تجعل من تلميذ أو تلميذين شيئاً متميزاً بحق كل عام. وقد تميل لأن تكون معروفة بأنها صانعة المعجزات فى عملها ، لكن ما يحدث أنها تحصل على شكر عَرَضى فى حفل التخرج وتوزيع الشهادات آخر العام الدراسى . ويعمل موظف صغير بانتظام وقتاً إضافياً فى المكتب أملاً فى أن يمر على مكتبه مراقب العمل بعد أن يكون جميع العاملين الآخرين قد غادروا المكتب منذ فترة طويلة . إنه مجرد قدر قليل من المجد والتألق ، ولكننا نجاهد ونناضل من أجله .

من المعتاد أننا نفهم المجد على أنه يأتى باعتباره مكافأة سريعة تُعطى فى أية لحظة . فعندما يأتى الله بالمجد إلى حياتنا ، فإنه يأتى ليس كإنجاز بل كتدخل ، وليس كلحظة للفهم بل كإجابة مروعة للصلاة .

يقضى البعض منا معظم حياته يصلى طالباً بأن الله سوف يستجيب له طلبة محددة . وبعد فترة نصبح متعودين لأن نحيا بدون الشئ الذى نتطلع إليه ونطلبه إلى درجة أن الرغبة الملحَّة نفسها تتحول لتصبح رفيقنا الوفى الذى يلازم حياتنا باستمرار .تصور ماذا يمكن أن يحدث لو أن الله استجاب طلبتنا بالفعل وحقق لنا شوق قلوبنا ، لكان علينا أن نتخلى عن الرغبة الملحة والشوق الشديد الذى صار إلى حد بعيد جزءاً من الحياة . قد يكون ذلك أمراً مفزعاً ومخيفاً .

لقد قضى زكريا الكاهن وزوجته إليصابات كل حياتهما فى الصلاة لأجل أن يعطيهما الرب ولداً . حتى بعد أن شاخا وتقدما فى السن كانا يواصلان طلبتهما فى الصلاة . وبينما كان زكريا

ذات يوم يتناوب خدمة الكهانة أُلقيت القرعة فأصابته لكي يدخل إلى هيكل الرب وينوب عن الشعب في الصلاة . ولاشك أنه قد فعل ذلك من قبل وعاماً بعد عام . ومثل البخور الذى كان يقدِّمه على المذبح ، كان زكريا يرقب طلباته وهى تصعد مرتفعة إلى السماء بعيدة عن الأنظار . وذات يوم عزم الرب أن يقطع صلوات الكاهن .

ويخبرنا البشير لوقا بأن كل جموع الشعب كانت تصلى فى الخارج عند إحراق البخور بحسب التقليد الذى كان متبعاً . وفى نفس اللحظة كان الكاهن يصلى داخل الهيكل لأجل تدخل الله . عندئذ أرسل الله ملاكاً الذى قال له : « لا تخف يازكريا لأن طلبتك قد سُمعت .. فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا ؟ » (لو ١ : ١٣ و ١٨). وعلى الرغم من الصلاة المستمرة ، نكون فى حالة عدم يقين لاستجابة الله .

ولأننا قد تعودنا بأن نطلب أكثر من الأخذ ، نجد أن تدخل الله قد يرعبنا ويخيفنا ، إذ قد تكيفنا مع قسوة الحياة وتعودنا على جفافها . فقد تعلمنا بأنه مادامت الحياة ليست مأساوية، فإننا نستطيع أن نحتمل الواقع الذى سوف يكون غير مرضٍ . ولكن لا يظهر الأمل والرجاء فى أى موضع فى الكتاب المقدس لأولئك الذين قد تعلموا أن يكافحوا لأجل الفوز بقدر ضئيل من المجد والشهرة . من كانوا مثل هؤلاء الناس ، يوم وُلد يسوع ؟ هيرودس والقيصر وصاحب الخان ، فهم لا يرحبون بالملائكة التى تعلن بشارة الفرح العظيم . إنه يريد أن يعطينا رؤيا المجد ، وليس قدراً قليلاً من السعادة ، ولكى نقبل هذه الرؤيا ، يجب علينا أن نتخلى عن الصفقات والمعاملات التى قطعناها مع العالم ، الصفقات والمعاملات التى لا تعطينا السعادة الحقيقية .

والواقع أن هذا الأمر قد يتطلب الكثير جداً ، فإنه من الصعب التخلى حتى عن العلاقات المؤذية الضارة أو الأعمال والوظائف التى لا تفى أو تجئ نتيجة لمتطلبات معينة أو أساليب الحياة غير المُرضية أو المقنعة . وإنما نحن قد اكتسبنا مثل هذه الآليات التى تفى باحتياجات اليوم . وهذا هو السبب الذى يدفع الله أحياناً أن يقطع صلواتنا ليعيننا على أن نكافح ونتغلب على الصعاب ، وذلك عندما يقدم لنا فرصة مروعة لكى نقبل مهمة تبشيرية مجيدة بحق .

إنه لأمر مدهش كيف أحدثت الملائكة خوفاً عظيماً عندما بشروا بميلاد يوحنا المعمدان ويسوع المسيح . إذ قد تجاوب الجميع – زكريا ومريم ويوسف والرعاة – بخوف للإعلان الملائكى . وربما كان ذلك هو الاستجابة المناسبة . فإنه كلما أرسل الله رسولاً ببشارة لنا ، فهو يعنى عادة ترك كامل للحياة التى استقرينا عليها وراقت لنا .

الاهتداء : هو رحلة الانتقال من الارتباك إلى الرعب

لم تكن مريم تتوقع أن يزورها ملاك الرب ، إذ يقول لنا الكتاب المقدس بأنها قد اضطربت بسبب قدومه ، وأنها قالت في نفسها وتساءلت عن معنى هذه التحية « سلام لكِ أيتها المنعم عليها » (لو ١ : ٢٨) . ولما رأى زكريا الملاك جبرائيل اضطرب وخاف لأنه كان يعلم بأن هذا هو الجواب الآتي من الله الذي لأجله صلى طوال حياته . وأما مريم فلم تكن كاهناً، فقد كانت مجرد امرأة شابة كانت متيقنة بأنها لو حدث ومرت عليها لحظة من المجد والشهرة في حياتها ، لكانت عند زفافها المقبل . وكمعظم بنات اليهود في أيامها كانت مريم أيضاً . تعرف كيف يمكن أن تتحقق السعادة . فقد أدركت بأن السعادة أو الفرح يوجدان في اغتنام بعض اللحظات الجميلة التي تحدث خلال روتين الحياة العادية . لذلك تفكرت وتساءلت في نفسها عن الكلام المحيِّر الذي سمعته عن فضل الله ونعمته .

أن يتساءل المرء ويتفكر . أن يكون مضطرباً متحيراً . إن هذه لكلمات عظيمة . فهي تشير إلى بداية التدخل الخفي في حياة المرء . فهو شئ خارج عن المألوف ، إذ يقرع غريب على الباب ويسلم برقية تقتضي عملاً ملحاً وعاجلاً . ويدخل رئيس العمل إلى المكتب ويغلق الباب ويقول: « إنني أريد أن أتحدث إليكم .. وتستيقظ امرأة من النوم ذات يوم وهي تشعر بشئ من الغثيان والاستئمزاز . جميعهم يتساءلون ويتفكرون ، إنهم قد صاروا مضطربين . فقد خُدش السطح الخارجي الرقيق لما هو مألوف ومعتاد . إنهم يتوهمون بأن الأمر سوف يكلفهم الكثير .

إن النعمة التي ينعم بها الله على الإنسان عادة ما تكون أمراً مشوشاً ومحيراً . إلا أن هذا مجرد الكيفية التي يبدأ بها ، « لا تخافي يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله . وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع » (لوقا ١ : ٣٠ - ٣١). عندئذ تقول مريم : « كيف يكون هذا ؟ .. فهي لم تعد مضطربة متحيرة . وأما الآن فهي مرتعبة . فالارتعاب عبارة عن قوة محركة فعالة شائعة في عملية الاهتداء إلى الله . فما أن ندرك ونتحقق ما يفعله الله فإننا ننتقل من حالة التشوش إلى الارتعاب .

هل هذه هي الكيفية التي ينعم بها الله ؟ فإن لدى المرأة أمل عظيم واحد مقابل لحظة مجد وسعادة زائلة عند زفافها البسيط المتواضع للنجار. وتسمع بأنها قد اختيرت أماً للمسيا . ترى هل تبتهج وتفرح على الفور وتقول : « أجل ! إن النسوة الأخريات سوف يجتنبونني ويبتعدون

عنى ويروجّن عنى الإشاعات . وربما يرفض يوسف أن يتزوجنى . وبحسب ناموس موسى يجب أن أرجم بسبب هذا الأمر. ولكن إذا كان الله يريد منى أن أترك كل شئ كنت قد حلمت به لكى ما أعيد الأمل والرجاء إلى العالم ، سوف أعتبر نفسى مباركة » .

كلا . إن مريم لم تطلب من الله أن يمنحها نعمة . فقد سارت حياتها الطبيعية كفتاة عذراء ، فطبقا لمجرى الأمور الطبيعية كان من حقها أن تسعى لتحقيق أحلامها العادية . إلا أن ما يصلنا من شهرة عن طريق حقوقنا هو ما يتجاوزه الله . عندما يقرر أن ينعم علينا بفضله ونعمته . وبالنسبة للغالبية منا ، فهى بشارة مفرحة للغاية عندما لا نحصل على الشهرة والنجاح طبقاً لحقوقنا . إن الكثير من التماثيل والصور لمريم تظهرها بابتسامة هادئة وصافية ، إلا أنها ليست الصورة التى يرسمها لنا البشير لوقا فى إنجيله ، حتى الآن على الأقل . فقد أدركت تماماً عند تلك اللحظة بأنها لا تستطيع أن تتمالك نفسها . كيف يكون هذا ؟ فهناك حياة منتظمة ومرتبة تماماً ، لابد وأن تُهجر ، هناك وظيفة ستفقد ، وهناك تحرك إلى مكان آخر لابد وأن يتم . إنه انتقال آخر . فالشخص المحبب إلى النفس يزول ويضمحل سريعاً . إن تلك الأمور التى تعترضنا تنادى أن الحياة ليست هى ما كنا نرجوه ونطمع إليه . وهى ليست أيضاً الحياة التى قد اتخذناها ووقع اختيارنا عليها . فقد تدخل الله واعترض توقعاتنا وانتظاراتنا العادية ، بقدر ما كانت عزيزة علينا وبقدر ما كنا متعلقين بها ، لنفهم شيئاً ما ، إننا لا نستطيع أن نتصوره ، ولا نستطيع أيضاً أن نفهمه ، إن كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نقبله . لأنه إن كان الله قد رأى هذا الأمر ، إذن فهو مقدس وسوف يخلص نفوسنا .

الشركة المتروكة :

لقد كان رد الفعل على اعتراضات مريم رداً ثنائياً ، فهو أولاً قد أكد لها وطمأنها بأن الله هو الذى قد رأى هذا الأمر . فإن كنا مقتنعين بأن الله هو الذى اعترض حياتنا ، عندئذ نستطيع أن نحفظ صحة وسلامة عقلنا . لقد اكتشفت بأن الروح البشرى يمكنه أن يقاوم ويصمد أمام أية مأساة تقريباً ، إذا ما استطعنا أن نفهمها وندرك القصد منها أو على الأقل نؤمن بأن الله هو الضابط والمهيمن .

وهذا لا يعنى بأن كل ما يقتحم الحياة هو من الله . فعندما ينزل بالأصدقاء بلاء أو مأساة

مفاجئة ، لا تقل لهم بأنها مشيئة الله . فنحن لا نعلم ذلك ، غير أننا نعلم أن كل ما يعترض الحياة ، سواء كان محزناً أم مبهجاً لن يكون أعظم من إلهنا . إذ يستطيع أن يحمل رجاءً وأملاً في خسارة يتعذر تفسيرها وتعليلها . كما قال يوسف لإخوته الأكبر منه في نهاية حوادث قصتهم «أنتم قصدتم لي شراً أما الله فقصد به خيراً » (انظر خر ٥٠ : ٢٠) .

إن هذا الأمر يعتبر أخباراً سارة فقط إذا كنا نكف عن التعلق والاستسلام للوهم اليائس بأن الحياة هي فقط ما نحصل عليه من مال وثروة . فإذا اخترنا ، مثلما اختارت مريم ، بأن نرى الحياة على اعتبار أنها سر يتجلى للعيان ويلمع في الذهن تدريجياً ، لتحققنا عندئذ بأن الله وحده هو الذي يكتب الفصل الأخير .

ولكن حتى هذا الاقتناع لم يكن كافياً . فقد كان على مريم أيضاً أن تسمع من الملاك جبرائيل بأنها لم تكن الوحيدة التي أُقتحمت حياتها من قِبل الله . فقد كان عليها أن تسمع عن إليصابات . وكان عليها أن تدرك بأنها ليست وحيدة .

كانت إليصابات ومريم مختلفتين ، فقد كانت إليصابات زوجة كاهن مدينة كبيرة وعضو كنيسة رسمية . وأما مريم فقد كانت امرأة ريفية غير معروفة . وقد كانت إحداهما متقدمة جداً في أيامها ليكون لها أولاد ، وأما الأخرى فقد كانت امرأة شابة . ففي ذلك الوقت كان ذلك يعني بأن إليصابات لم تعد امرأة بما لها من سمات الأنوثة ، ولم تكن مريم بعد امرأة بل فتاة . ولكن عندما تلاقت هاتان المرأتان ووجدت كل منهما الأخرى ، تحول خوفهما وفزعهما إلى فرح وتسبيح . فلم تلجأ مريم في بادئ الأمر إلى يوسف ، بل لجأت إلى امرأة أخرى لم يكن لها شيء مشترك معها ، ماعدا أن كلتاهما قد قطعتا الأمل في توقعاتهما أو انتظاراتهما العادية .

وحتى إلى هذا اليوم فهذا هو ما يحدث في الكنيسة حتى تتماسك . إنها الجماعة التي تحيا حياة مشتركة والتي لا تعرف حياتها التعود والاستقرار ، حيث نأتي لنعترف بخطايانا ونبحث عن قصد الله . إن شعب كنيستنا يضم كثيراً من الشباب . البعض منهم آباء جدد كانت حياتهم قد أعترضتها متطلبات الأبناء ومستلزماتهم . وآخرون متزوجون حديثاً ويكافحون حتى يواجهوا متغيرات عديدة ويتغلبوا عليها . فهم ما يزالون يتحسسون موقع أقدامهم كزوج وزوجة . ولايزال آخرون عزاب شباب لا يصارعون بسبب الضغط والإجهادللعثور على عمل أو وظيفة جديدة في مدينة جديدة بعيدة عن الأسرة . جميعهم يأتون إلى الكنيسة ، وبمن يلتقون سوى بعدد كبير من

الأعضاء الكبار السن الذين تعترض حياتهم المشكلات على نحو متواصل بسبب الاستسلام القاسي للشيخوخة .

فإن أصغي الشباب باهتمام ، فسوف يخبرهم أعضاؤنا الكبار عن خسائرهم . فقد كان لابد من بيع البيت الكبير كما أن النجاح الملحوظ الذى يحرزه المرء فى عمله مدى الحياة انقضى . وقيم المجتمع قد تغيرت بسرعة فائقة . ويبدو أن الشباب فى هذه الأيام يريد أن يدير كل شئ حتى أن الكبار يجاهدون لبناء الشركة والبلد والكنيسة أيضاً وأولادهم يقيمون بعيداً جداً عنهم . وقد أصبحت الزيارات بالنسبة للأطباء مرعبة للغاية .

لذلك نحن نجتمع فى الكنيسة ، الشباب والكبار على السواء . البعض منا من هو مريم والبعض الآخر من هو إليصابات . غير أن إدراكنا المرعب المشترك ، هو أن الحياة هى ليست على ما كنا نظن ونفتكر ، فإن إدراكنا يربطنا معاً فى إقرار واعتراف موحد بأن الله يعمل فينا بصورة خفية . وفى ذلك الاعتراف والإقرار نتلقى الأمل والرجاء .

الفصل الثالث

مكان قد لا تفضل الذهاب إليه

إن الاهتداء إلى الإيمان وقبول الحياة الجديدة يحدث دائماً فى الطريق إلى الأماكن التى لا نود الذهاب إليها . إننا نستطيع الوصول إلى هناك فقط فى حالة ما إذا كنا قد قطعنا الأمل فى الرجوع إلى المكان الذى كنا نفضل أن نكون فيه بالفعل .

خطر محبة يسوع :

يستطيع القسوس الشباب أن يتعلموا الكثير من رعايا كنائسهم . فلم تكن كلية اللاهوت ، والمدرسة التى تخرجت منها أو أى من العديد من الكتب التى كنت قد قرأتها هى التى علمتنى الكثير عن كيف أتبع يسوع . بل شعب كنيستى هم الذين علمونى . فالبعض منهم قد علمنى دروساً مهمة من خلال أخطاء وقعوا فيها ، إذ يمكنهم أن يقدموا اختبارات مثيرة عن كيف أن عزم الله وتصميمه لأن يجدهم كان أقوى من قدرتهم لأن يضلوا . وقد تعلمت مع مرور السنين أن أصغى إلى رواية أخرى أكثر هدوءاً رواها أولئك الذين وقعوا فى مثل هذه الأخطاء الجسيمة، إلا أنهم مازالوا يجدون أنفسهم فى حاجة ماسة جداً إلى مخلص .

إن خبراتهم ليست أقل إثارة ، عادة ما يطلب منى التدخل عندما تحدث أزمة ما ، أو عندما تكون الحياة قد أخذت اتجاهاً لا يمكن التنبؤ به ، فهو مرفوض إلى حد ما . إذ تُفقد الوظيفة أو العمل . وقد يأتى تقرير المعمل الوارد من الطبيب بأخبار سيئة للغاية . ويلقى القبض على الابن بسبب إحرازه المخدرات . إننى أصغى لمؤمنين منكسرى القلب لا يقدرون أن يفهموا لماذا حدث هذا الأمر . إنهم يتكلمون عن محبتهم لله وعن التزام وتعهد مستمر مدى الحياة لحياة تكريسية تعبدية ، وعن الكنيسة والأسرة . إذ يريدون أن يقولوا « إننى لم أفعل أى شئ خاطئ » . وعلى الرغم من ذلك يشعرون وكأنهم ضالون ومشردون كأعظم الخطاة .

إنهم مجبرون لأن يبحثوا عن خطأ ما قد ارتكبوه ، لذلك يمكنهم أن يعالجوا هذا الخطأ ويستعيدوا آمالهم وأحلامهم . قد يكونون شاكرين لأجل مساعدتى الحكيمة ، وقد أشعر بالرضا

بسبب دعوة الله لى فى تقديم مساعدة مبنية على دراسة . على أننى فى المرأت التى كنت أتجول بين هذه التجارب ، كان علىّ أن أصرح بأن نصيحتى لم تكن لها فائدة على الإطلاق . فإن واجبى يتطلب منى أن أوجههم إلى مخلصهم الوحيد . ومن المتعذر علىَّ أن أفعل ذلك إذا ما سعيت لأن أكون المخلص . فإن ما أهدف إليه هو أن أساعدهم على أن يستعيدوا حياتهم المنتظمة على نحو جيد . إلا أن هذا قد يكون هو نفس الشئ الذى هم بحاجة شديدة للتخلص منه .

إننا إذا نظرنا بعناية إلى الوصف الكتابى للمخلص ، لاكتشفنا بأنه يميل إلى أن يأخذنا بعيداً عن الأعمال والمهن فى الحياة التى نريد أن نكون فيها . والواقع إن الرب يسوع قد وعد بذلك لواحد من تلاميذه الأولين .

فإنه بعد قيامة يسوع يذكر لنا إنجيل يوحنا حواراً آخر بين بطرس والرب يسوع (يو ٢١ : ١٥ - ١٩) . فهو شئ شبيه إلى حد ما بمغزى قصة إنجيل يوحنا . فقد بدأ الحديث بعد ما وجد يسوع بطرس وقد رجع مرة أخرى يحن إلى مراكب الصيد التى تحقق له الأمان . لقد كان وقتاً مشوشاً ومربكاً لأن يكون تلميذاً للرب . أولاً لأن يسوع قد مات ، ثم أُقيم بعدئذ من بين الأموات . ثم إنه كان قد ظهر للتلاميذ ثانيةً ، عندئذ مضى عنهم ثانية . فالأمر هو أننا مجربون دائماً بالعودة إلى شئ نتكل عليه عندما يصبح المخلص غير قابل للتنبؤ به .

لكن كلمات يسوع قد صارت فى غاية الوضوح فى صباح يوم ما على مائدة الإفطار حول نار المخيم . فقد واجه الرب يسوع بطرس بسؤال لا يمكن الإفلات منه قائلاً له : « أتحبنى ؟ أتحبنى ؟ أتحبنى ؟ ». فقد قضى بطرس ثلاث سنوات ساعياً لأن يخدم يسوع ، وقد كان له الكثير من الاختبارات العظيمة خلال هذه السنوات ، وقد تعلم دروساً عديدة . وأما تلمذته ليسوع فقد أُختصرت بشكل واضح إلى سؤال واحد بسيط ، « أتحبنى ؟ » . فلم يسأل يسوع بطرس « ما الذى قد تعلمته ؟ وما الذى أنجزته ؟ كم نفساً هديتها إلى الإيمان وربحتها إلى المسيح ؟ » . وفى النهاية يكون السؤال الأخير ، أتحب يسوع ؟

يمكن أن نقدم إجابات عديدة على أسئلة يسوع المتواصلة والتى يصرّ على توجيهها إلينا . نستطيع أن نشير إلى مسئولياتنا تجاه الآخرين ، كم من الأشياء تتطلب انتباهنا ، أو نُروَّع ونفزع بسبب الأسئلة التى توجه إلينا مثل « أتحبنى ؟ » ألا نستطيع أن نرعى الخراف ؟ كلا . فعندما تصبح الرعية كريهة ومزعجة ، وهذا وارد ، سوف نتوقف عن الرعاية إذا كنا نقوم بها لأجل أى سبب آخر غير محبتنا ليسوع .

ويخبرنا إنجيل يوحنا بأن بطرس قد حزن لأن يسوع وجه إليه السؤال ثلاث مرات . ربما كان ذلك لأنه تذكر آخر مرة كان قد سأله شخص ما ثلاثة أسئلة وهو يستدفئ حول النار . وربما كان حزنه لأنه قد سمع أخيراً السؤال ، وقد كان سؤالاً عويصاً يصعب أن يجيب عليه . فكل ما استطاع قوله : « يارب أنت تعلم كل شئ . أنت تعرف أنى أحبك » . والواقع أن الرب يعلم كل شئ ، ويعلم أيضاً كم نحن مترددون لأن نترك كل شئ ، أو أن نُترك ، بسبب محبته . إلا أن هذا هو ما يريده بوضوح من تلاميذه . وواضح أن السؤال « أتحبنى ؟ » لن يكف أبداً . فسوف يواصل يسوع توجيه السؤال باستمرار إلى أن ندرك ونتحقق ما يعنيه السؤال بأن نحبه .

وبعد ما يثار السؤال ويتم الإجابة عليه ، عندئذ يعطى أمر المهمة بالإرسالية « ارع غنمى ». وهذه الإرسالية لن تضيع أيضاً . لأن يسوع يواصل دوماً دعوة بطرس لها .

لقد اكتشفت بأن كثيراً من الناس يعتقدون بأنهم مدعوون إلى مهمة معينة فى الحياة ، غير أنهم ليسوا على يقين من ذلك . وأحياناً يصيبهم الخوف لأنهم يعتقدون أنهم إذا لم يستجيبوا فى الحال لهذه الدعوة فإنهم سوف يفقدون فرصتهم لأن يكونوا صالحين للملكوت .

غير أننى لا أرى ذلك . فإن كانت الدعوة هى حقاً من الله فلن تفلت وتذهب بعيداً . فكما كان يسوع غير متساهل مع بطرس موجهاً إليه الأسئلة بلا هوادة ، هكذا سوف يذكرنا باستمرار بمهمتنا . فإنه بقدر ما نعلن بأننا نحبه ، بقدر ما سوف يذكرنا ويرجع بنا إلى دعوتنا ، وهى أن نرعى الرعية . إننا نطعم الناس لأنهم جياع . إنهم جياع للمعنى والقصد ، جياع للتشجيع والفهم . وقبل كل ذلك هم جياع إلى الله . وبرغم كل ذلك هم رعيته .

والأمر يبدو فى بادئ الأمر وكأنه إرسالية مباشرة تماماً ، وهى إطعام الشعب الجائع والمتشوق إلى الله . لكن هناك ما هو أكثر من ذلك ، فهناك أيضاً نبوّة . « لما كنت أكثر حداثة كنت تمنطق ذاتك وتمشى حيث تشاء . ولكن متى شخت فإنك تمد يدك وآخر يمنطقك ويحملك حيث لا تشاء » (يو ٢١ : ١٨) .

وكإنسان ناضج كامل النمو وتابع ليسوع يعنى أن يُقتاد أو يُحمل إلى الأماكن الضعيفة التى اقتيد إليها . وبحسب ما جاء فى أقوال « هنرى نيووين Henri Nauwen » فهى تعنى الطريق المنحدر وسط عالم متحرك إلى أعلى . إننى لا أقول ذلك بحزن وكآبة ، بل أقوله مبتهجاً

وفرحاً ، لأن طريق الله المنحدر إلى أسفل هو الطريق الذى يعلن فيه ذاته لنا كإله معنا .

لقد سمعت «نيووين» يقول هذه الكلمات فى حفل تخرجى من كلية اللاهوت . إذ كانت عظته تدور حول ذلك الحديث الذى دار بين يسوع وبطرس . ومن المؤكد بأنها كانت أعظم عظة يمكن تذكرها مما سمعته من عظات طوال عمرى . إذ كان زملاءى وأنا قد أكملنا ثلاث سنوات قاسية فى الإعداد لنكون خداماً للإنجيل . فقد قبل معظمنا دعواتنا الكنسية الأولى ، وكنا قد تأهلنا لأن نتجرأ ونغامر فى الحياة التى كنا قد حلمنا بها طوال سنوات مضت . وقد سرنا فى موكب داخل كنيسة الكاتدرائية العظمى فى جامعة برنستون ، مرتدين أروابنا الجديدة . فقد كنا نستعد لحياة عظيمة كقسوس . إذ تم تدريبنا ودعوتنا وكنا على استعداد لأن نتقدم ونضرم ملكوت الله ، أو هكذا كنا نظن .

إننى لا أزال أرى « نيووين » وهو يتكئ على المنبر موجهاً إلينا السؤال قائلاً : « أتحب يسوع ؟ أتحب يسوع ؟، أتحب يسوع ؟ » ثم يتوقف عن الكلام لفترة ثم يقول : نعم . نعم . نعم . من المؤكد أننى أحب يسوع ، وأعتقد أن هذا هو السبب الذى جاء بى إلى هنا . ثم تلى العهد قائلاً : إن كانت إجابتك « نعم » فهذا سوف يعنى اجتماعات واجتماعات واجتماعات لأن العالم يحب الاجتماعات . إنه يعنى رعية الكنيسة الذين لا يريدون منك إلا شيئاً واحداً ، وهو ألا تهز سفينة حياتهم .. إنه يعنى أن تكون خاضعاً لاختبارات وتجارب ، فالأمر يعنى كل ذلك ، لكنه يعنى أيضاً قلوباً متلهفة لأن تسمع كلمة تشجيع وتعزية ، وأيادٍ مرتعشة لأن تُلمس وأرواح منسحقة تنتظر الشفاء .. إن حياتك لن تكون حياة مطمئنة سهلة ، وينبغى ألا تكون مطمئنة سهلة . بل ويلزم أن تكون حياة صعبة شاقة . ولابد وأن تكون راديكالية تميل إلى إحداث تغييرات على كل ما يقودنا عليه ، ولابد وأن تكون حياة قلقة لا تهدأ ، ولابد وأن تحملك وتقتادك إلى أماكن لا تفضل الذهاب إليها .

لقد سمعت تلك العظة منذ زمن طويل، وقد أصبح الروب بالياً وممزقاً طوال السنين الطويلة فى خدمة رعية يسوع . والعبادة التى تعود إلى ذاكرتى وأتذكرها إلى أبعد حد هى وعد نيووين بأننى قد أكون خاضعاً لاختبارات وتجارب لا حد لها ، وإلى سلسلة أحداث مترابطة التى تقع لأناس بصورة منتظمة وهم سائرون فى طريقهم ، غير أنهم ليسوا متأكدين دائماً إلى أين هم ذاهبون .

إن معظم خدام الإنجيل يغذُّون في داخلهم ما يتصورونه عن أنفسهم ، فهم يتصورون أنفسهم موسى ويسعون محاولين أن يقودوا شعب الله إلى أرض الموعد . فنحن نميل إلى الاعتقاد بأنه بوسعنا أن نوصلهم إلى مكان ما . غير أننى مندهش بسبب الوقت الذى قضيناه متنقلين من مكان إلى مكان فى الصحراء دون أن نصل للمكان ، ويمكن أن أقول نفس الشئ عن مشكلة واجهتنى مع الشبان الذين يأكلون البيتزا فى قاعة الاستقبال فى الكنيسة ، وهى مشكلة واجهتنى أكثر من مائتى مرة على الأقل فى ثلاث كنائس مختلفة منذ أن رُسمت قسيساً ، إذ قد قضيت قدراً كبيراً من وقتى ، لا لأمسك الأيادى المرتعشة وأحل المشكلة حلاً جذرياً ، بل اكتفيت بأن أدفع تكلفة ما يأكلونه . إننى مقتنع بأن الكنيسة صارت شيئاً آخر بسبب حضورى ، غير أننى لست مقتنعاً أنها أقرب إلى أرض الموعد . وإننى على استعداد أن أغامر وأكون مخففاً من أجل يسوع ، لكى أستطيع أن أعمل بصورة مؤكدة عملاً ناجحاً . غير أن الرحلة الوحيدة التى لم أرغب أن أكملها كانت العناية بشعبى أثناء الطواف اليومى لشعب الرب . على أن ذلك هو المكان الذى إليه دُعيت . وأنا أيضاً مقتنع تماماً بأن هذه هى الطريقة الوحيدة لأن تكون محبة يسوع مفهومة لشعب كنيستى .

لا أحد يريد أن يسير على الطريق المنحدر لأسفل ، فإن كنت تطمح إليه ، فأنت لا تفهمه . وهو يكلف الكثير . حيث يأخذك إلى الطريق المعاكس الذى تريد أن تسافر إليه ، أى الطريق المتجه إلى الأعلى . ونحن نرى أنه يجب أن نسلك الطريق التى تقيس نجاحنا ، وهى الزواج والأطفال والعمل والبيت والمهنة الأفضل والبيت الأكبر . وينبغى أن نأخذ طريقنا . إذاً لماذا يسأل يسوع عن ما إذا كنا نحبه ، وعندما نصل إلى الإجابة الصحيحة على سؤاله ، يعدنا بأننا سوف نُحمل إلى مكان لا نريد أن نكون فيه ؟

ما هو هذا المكان ؟ لماذا يجب علينا أن نترك الحياة التى نعرفها ؟ هل لمجرد أننا نحب يسوع ؟ ربما تتضمن الإجابة القليل مما يجب أن نعمله بخصوص الطريق الذى نُحمل إليه أو الطريق الذى يجب أن نهجره ، وربما تتضمن الإجابة الكثير مما يجب أن نعمله بخصوص ما يحدث لنا على طول الطريق .

خطورة محبة يسوع - قصة أخرى :

كانت نورما حفيدة لاثنين من المرسلين وابنة لأبوين مكرسين للخدمة . وقد كانت نورما مهتمة

للغاية بالكنيسة المحلية التى كانت تواظب على حضور اجتماعاتها إلى أن التحقت بكلية اللاهوت حيث التقت برجل مؤمن وتزوجا . فقد كانت تتبع يسوع فترة طويلة من الزمن ، واشتركت فى كل نشاط يمكن أن تشترك فيه . ومن الواضح بأنها توقعت أن هناك خطوة أخيرة كان على يسوع أن يقدمها لها وهى أن يعطيها عائلة مسيحية ، إلا أن ذلك حدث يوم صار المخلص سبباً للتشويش والارتباك .

فقد اكتشفت هى وزوجها بأنه لا يمكن أن ينجبا أطفالاً. وبعد بذل الكثير من الصلوات والمساعى ، بدآ فى تبنى أطفال . وقد سارت حالات التبنى الثلاث الأولى سيراً حسناً . وقد كان لتربية الأطفال وتنشئتهم فتراتها ومراحلها التى تتسم بالتحدى ، وأما نورما فقد اكتشفت أنها أم صالحة . ولقد كان ذلك مثل عودة بطرس لقارب الصيد عندما تعذر إيجاد يسوع . إذ تمنى تلاميذ يسوع أن تكون لهم مهنة أخرى يلجأون إليها عندما أصبح من الصعب أن يتبعوه .

وقد انتقلت نورما وزوجها ليبدآ العمل فى مزرعة كان يملكها زوجها ، وفى كل صباح كان زوجها يقوم برحلة إلى المدينة لينجز مطالب المزرعة الضخم ، وكانت نورما والأطفال الصغار لوحدهم فى المزرعة فى أثناء النهار ومعظم الليل .

وخلال تلك الفترة كان يبدو الأمر بالنسبة لنورما بأن الرب المقام من بين الأموات كان مشغولا عنها فى الظهور لإناس آخرين ، فلم تحدث لها معجزة لتلد أطفالاً . وخيبة الأمل هذه ارتبطت برد فعل قوى تجاه حياتها المحافظة منذ طفولتها ، مما أدى إلى أن تبتعد بعيداً عن الكنيسة . إذ كان أقصى حلم يمكن الوصول إليه هو أن تتغاضى عن مطالب يسوع وأن تعمل على تربية الصغار فى المزرعة .

وذات يوم استدعاها الأخصائى الاجتماعى ليسألها ما إذا كانت ترغب فى تبنّى الطفلة « ديبى » وهى طفلة كبيرة نشأت فى بيئة اجتماعية مضطربة . ولقد كانت نورما متلهفة لهذا الأمر . فهذا ما كانت تجيده ، وقد كانت متأكدة بأنها تستطيع أن تغير حياة هذه الطفلة بأن تغمرها بالحب .

كانت نورما مخطئة ، فلم تكن مشكلات ديبى واضطراباتها من النوع الذى تعالجه الأبوة الصالحة والجو النقى . فقد تدمرت سنوات حياتها الأولى بسبب سوء المعاملة والإيذاء الجسدى

الذي لحقها ، ثم امتدت آثار الجروح النفسية والعاطفية وترسبت فى أعماق نفسها. وبعد جهود مضنية وعمل كل ما يمكن القيام به ، أدركت نورما بأنه لم يكن لديها الشئ المهم الذى يسد حاجة ديبى . وقد اعترفت نورما بشجاعة بأن المشكلة لم تكن مجرد أنها عجزت كأم فى تنشئة الطفلة ورعايتها ، لكن المشكلة الحقيقية كانت بأنها لم تكن تعرف كيف تحب هذه الابنة الغضوبة . فالرعاية الوالدية هى الشئ الوحيد الذى كانت بارعة فيه ، وهو أيضاً نفس الشئ الذى لم تكن محتاجة فيه إلى مخلص .

كانت نورما تصلى طالبة نعمة الله . وقد استجيبت الطلبة بالفعل . فقد كانت نعمة الله تحملها إلى مكان ربما لم ترد أن تذهب إليه فى الواقع .

وقد واصلت نورما وزوجها ولمدة تسع سنوات السير فى الطريق المنحدر المرصوف بالإحباط وخيبة الأمل إلى أن غادرت ديبى البيت . وفى يوم تخرجها انطلقت ديبى مع صديقاتها بسرعة إلى شيكاغو ، منصرفة خلسة من الحفلة التى أقامتها لها نورما بمناسبة التخرج ، وكانت قد دعت نورما الأقارب البعيدين عن المدينة .

وقد تبنَّت نورما ديبى وآوتها فى بيتها لأنها رأت بأن الطفلة الفقيرة كانت بحاجة إلى من ينقذها . ومن المؤكد بأنها كانت فرصة لتختبر قدرتها على أن تحب وتثبت قيمتها أمام الله، وتثبت بأنها أصبحت أماً لأنها كانت كفؤاً لذلك .

كانت ديبى عطية من الله ، إلا أنه لم يعطها لها لكى تستطيع نورما أن تثبت أى شئ من خلالها. فقد اختبرت أنه بهذه التجربة قد اكتشفت أن المشكلة كانت فيها هى شخصياً ، فهى التى كانت الشخص المعوز والفقير الوحيد ، وليس الأولاد الذين أنقذتهم وحررتهم . وكانت تلك هى فرصتها للاهتداء . وقد أدركت نورما الآن بأنها لا يمكن أن تكون هى المخلِّص . كما أنها أدركت الآن بأن هى التى كانت المحتاجة إلى الخلاص .

وبعد أن كانت نورما على استعداد لأن تقبل محبة الله غير المشروطة لأجلها ، أصبح من الأيسر أن تقدم النعمة والرحمة لجميع أولادها دون ضرورة إلى أن تنقذهم وتحررهم . فإذا كان المسيحيون يؤمنون بحق بأنهم بحاجة إلى مخلِّص ، فلا يجب عليهم أن يقوموا بدور المخلِّص للآخرين .

وقد حدث ذلك بالفعل منذ فترة فها قد تخلت نورما وزوجها الآن عن المزرعة حيث كانت قد تخلت عن معظم مثالياتها التى كانت تصبو إليها. وقد رجعا إلى الكنيسة . والواقع ، أنهما قد توليا قيادة البرامج التبشيرية لكنيستهما المحلية .

ويقيم أحد هذه البرامج علاقات صداقة قوية مع الشباب الذين يتعرضون لبعض المخاطر حسب تقارير مدارسهم ، فإذا تطوع أعضاء الكنيسة الآخرون ليعاونوا فى هذا البرنامج تقضى نورما قدراً كبيراً من الوقت لتحذرهم من محاولة أن يصلحوا من هؤلاء الصغار المضطربين، وتطلب منهم أن يتوقعوا أن يكونوا مرفوضين ، وكما تنذرهم بأنهم لن يتم تقدير جهودهم التى يبذلونها فى تغيير من يخدمونهم ، فذلك التغيير ليس هو النقطة الأساسية ، لأن منح الحب هو الهدف ونحن نستطيع فقط أن نفعل ذلك إذا كنا قد وقعنا فى حب نعمة مخلصنا .

ربما تكون نورما قد فضّلت دروس النعمة ، ولكن ليست هناك دروس سهلة ومريحة عن النعمة . فليس هناك إلا اهتداء واحد بعد الآخر ، بينما نحن نجيب على سؤال يسوع الذى يوجهه إلينا قائلاً « أتحبنى ؟ » .

وأنا مازلت متأثراً بأن نورما وزوجها يحتفظان بالعلاقات الودية بجميع أبنائهما بما فيهم ديبى . فإنه بمعونة والديها شقت ديبى طريقها وتقدمت فى دراستها الجامعية ، وقد تزوجت وهى لديها ولدين الآن من لحمها ودمها . ولاتزال حياتها بعيدة عن الكمال ، إلا أنها تصرح قائلة بأن ما تعلمه عن المحبة قد اكتسبته من والديها .

وبعد كل هذه السنين ، لاتزال نورما تتعلم أصعب الدروس عن المحبة وكيف تقبلها . فهى لا تزال على الطريق ، إذ أن هناك اهتداء آخر آت فى الطريق .

بين بين :

إنه لأمر مدهش إلى أى مدى تحدث مواجهتنا مع الله ونحن فى طريق الحياة . فقد كان على إبراهيم وسارة أن يتركا بيتهما فى أور الكلودانيين ليرتحلا إلى أرض الموعد . فإن كل نموهما الروحى ، وكل خطوات اهتدائهما إلى الله قد حدث على الطريق . ففى نهاية حياته ، كانت الأرض الوحيدة التى ملكها إبراهيم هى قطعة أرض تصلح لقبر كان قد اشتراه لسارة . إلا أن نهاية القصة ليس هو الجزء المهم ، ولكن الذى كان له أهمية هو رحلتهما الطويلة مع الله .

وعندما قاد موسى الشعب العبرى وأعتقهم من أرض العبودية إلى نفس أرض الموعد ، حدث نفس الأمر الذى يتميز بالفعالية والتغير المستمر . فقد كان هناك طريق متجهاً مباشرة من مصر إلى فلسطين يدعى طريق أرض الفلسطينيين (خر ١٣ : ١٧) . لكن الله لم يسر بالشعب فى ذلك الطريق ، لأنه كان يعلم بأنه لو واجهتهم حرب لفروا راجعين إلى مصر . لذلك وجههم إلى الجنوب نحو جزيرة سيناء ، حيث كان يجب عليهم أن يتعلموا كيف يؤمنون بالرب ويتكلون عليه . وقد كان ذلك هو الطريق الوحيد الذى استطاع العبيد أن يهتدوا فيه إلى مملكة الكهنة .

وبعد ما ارتحلوا ما يقرب من عشرين ميلاً جنوب اليم ، تذمر الشعب لأن الرحلة كانت شاقة للغاية . فقد تركوا الماء والطعام وتدابير الأمان والطمأنينة التى كانت لديهم فى مصر . فليس هناك شئ آمن مثل العبودية . فالحرية تفزعنا وتروعنا . فكل ما نعرفه عندما نكون أحراراً هو أننا فى الطريق . فلسنا نعلم ما إذا كنا سوف نصل إلى هناك . ونحن بلا شك لاندرى كيف سنصل إلى هناك .

إن هذا المجاز اللغوى للرحلة معين لنا على فهم الزواج ، فإن معظم القسوس الذين أعرفهم قد يفضلون القيام بعمل النصح والمشورة مع الزوجين الخاص بفترة ما قبل الزواج بعد حوالى ستة أشهر بعد حفل الزفاف ، عندما يكون المتزوجون حديثاً على استعداد للإصغاء للنصح والمشورة . فهم عندئذ على بعد عشرين ميلاً جنوباً بالنسبة للمكان الذى ظنوا أنهم سيكونون فيه . فقد نضبت الموارد ونفدت المؤن . وهم ليسوا على يقين بأنهم متجهون فى الاتجاه الصحيح . ويبدأون فى التحقق ماذا كلفهم بحق حلم زواجهم . وقد يبدأون أيضاً فى التحسر على ما فقدوه فى مصر ويحنون إليها . ففى الهجر والترك فقط يدركون بأن الزواج هو بمثابة رحلة طويلة .

وعادة ما يشعر هؤلاء المتزوجون بالرعب تماماً حين يبدأون أحاديث جادة حول ما يعنيه أن المخلص له دور فى العلاقة الزوجية . إن ما يريده معظمهم هو نصيحة صغيرة أو كتاباً يهتم بمشكلاتهم. وبعد ستة أشهر من زواجهم يرغبون فى أن يكونوا قد وصلوا إلى أرض الموعد .لكن مازال أمامهم رحلة طويلة جداً للسفر والترحال ، وسر عظيم للغاية ليكتشفوه وهم منقادون إلى أماكن لم يتخيلوها أبداً . فإن كل ما أستطيع القيام به هو أن آريهم كيف يقبلوا من الله المن الذى يقدمه لهم يومياً . إنه ليس كثيراً ووافراً . ومن المؤكد أنه ليس ما كانوا يريدون ، ولكن الطريقة الوحيدة التى بها يصمدون فى الرحلة معاً هو تعلمهم كيف يقبلون نعمة الله اليومية لأجل

زواجهم واتحادهم .

وهذا الأمر يصدق على كل شعب الرب . فإن التحدى بالنسبة للمؤمنين هو أن يتعلموا كيف يتبعون ، ومحور هذه المهمة هو الكف عن توقع وانتظار معرفة إلى أين هم ذاهبون .

لقد وجه يسوع أكثر تحذيراته حدةً حول تكلفة التلمذة بعد ما كان قد ثبَّت وجهه لينطلق إلى أورشليم . وأن قدراً كبيراً مما جاء فى الأناجيل يشرح ما قد حدث لتلاميذه وهم سائرون فى طريق ذلك الصليب . والواقع ، أنه قد حدث جزء كبير من خدمة يسوع فى الطريق . إذ يخبرنا لوقا البشير قائلاً : « وفيما هم سائرون فى الطريق قال له واحد ، ياسيد اتبعك أينما تمضى » (لو ٩ : ٥٧) . عندئذ حذر يسوع تلاميذه بأن ترك كل شئ فى انتظارهم أمر متوقع . « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه ».

إن واحداً من أكثر الأمور إحباطاً فيما يتصل بيسوع هو أنه لا يريد أن يهدأ ويحيا حياة الاستقرار . فهو ينقلنا باستمرار ويحملنا بعيداً عن الأماكن التى نفضل البقاء فيها ، مثل الجليل ، وينقلنا لنكون أقرب إلى أورشليم إلى حيث لا نريد أن نذهب .

إننا نرتحل مثل أناس بين بين . إذ نرتحل بين طمأنينة حياة زائفة هجرناها ، إلى المجهول الذى ينتظرنا فى أورشليم ، وفى الطريق يبدأ الانجيل يغير حياتنا . وقد تحدث مواجهة مع يسوع حيث يقابلنا على طريق مؤلم مثل الطلاق أو الانفصال أوالمرض أو جنازة . أو قد تبدأ المواجهة واللقاء فى الطريق إلى حفل زفاف أو ميلاد أو إلى وظيفة عظيمة جديدة . وكنا نظن بأنها قد كانت الطريق إلى الفشل أو النجاح . ولكننا نكتشف فى نهاية المطاف بأنها الطريق المتجه إلى أورشليم ، حيث يصبح خلاصنا واضحاً .

أحياناً نصل إلى وضع فى الحياة يبدو ملائماً للغاية ، فصحتنا وأعمالنا ، وعائلتنا وأحباؤنا على ما يرام ، فليس هناك إحساس بالترك . وإنه لأمر مغرٍ أن نهتف قائلين ، ليثبت كل شئ فى مكانه ! لكن كان من الأفضل أن نلتقط صورة فالوضع لن يثبت كثيراً ، لأن الفرص عظيمة لأن يطلب منا يسوع أن نختبر مزيداً من الترك فى المستقبل .

لهذا السبب فإن يسوع سوف لا يستقر بسبب أحلامنا المخفّفة التى تقبل الحياة على الوضع التى هى عليه . إنه يواصل دفعنا نحو وعد ليس بوسعنا أن نراه الآن . ما هو الشئ المميز جداً

بخصوص أورشليم ؟ فى معظم الوقت لا يعلم التلاميذ شيئاً ، إلا أن خلاصهم سوف يصبح واضحاً هناك . وفى نفس الوقت يبقيهم الوعد لأن يكونوا على الطريق . حيث تتغير حياتهم .

وبتعبير « مارجريت فارلى » تقول : « إن المعنى الجوهرى والأساسى للعهد الذى أقطعه اليوم يمكن أن يكون واضحاً فقط فى نهاية حياتى ». ففى قطع التعهدات والالتزامات نحن نلقى أنفسنا فى نهر يجرى ويتدفق فى اتجاه معين . غير أن هذا الاتجاه قد يتغير ، فقد تصبح مياه النهر هائجة مضطربة . ونحن لن نعرف حتى النهاية ما الذى يعنيه الدخول فى العاصفة فى هذه الأيام .

وفى الطريق سوف يدعونا الرب يسوع أن نتخلص من أحمالنا الثقيلة التى نحملها ، إلا أننا نعزّها ونتعلق بها تعلقاً شديداً . ولكن لا تنظر إلى الوراء . فالخسارة ببساطة هى خطوة أخرى صوب أورشليم . وتأتى أورشليم فى الأناجيل فى نهاية القصة ، وهذا يعنى بأن تلاميذ المسيح يقضون قدراً آخر من الوقت ليدركوا من أى مكان يحملهم يسوع أكثر من معرفتهم لأى مكان يقتادهم إليه . وهناك أعذار ومبررات مقنعة للتردد فى الذهاب مع يسوع . فقد كان على أحدهم أن يدفن أباه . وأراد آخرٌ أن يودع أهله فحسب . غير أن يسوع واضح تماماً ، فالطريق إلى الخلاص يمتد إلى الأمام .

ففى كل يوم فى رحلة الذهاب مع يسوع ، يجب على تلميذ المسيح أن يختار، وهو مصمم على مواصلة السير مع يسوع . فهل هذا هو الوقت الذى ننظر فيه إلى الوراء ، أم لابد لنا أن نواصل السير مع يسوع ؟ إن ردنا على هذا السؤال هو : «كيف ينمو الإيمان وينضج ؟ ». فقد أدرك الذين قطعوا شوطاً فى النمو الروحى هذا الأمر منذ عهد بعيد .

ففى أديرة الرهبان البنديكيت - نسبة إلى القديس بنديكت - من أوربا فى القرون الوسطى كان جميع الرهبان يلبسون ثياباً بسيطة لا تلفت النظر كرمز لمسيرتهم الروحية . فقد تنازل المبتدئ فى الرهبنة حديثاً عن ثيابه القديمة وتخلى عنها ليستبدلها برداء الرهبنة الجديدة . غير أن الثياب القديمة لم تلق الإهمال ، فقد بقيت فى حجرة صغيرة فى الدير على اعتبارأنها رسالة تذكير للمبتدئ فى الرهبنة ، فعليه أن يجدد رغبته دائماً فى تركها والتخلى عنها ، هذا الاختيار فرض عليهم أن يختاروا كل يوم المهمة التى دُعوا إليها .

فلأجل السبب عينه قال مارتن لوثر بأنه قد كان عليه أن يولد ثانيةً كل يوم . فقد كان عليه كل يوم أن يختاراعتناقه عهوده المتصلة بالتجديد وغسل الميلاد الثانى ويتقبلها بسرور . وقد كان عليه فى كل يوم أن يجدد عهده والتزامه الذى قطعه على نفسه ليتبع يسوع إلى أماكن قد لا يفضل هو الذهاب إليها .

متحرر من كل التزام

لقد تعلمت الكنيسة منذ عهد بعيد فن التعهد والالتزام البطولى لتسليم النفس وتكريسها من أناس مثل القديس بنديكت ومارتن لوثر . وأنه لأمر مغر أن نتمنى لو كان لنا الفرصة لكى نقترب من هذه الشخصيات البطولية البارزة حتى ما نتعلم الكثير منهم . لكن الكنيسة فى هذه الأيام مليئة بأمثلة الإيمان والتعهد والالتزام . فإن هؤلاء القديسين المعاصرين حولنا موجودون هنا وهناك ، إلا أننا لا نستطيع رؤيتهم لكونهم مقيدين ومستغرقين فى حياة اعتيادية ويحبون حياة ثابتة مستقرة لا تتغير .

كانت كاثرين الابنة الرابعة من خمسة أولاد . وأما اختها الصغرى أجنيز ، وهى الابنة الخامسة ، فقد كانت تعانى من خلل عقلى منذ ولادتها ، وكانت نصيحة الأطباء فى ذلك الوقت أنها لابد أن تلتحق بإحدى المؤسسات الخاصة بذوى العاهات لكى ترعى الصغيرة خلال السنوات القليلة المتوقع أن تعيشها . لكن والدا كاثرين صمما على أن يربيا أجنيز فى البيت مع بقية أولادهما .

وبطول أناة وصبر مذهل ، ومحبة لا حدود لها ، كانت أم كاثرين تعلم أجنيز كيف تؤدى عملاً جيداً فى البيت . فقد تعلمت أن تطبخ وأن تشترى حاجات ولوازم البيت من البقالين ، وتذهب إلى الكنيسة وتركب الأوتوبيس وحدها دون مساعدة أحد . وقد كانت كاثرين وأقاربها يعاملون أجنيز على أنها عضو أساسى فى العائلة، والواقع أنها قد كانت كذلك ، فقد كان يبدو أن كل الأمور تسير سيراً حسناً .

وقد ثابرت كاثرين واجتهدت لتتخرج من المدرسة الثانوية ، وتلتحق بجامعة مرموقة وتباشر مهنة تتطلب براعة فائقة فى دار للنشر بنيويورك ، أما أجينز فقد حصلت على تعليم متوسط بالكاد ثم بقيت فى البيت مع أبويها تعاون فى الأعمال المنزلية الخفيفة .

وفجأة توفى والدهما تاركاً أجنيز وأمها . وبعد ثلاث سنوات توفيت الأم . لا أحد من الأولاد كان بحاجة لأن يبحث فيما قد يحدث بعد ذلك . وقد كانت كاثرين هى الوحيدة من بين الأخوات الأربع التى لم تكن متزوجة . لذلك تولت أمر العناية بأجنيز فى بيت والديها . وهو المكان الذى لم تتوقع فى أى وقت أن تذهب إليه . وقد وقع ذلك الحدث ليقطع الطريق على الأحلام والآمال الأخرى .

قضت كاثرين خمس وثلاثين سنة فى الانتقال اليومى المتواصل من بيت عائلتها فى الضواحى إلى مكان عملها في المدينة . ولقد تحدد لها جدول عمل لأمسيات مناسبة فى المدينة ليتيح لها المرور على البيت في موعد نوم أجنيز . وقد كان عليها أن ترفض أية ترقيات فى الوظيفة تستلزم السفر . ونادراً ما كان التعارف بالشباب يحرز تقدماً عندما تجيب عن الأسئلة المتعلقة بما إذا كانت تعيش وحيدة .

وقد حان الوقت المناسب التى كانت فيه أجنيز بحاجة إلى مراقبة وإشراف متواصل . وها هى كاثرين تعمل فى البيت ، فهى فى النهار تساعد للتغلب على مشكلات ومصاعب حالة أختها المتدهورة . وبعض الليالى يغمرها الإحساس بالوحشة والوحدة . فلا أحد يدرى كم من التضحيات بذلت وقدمت من أجل أجنيز . ولكن من خلال محبة وتعهد كاثرين ، فإن أجنيز التى هى الآن فى عمر السنتين من الناحية العقلية ، قد احتفلت الآن بعيد ميلادها السعيد السادس والخمسين .

إن كاثرين هى عمة زوجتى . وكل شخص أعرفه يناديها العمة كاثرين ، حتى أولئك الذين يرتبطون بالعائلة بكرم الضيافة أكثر من علاقة الدم . فقد أصبحت بمثابة أم بديلة ، والأخت المخلصة الوفية بالعهد ، والتى كانت على استعداد دائماً لتقديم النصح والمشورة للكثيرين لجيلين من الناس . إنها التجسيد والعنوان للتعهد والالتزام المسيحى ، ورمز لنعمة الله لعائلتنا .

ومنذ وقت ليس ببعيد ، تدهورت صحة أجنيز بصورة مثيرة . فقد اتخذ علاجها والعناية بها أبعاداً صعبة . فلا يستطيع أحد أن يتكهن كم سيطول العمر بها .

ويتهامس أفراد العائلة ويتساءلون ما إذا كان موت أجنيز هو الأفضل بالنسبة للعمة كاثرين ، التى كرست أفضل سنى حياتها لأجل أجنيز . إلا أن كاثرين لم تكن تفكر أبداً من هذا المنظور . فالحياة مع أجنيز لم تكن بالأمر الهين ، وكل وقت كانت أجنيز تستمتع فيه بيوم طيب ،

تعتبره كاثرين انتصاراً لها . وهى تأمل أن تعيش أجنيز مزيداً من الأيام ، حلوها أو مرها .

ليست هذه هى الحياة التى كانت تحلم بها كاثارين يوم التحقت بالكلية التى رغبت الدراسة فيها . فقد حملتها هذه الحياة إلى مكان لم تكن قد خططت إلى الذهاب إليه . غير أنه المسيح يسوع هو الذى قادها إلى هناك . وقد رضيت بهذه الحياة واقتنعت بها . وهذا هو ما تعنيه الحياة لأن تكون مسيحياً .

دعوة للذهاب إلى العدو

إن من أعظم الأمثلة التوضيحية للقيام برحلة إلى مكان لا نرغب فى الذهاب إليه هو دعوة يونان للذهاب إلى نينوى . فقد كانت دعوة لم يكن راغباً في قبولها. كانت نينوى عاصمة الأشوريين ، أعداء شعب الرب . وقد كانت مدينة قوية إلا أنها أخذت فى التدهور ، وكانت بحاجة إلى الرجوع إلى نعمة الله . إن مدينة نينوى تقدم لنا مثلاً عما يحدث فى العالم ، من أخطاء وما هو جائر ومضايق للكنيسة . فإن نينوى لا تبالى بمخلصنا ، فهى تسئ إلينا وتسبب لنا ألماً كل الوقت .

ربما تكون نينوى هى قوتنا المحركة الجائعة إلى الثروة والمال . وقد تكون هى العنف والقسوة التى سيطرت على مدننا. وربما تكون مجتمعنا المريض بالخطية والمنغمس فى الشهوات مُطلقاً العنان لأهوائه ونزواته . إن نينوى هى عبارة عن كل ما كنا نريد أن يدمره الله سريعاً جداً. لم يكن يونان راغباً فى أن ينقذ نينوى من الدمار الذى سينزله الله بها . ولا المسيحيون المعاصرون الذين يعلنون للعالم عن ارتداده عن الدين بصورة أكثر حماسة عن الله ، الذى لا يزال يحب العالم .

وبعد قول الرب مباشرة الذى صار إلى يونان مرسلاً إياه إلى نينوى ، « قام يونان ليهرب إلى ترشيش » (يون ١ : ٣) . وتبعد ترشيش حوالى ألفى ميل فى الجهة المقابلة عن نينوى .

وأنه لأمر ملفت للانتباه أن يونان لم يستطع أن يتجاهل تماماً دعوة الرب . ولم يستطع أن يبقى فى المكان الذى كان فيه . فقد كان عليه إما أن يطيع دعوة الرب أو أن « يهرب من وجه الرب » (يون ١ : ٣) . إن صورة يونان عن الرب هنا هى صورة تتسم بالمخاطرة . فقد هرب من وجه الرب لأنه لم يستطع أن يقبل الفكرة التى كان قد عرضها . فإن هذه القصة ليست بحق

قصة عن اهتداء نينوى إلى الإيمان بالله ، إنها قصة عن اهتداء يونان ، التى وقعت أحداثها كرد فعل لدعوته . وكما هو الحال دائماً ، يمكن القول بأن دعوة يونان قد جاءت عن اكتشاف صورة أعظم عن الله عن تلك التى قد كانت لديه أو التى أراد أن يتصورها .

إننى أجد أن رعايا كنيستى غير المتأكدين من دعوتهم فى الحياة ، غالباً ما يبدأون فى البحث هنا وهناك عن وظائف جديدة أو مدارس أو مدن جديدة لزيارتها . إلا أنه لا يبدو عليهم أبداً أن يختاروا نينوى فى بحثهم ، ما لم يبدأوا بحثهم باكتشاف أعظم لله . عندئذ يكونون منفتحين للاكتشافات المدهشة لما يمكن لمحبته أن تفعله فى العالم ، وإلى حيث يمكن أن تقودهم .

إننا نحب أن نستخدم الكتاب المقدس على اعتبار أنه كتاب يقدم حلولاً . غير أن الكتاب المقدس هو أكثر من ذلك . إنه يدفعنا للتعطش إلى مواجهة مع كلمة الله . إنه الكتاب المقدس الذى يسألنا وينتظر إجابتنا . فإذا ما بدأنا بأسئلتنا الخاصة بنا مثل « إلى أين تريد منى أن أذهب ؟ »، لوجب علينا أن نسرع بإجاباتنا الخاصة بنا . وليس مدهشاً ، أن تبدو هذه الإجابات دائماً لأن تكون « ترشيش » .

كانت ترشيش مرفأ بحرياً مثالياً نائياً ، ونوعاً من الملاذ أو الملتجأ القديم . فقد كانت سفن سليمان العظيمة تبحر إلى هناك لتجلب الذهب والفضة والعاج والطواويس(١مل ١٠:٢٢)، فالتوانى والمشى ببطء حول طواويس مملكة الله اللطيفة هو أكثر متعة من رفع الصلاة طلباً لرحمة الله للخاطئ والعدو والجبار . إن كل مؤمن أعرفه أجده مهتماً بدعوة الله له . ونحن نرغب جميعاً فى أن يدعونا الله . إننا نريد فقط أن نختار المكان والناس الذين نود الذهاب إليهم .

وعندما تتضح قصة يونان والحوت ، يستطيع الله أن يجدنا ويذكرنا ويعود بنا عندما نهرب إلى الاتجاه الخاطئ . فلا تقلق بسبب اقترافك خطأً جسيماً وفادحاً وتأخذ موقف المتفرج بالنسبة لله. فقد سمعت أكثر من واعظ حسن النية يثير الخوف فى قلب الشباب بإنذارات تقول بأن الأولاد الذين يقترفون أخطاء سوف يحصلون فقط على ثانى أفضل شئ عند الله مباشرة . ونحن لا نجد فى أى مكان فى الكتاب المقدس مثل هذا المفهوم أو هذه الفكرة . فنحن نجد كثيراً من الأمثلة التوضيحية مثل يونان ، حيث يتعقّبنا الله عندما نكون قد أخطأنا . فلا نستطيع أن نتجنب الله ونهرب من وجهه ، ولا نستطيع أن نتفوق عليه فى القدرة على الانتظار أو نتفوق عليه فى براعته . ولا نستطيع حتى أن نخطئ إلى ما لا نهاية متجاوزين حدود رحمته .

فالكتاب المقدس واضح فيما يختص بهذا الأمر ، فإن الله يحصل على ما يريد .

ويمكن أن يكون الأمر مثيراً إلى حد ما عندما يأتي الله باحثاً عنا . فنحن نتفكر في النعمة على اعتبار أنها امتياز ممنوح من إله لطيف الذى يصرح لنا قائلاً عندما نخطئ « حسناً ، يا عزيزى ، وأرجو أن تحاول بأن لا تفعل ذلك مرة أخرى » . إن النعمة تتطلب من الله أن يأتى ويحصل علينا . فقد تكون النعمة مواجهة ، أو متحدية ، ومرعبة ، ومعطلة ثم هى كثيرة المطالب ، غير أنها فى نهاية المطاف تخلص حياتنا .

وأحياناً يكون على الله أن يأتى ويدركنا عندما نتوارى ونستتر فى كآبتنا وحزننا ، ونرعى قلباً كئيباً منكسراً فى داخلنا. فهو يهمس فى آذاننا برقة ولطف قائلاً : « أنت لست وحيداً ، أنا أحبك ». وأحياناً يجدنا ضالين فى الخطية فيهمس فى آذاننا قائلاً: « إننى أغفر لكم خطاياكم وأعيدكم إلى حظيرتى » . وأحياناً يتحتم عليه أن يتعقبنا مسرعاً إلينا عندما نقصد الاتجاه الخاطئ . ويحدث هذا الأمر عادة عندما تصبح الأمور مليئة بالإثارة والمفاجآت . فالمسألة إذن كأن الله يقول : « أنت بحاجة إلى مخلص . دعنى أوضح لك ذلك » .

الدعوة إلى اليقظة

كانت الأمور تجرى بصورة مثيرة مليئة بالأحداث المفاجئة بالنسبة ليونان على سطح السفينة المتجهة إلى ترشيش ، إذ يقول لنا الكتاب المقدس « فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه » . ومما يثير الانتباه أن يونان نائم نوماً ثقيلاً طوال هذا الوقت . وقد كان على قبطان السفينة أن يوقظه ويسأله قائلاً له « مالك نائماً . قم اصرخ إلى إلهك »(يون ١ : ٥ - ٦) .أن نعيش بعيداً خارج نطاق دعوة الله ، فهذا يشبه كثيراً جداً الاستغراق فى النوم فى العاصفة . فالأمر كما لو أننا نعجز عن إدراك سلسلة مشاهد وأحداث عمل الله المثيرة فى العالم .

إن الناس لا يخططون تقدمهم فى الحياة ، إذ أنهم ينطلقون لكى يباشروا نشاطهم بانتظارات أعلى ، وربما بشغف أيضاً . ولكنهم بطريقة أو بأخرى قد أخطأوا الاتجاه وركبوا السفينة الخطأ . إذ كانوا يظنون بأن هذه السفينة سوف تنطلق بهم وتحملهم إلى أحلام عظيمة ، ولكنها لم تكن رؤى وأحلام الله . وطوال الطريق ، يلاحقون الأحلام الخاطئة ويصبحون مغلوبين للغاية ومحبطين إلى حد بعيد أو ربما يشعرون أنهم ناجحون أكثر مما ينبغى حتى أنهم يتجنبون أية مجازفة ، أنهم

يقولون لأنفسهم بأن هذا الأمر أفضل ما يمكن أن تقدمه لنا الحياة ، فبدون أى مبرر حقيقى منهم يدفعهم أن يظلوا يقظين يسمحون لرحلة الحياة أن تهدهدهم وتغنى لهم حتى يناموا . وربما يشغلون أنفسهم لدرجة الإنهاك والتعب الشديد أو يحيون حياة الاستقرار الذى يؤدى بهم إلى غيبوبة عميقة . وربما يشربون الخمر ليلاً بالدرجة التى تكفى أن لا يقضوا الليل منفردين بأنفسهم يجترّون أفكارهم . وقد يشترون دمى جديدة لتلهيهم وتسليهم . فكل ذلك هو مجرد وسيلة للكسل والنوم بسبب الاختيارات السيئة فى الحياة .

إن من يحيون بدافع من دعوة الله لديهم الكثير من المرتفعات والمنخفضات ، لأن خطط الله سوف تحملهم إلى الأعالى وتنزل بهم الأعماق . إذ يرون العواصف التى تحدث حولهم وتسبب لهم اضطراباً ، ولا يقدرون أن يغمضوا عيونهم متجاهلين المعوز والمريض . وهم يرون العنف والظلم والاضطهاد الذى يمزق حياة الناس الصادقين بالفعل . غير أنهم يستطيعون أيضاً أن يروا علامات النعمة فى العالم إذا ما بحثوا عنها .

فإذا أردنا الاستجابة لدعوة الله ، فهذا معناه أن نفتح عيوننا لنرى الله وسط عالمنا العاصف غير المستقر . وكما كان من الضرورى على يونان أن يتخلى عن تهربه البليد ، وأن يُطرح فى البحر، هكذا ينبغى علينا نحن أيضاً أن نطرح أنفسنا على الطريق الذى هو حقاً فى العالم . وهذا يعنى عادة بأن الحياة سوف تكون حافلة خصبة ، غير أنها لا تعنى بأننا سوف نصبح شديدى الحماسة للعمل . إن الذين ينشغلون انشغالاً كبيراً قد فقدوا رؤيتهم لِمَ يعملون لأجله . فقد استغرقوا في النوم منذ عهد بعيد .

إن عضو الكنيسة الذى يصبح مشغولاً جداً يأتي لمقابلتى لأنه يريد أن يوقف نشاطه فى الخدمة. وقد اعتدت أن أجد شخصاً آخر ليقوم بعمل ذلك الشخص . ولكننى لاحظت أن الأماكن الشاغرة التى فى جداول أعمال الناس بدت دائماً أنها تمتلئ تماماً بشئ آخر . وقبل أن تمضى فترة طويلة يرجع نفس الشخص إلى مكتبى وهو واثق بأن حل مشكلاته فى الحياة هى مجرد الانسحاب من مشروع آخر .

وهناك آخرون فى كنيستنا الذين يجتهدون فى العمل ، ويعملون على تنشئة عائلة عاملة نشطة ، ويحافظون على تعهداتهم العظيمة فيما يتصل بالخدمة إلى حد ما أو إرسالية الكنيسة . فكيف يعملون ذلك ؟ ربما يعملون بعيون مفتوحة لكي يكتشفوا رؤيا الله فى كل ما يعملونه .

وهذا هو السر . فإن الهدف الذي يسعى إليه تلاميذ المسيح المجهدون المرهقون ليس أن يعملوا شيئاً أقل أهمية بل بأن يعملوا الأمور الصحيحة . هذه هي الأمور التى تجعلنا يقظين ومتنبهين لحضور الله فى حياتنا . فإذا ما اكتشفنا ذلك ، فإننا لن نشبع منه .

بعد قضاء سنة فى الكلية عجزت عن أن أجد ذاتى . فأنا لم أكن قد تُركت فقط فى طفولتى ، فقد تُركت أيضاً من أحلام الحياة التى كنت أحلم بها كطفل فيما مضى . ولم أثق فى أى إنسان ، . فقد كنت تجسيداً « للضال » . فبعد أن كنت أسافر هنا وهناك بواسطة السيارات التى أشير إليها لأركبها متطفلاً فترة من الزمن ، وانتهى بى الحال إلى العمل فى نوبطجية منتصف الليل فى محطة بنزين فى مدينة نيويورك . لم أكن فى نينوى ، ومن المؤكد أننى لم أكن فى ترشيش . فقد كنت مستغرقاً فى النوم تماماً فى مكان ما على الطريق . كنت أحيا بلا أهداف ، وليس لى علاقات ، ولم يكن لدى خطط البتة لكى أُدعى من الله .

إن دعوة الله الموقظة قد جاءت لى من رجل شريد لا بيت له يدعى « شورتى » وقد كان من عادة شورتى أن يصل حوالى الساعة الثالثة صباحاً بعد ليلة من التسكع والتطفل لاستجداء نقود كافية للسكر والعربدة . وقد تعودت أن أتركه يتخلص من شرب الخمر بالاستغراق فى النوم فى حجرة من الحجرات خلف محطة البنزين . وذات ليلة وبينما كنت جالساً بجوار مضخات البنزين ، تمايل علىّ مترنحاً ليتحدث إلىّ ، وقد قال لى : « إننى أحبك . فأنت وأنا لدينا الكثير من الأمور التى نشترك فيها معاً » . تلك كانت الليلة التى استيقظت فيها من سُباتى .

وقد قررت بأنه يكون من الأفضل أن أُطرح فى البحر المضطرب المرعب حيث كان مستقبلى مجهولاً عن أن أتخلص من حياتى بالاستغراق فى النوم . غير أن ذلك كان يعنى بأنه علىّ أن أثق فى الناس مرة أخرى ، وأن أؤمن بالله وأثق به مرة أخرى . وقد كان علىّ أن أتخلى عن صورتى المعززة المحببة عن ذاتى كضحية مجنى عليه . وكل ذلك كان يعنى بالنسبة لى كأننى أطلب من البحارة أن يطرحونى فى البحر .

وبعد ما طلب يونان من البحارة أن يطرحوه فى البحر الهائج ، حاولوا أن ينقلوه بالمركب إلى الشاطئ . فعندما يحتاج من حولنا إلى مواجهة دعوة الله لهم ، قد نكون مجربين بأن نجنبهم ونبعدهم عنها ، وهو أن نحاول أن نخفف من مشكلاتهم عن طريق تعديل جداول أعمالهم وعلاقاتهم . غير أن هذا الأمر لا فائدة منه ويعتبر تصرفاً وثنياً . فلا نقدر أن نكون المخلّص .

إذ أن كل ما نستطيع أن نعمله هو أن نساعدهم على أن يخطوا إلى الأماكن التى فيها يستطيع الله وحده أن يخلصهم .

ليس هناك طريق آمن إلى نينوى ، فقد هجرنا الأمان وتركتنا الطمأنينة منذ زمن طويل . وهناك أسئلة عديدة تتعلق بتفاصيل دعوة الله . كيف نصل إلى هناك ؟ من سوف يعتنى بنا ؟ ما هى الضمانات التى لدينا بأننا سنكون موفَّقين فى نينوى ؟ لا شئ . لا شئ . فالأمر على ما يبدو كأنه قفزة من على المركب إلى البحر . فإذا ما أدركنا أن ما يعتبره البعض أن أتِّباع الله جنون ، فإن ذلك الجنون هو أكثر سلامة للعقل من حياة بلا انفعال وحماسة ، لكننا على استعداد للدعوة .

نقــاط تحــول

إن الله لم يسمح أن يغرق يونان فى البحر . فقد أرسل حوتاً عظيماً ليبتلعه . ولم ينقذ الحوت يونان من الغرق بقدر ما حفظه من الهرب من وجه الرب . فقد كان على يونان أن يبقى فى جوف الحوت ثلاثة أيام ، وهو فى حالة عجز، حيث كان فى غاية الشك فى مستقبله . فقد كان جوف الحوت هو المكان الذى كان لابد وأن تتحول فيه حياة يونان وتتخذ وجهة أخرى .

إن سفر يونان يحتوى على صلاة عجيبة ورائعة كنتيجة لتلك التجربة . ففى هذه الصلاة نرى يونان يقوِّم علاقته لتستقيم مع دعوة الله . وهذا درس نموذجى لكى نتعلم كيف نصلى على نحو أفضل فى جوف الحوت . وذلك لأنه فى داخل جوف الحوت ، إما أن تصلى طالباً وجه الرب أو أن تظل مرتاعاً وفزعاً إلى أقصى حد .

فما أن يقذفنا الحوت إلى البر ، نصرح بأنه قد كان ذلك أفضل شئ حدث لنا من أى وقت مضى . فالأزمة القلبية ، وضياع الوظيفة أو العمل ، وإدمان الابن للمخدرات ، والمرض المزمن الذى يهدد الحياة ، كل هذه ربما أرعبتنا وأفزعتنا ، غير أنه قد جاء بنا أيضاً إلى طريق الحياة القويم . لاحظ عزيزى القارئ ، بأن الحوت لا يضمن لنا الوصول إلى ذلك المكان الصحيح . إنه فقط يحتجزنا ويبقينا فى مكان مرعب إلى أن نتعلم كيف نصلى ونطلب وجه الرب.

الدعوة لمجرد الظهور

وصل يونان أخيراً إلى نينوى « المدينة العظيمة » . ولما حقق دعوته حدثت النهضة الروحية وانتعشت . ما هى المهام التى يمكن أن ينجح فيها نبى عبرانى تقاومه مدينة عظيمة وشريرة التى يستغرق اجتيازها ثلاثة أيام ؟إن فهمى لرسالة يونان هى ببساطة أنه « بعد أربعين يوماً سوف يدمِّر الرب المدينة ويقلبها » . فلا أمثلة توضيحية ولا تفسير دقيق للكتاب المقدس . ولا حتى نقاط ثلاث مرحلية . بل مجرد إنذار رهيب .

إنه لمن الحمق أن نعتقد بأن عظة يونان الغامضة فى معناها قد تسفر عن نهضة روحية للمدينة بأسرها ، ما لم تكن المدينة مستعدة للتوبة والرجوع إلى الرب . فإن صح ذلك نستطيع القول بأن كل ما كان على يونان أن يفعله هو الحضور إلى المدينة .

إن أهم شئ نعمله فى التجاوب مع دعوة الرب هو الحضور . نحن لسنا بحاجة لأن نكون على يقين ، ولسنا بحاجة لأن نكون الأفضل والأحسن ، ولسنا بحاجة أيضاً لأن نشتاق أن نوجد هناك . فإن كل ذلك ذو أهمية لو كنا قادرين على الوفاء بالتزاماتنا فيما يتصل بصنع التغييرات . غير أننا لسنا كذلك . فهذه هى الحياة التى قد كان علينا أن نتركها ونهجرها يوم أن بدأنا فى إطاعة دعوة الله . وها نحن ملتزمون تماماً أن نحضر برؤيا تتصل بما يعمله الله فى العالم .

إن معظم الناس فى كنيستى التى أخدم فيها لا يحيون حياة دراماتيكية تنطوى على أحداث مفاجئة ومثيرة . إذ أن وقتهم موقوف على تقارير لابد وأن تُكتب ، وعملاء وزبائن لابد من إرضائهم ، وميكانيكيون يعجزون عن إصلاح السيارة ، والمؤتمرات الخاصة بالآباء والمعلمين ، ومتاجر الغسالات الكهربائية والبقالة . فإن معظم الوقت يكرسونه فى الاهتمام بالواجبات الدنيوية فى الحياة . ربما لا تكون هى الحياة التى كانوا يتطلعون إليها ، ومن المؤكد أنها ليست ترشيش .

وعلى الرغم من أنه ليس المكان الذى كانوا يتطلعون إلى الذهاب إليه ، فإن البعض منهم على يقين بأن هذا هو المكان تماماً الذى كانوا قد دعوا إليه . والواقع أن هؤلاء الناس لا يصلون إليه . إنهم يحضرون برؤيا ورسالة عن ما يفعله الله . فإن ما كان يميز يونان فى نينوى هو رؤياه

بمستقبل المدينة الذى قرره الله ، وما هو عازم أن يفعله بالمدينة .

فإن تلك الرؤيا هى ما تجعل تلاميذ المسيح المعاصرين ملحاً للأرض ونوراً للعالم .

إن دعوتنا هى أن نحيا فى العالم الواقعى ، ربما يكون أيضاً المكان الذى لا نريد أن نحيا فيه ، برؤيا ملكوت المسيح الآتى المغيرة للعالم . إن هذه الرؤيا قوية للغاية حتى إنها تحدد شكل الحياة فى المستقبل . فإنه بحسب ما جاء فى يون ٣ : ١٠ قرر الله برغم كل شئ أن لا يدمّر مدينة نينوى . هل نغير نّية وقصد الله ؟ إننا نقدر أن نفعل ذلك فى مكان ما على الطريق ، ربما فى جوف الحوت . حيث تعلمنا كيف نصلى ونطلب وجه الرب .

خدمة إله يغير فكره :

إنه لأمر لافت للانتباه بأن يونان صار مضطرباً ومستاءً عندما غيَّر الله عزمه على أن يدمِّر المدينة . فقد كان خائفاً من ذلك منذ البداية . والواقع ، أن ذلك هو السبب الذى كان قد دفعه لأن يقاوم دعوة الله أولاً . أليس هذا كلامى إذ كنت بعد فى أرضى ؟ .. لأنى علمت أنك إله رؤوف ورحيم بطئ الغضب وكثير الرحمة ، وعلى استعدادلأن ترق وتلين وترجع عن أن تنزل القصاص .. (يون ٤ : ٢). حتى المسيحيين يفضلون الرسالة التى تقول قد نلت جزاء ما فعلت . إنها رسالة صارمة إلا أننا على الأقل نفهمها ، وهى تؤكد لنا أن العدل آت فى النهاية . إن ما نفهمه هو تغيير الله لفكره وقصده . وبصورة تهكمية فإن ما يختص بكل قصة يسوع المسيح ، هو أن الله يغير فكره بخصوص خطيتنا فيسامحنا ، ويتذكر فقط خطايا العالم ، ونفضّل أن نفكر فى الله على أنه سوف يسوّى الحساب مع هذا العالم الذى كان فى غاية القسوة علينا . إن ترك رغبتنا فى الانتقام أمر صعب لدرجة أنه يمنعنا من اتباع طريق إلهنا الذى هو « على استعداد لأن يرق ويلين فيرجع عن القصاص » .

فبينما كان يونان جالساً خارج المدينة منتظراً أن يرى ما إذا كان الله مزمعاً بحق أن يشفق على هؤلاء الخطاة ويستبقيهم ، نبتت يقطينة ليستظل بها . ففرح يونان باليقطينة فرحاً عظيماً . فهو لم يزرع هذه اليقطينة ولم يتعهدها ويعتنى بها . فقد أعطيت له فقط بالنعمة . ثم يبست اليقطينة وماتت ، فغضب يونان غضباً شديداً ، وكأنه قد خسر ما كان يحق له . وقد لاحظ الله بأن يونان قد أشفق على النبات الذى كان له بالنعمة فقط ولمدة وجيزة ، غير أنه لم يشفق على

أهل نينوى الذين يصل عددهم إلى أكثر من مئة وعشرين ألف نسمة ؟ إن الله يسأل : « ألا تحزن على خسرانهم للأبدية ؟ ».

في هذه الرواية ، لم يتلق الله أية إجابة على سؤاله . ربما تكون الإجابة متوقفة علينا ومطلوب منا أن نقدمها .

الفصل الرابع
متروك من النجاح

من المحتمل جداً أن نضيع بسبب ما حققناه من النجاح الذى أحرزناه بناءً على اختياراتنا ، لأننا نفترض أن اختيارتنا كانت صحيحة ، ولذلك حققنا النجاح ، لكن الغالب أن ذلك النجاح بعينه هو سبب آخر يؤكد احتياجنا لمخلّص .

لماذا تحظى الدينونة بالقبول :

بعد أن أمضيت سنوات عديدة فى الرعاية ، رجعت إلى كلية الدراسات العليا لأحاول الحصول على درجة علمية عالية . ولقد كان ذلك أفضل شئ قمت به لكى ما أؤكد دعوتي لدور الرعوية . فمنذ وقت طويل كنت أتطلع إلى دراسة مستمرة متواصلة . ولكن عندما جاءت الفرصة ، اكتشفت بأننى قد افتقدت الأبروشية افتقاداً كبيراً .

وذات يوم حضرت ندوة للمناقشة كانت للرد على السؤال : لماذا تتزايد العبارات الدينية المتصلة بالدينونة ؟ وكان من بين الذين يقودون ندوة المناقشة عالمة نفسية التى كان رأيها أن الكنائس الأصولية التى تتمسك بالأصول والأساسيات مملوءة بأناس يعتبرون أنفسهم أنه تم إعفاؤهم من غضب الله لكونهم قد حصلوا على الغفران . ومن ناحية ثانية هم يستمتعون بالكلام عن الدينونة الآتية على بقية العالم . وقد كان المتكلم بعدها مباشرة مؤرخاً للنهضة الروحية وإيقاظ الشعور الدينى ، الذى قال بأن هذا النوع من الدين هو أساساً تعبير عن سخط اجتماعى يتقدم باستمرار عندما تأتى الأزمنة الصعبة . فإنه فى مواجهة ضياع الوظائف ، وضياع المستقبل قد يفضل الناس أن يطلبوا إلى الله أن ينزل ناراً من السماوات ويحملهم إلى مكان أفضل . وأخيراً عرض عالم الاجتماع وعالم اللاهوت نظرياتهما الجديرة بالاهتمام أيضاً .

وكطالب مجتهد ، جلست ودوّنت ملاحظات دقيقة مهمة، غير أن الراعى الذى فى داخلى كان يود أن يقف ويصرخ قائلاً « ربما تحظى الدينونة بالقبول والموافقة لكوننا نعتقد بأننا نستحقها ، إذ قد حُكم علينا بأننا لسنا أكفاء من جانب والدينا عندما كنا أطفالاً ، ومن جانب أبنائنا عندما

كنا والدين ، ومن جانب مشرفينا ومن جانب محبينا ، وأسوأ الكل أنه قد حُكم علينا من جانب الشخص الذى يظل يفضحنا ويكشف لنا عيوبنا ونقائصنا فى مرآة الحمام أيا كانت برامج أنظمة الغذاء أو تقويم النفس التى نحاول القيام بها . هل هناك أى شك بأننا نظن أن الله ربما يريد أن يديننا أيضاً ؟

إننى أعتقد بأنه من أجل هذا السبب أن يوحنا المعمدان كان كارزاً شعبياً هائلاً . إذ يخبرنا الكتاب المقدس قائلاً « حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن » (مت ٣:٥) . كان يوحنا المعمدان من نوع الكارز الشورى أوالملتهب حماسة . والجموع التى أحاطت بيوحنا المعمدان تظهر بأن العظات حول موضوع غضب الله كانت مطابقة فى صياغتها لنمط وشكل الوعظ فى أيامه كما هو الحال فى أيامنا . وفى هذه الأيام نجد أن هذه الأقوال التى يستخدمها المبشرون الشوريون والملتهبون حماسةً تنصهر وتذوب فى حرارة تحذيرهم عن الدينونة المرعبة الآتية ، ونحن نندفع أفواجاً إلى كنائسهم كما لو كنا نحاول أن نجعلها تبدو وكأنها على شواطئ نهر الأردن ، نشير برؤوسنا علامة على الموافقة قائلين الدينونة ؟ آمين . لقد وعظت عنها يا يوحنا.

ثم حدث أغرب شئ ، حيث وصل يسوع المسيح فى منتصف عظة من عظات يوحنا المعمدان . فقد كان هو ذاك الذى كان يوحنا المعمدان قد نبهنا عنه ، ذاك الذى له القدرة والسلطان والحق أن يديننا جميعاً . وأما بخصوص دهشة واستغراب الجميع ، لاسيما دهشة يوحنا المعمدان ، هو أن يسوع لم ينزل ناراً من السماء لكنه خطا إلى الماء وطلب أن يُعمد لأجل الخطاة .

ولما اعتمد يسوع فى الماء فتح الله الآب السماوات لينادى لهؤلاء الذين يتوقعون الدينونة الآتية بأنه كان راضياً مسروراً بما قد حدث حالاً . هل نتذكر كم كنا نشتاق إلى سماع أبائنا الأرضيين وهم يقولون بأنهم كانوا راضين ومسرورين بنا ؟ هذا هو كل ما يتعلق بحلول يسوع فى بشريتنا . فقد سر الأب السماوى ورضى بنا لا لأننا قد بذلنا جهداً طيباً حتى نجده ، بل لأنه هو قد وجدنا .

كانت ديانة يوحنا المعمدان تنادى أساساً بلاهوت الصعود . إذ كان يدعو الناس بأن يجاهدوا بأن تستقيم حياتهم ويسرعوا للاقتراب أكثر إلى الله . وعلى النقيض من ذلك ، فإنه من اللحظة التى خطا فيها يسوع إلى مياه المعمودية ، كان واضحاً بأنه كان يعرض لاهوتاً ينادى بلاهوت

النزول ، إذ أن يسوع الديان الآتى اختار أن ينزل فى ثنايا حياة معرضة للشبهة والخطر ، وحياة معقدة ومتصارعة .

كان يسوع يدعو الناس إلى أن يعيشوا حياة البر ، غير أنه ازدرى بأولئك الذين صاروا محترفى حياة البر . فقد رفض أن يدين الخطاة ، بل كان يقول لهم ألا يعودوا للخطأ . وقد قال إنه جاء ليحرر المأسورين ، إلا أنه خيَّب أمل الذين كان لهم طموحات وتطلعات سياسية وينظرون إليه لتحقيقها . والواقع أنه كان مخيبا للآمال لدرجة دفعت يوحنا المعمدان فيما إذا كان هو المسيا أم لا . وقد امتدت خيبة الآمال وانتشرت إلى أن قُتل يسوع آخر الأمر .

لقد قتلنا يسوع لا لأنه زعم بأن يكون المسيا ، بل لأنه قد صار مثلنا . صار ذلك الأمر بمثابة تجديف وامتهان لآمالنا العظيمة لما سوف يعمله المسيا . إننا لا نريد مخلصاً ينزل إلى البشرية . إننا نريد مخلصاً ينقذنا من كل الدينونات التى قد واجهناها . ولكن ألم نتعلم بأن ليس هناك أمل فى أى تدبير يعد أن يعيننا على أن نرجع إلى الماضى ونرتفع عن حياتنا التى كنا قد حكمنا عليها أنها غير ملائمة ؟ إن الرجاء إذا كان عتيداً أن يأتى ،لابد أن ينزل من فوق .

من يوم أن وُلدنا ، نجد أن حياتنا تُقيم باستمرار . لكن نادراً ما نكون على المستوى ، ولا نقدر أبداً أن نصل إلى مستوياتنا السامية إلى أبعد حد ، فما بالك ومستويات الله . فإنه بقدر ما نجاهد فى محاولتنا بقدر ما نضل. فالنضج فى حياتنا يأتى مع اكتشاف أن الخلاص يأتى لنا وأنه لابد أن يجدنا .

الحياة التى تخضع للمقاييس

إن من أعظم الأمور المفرحة فى الخدمة الرعوية هو زيارة الأطفال حديثى الولادة ووالديهم فى المستشفى ، ويجب علىّ أحياناً أن أحمل الطفل . فأنا لا أتعب أبداً فى التأمل فى حياة أصيلة للغاية لم تفسد بعد وغير متأثرة باهتمامات وهموم العالم . وهذا هو السبب بأنى كنت مرتعباً إلى حد ما عندما عرفت أن الأطفال يتم فحصهم فحصاً طبياً روتينياً يوم أن يولدوا . إن معظم الأسر الحديثة فى كنيستنا مرتعبون أيضاً بسبب هذه الفحوص ، ولكن لأسباب مختلفة .

عندما ذهبت لأرى ابنة كيهل المولودة حديثاً وجدت مرثا تبكى بينما تهز ابنتها فى مهدها ، وعندما سألتها عن سبب بكائها قالت مرثا إن سارة لويس الجميلة لديها إصبع ملتوٍ للخارج فى

قدمها ، ثم أرتنى مرثا إصبع القدم فلم أجد به شيئاً غريباً ، فقالت مرثا إننى لا أعلم سبب إحساسي بالضيق ، ربما السبب فى ذلك الفحص الطبى الذى كان من نتيجته اكتشاف التواء الإصبع كما أن نتيجة بقية الفحوص لم تكن مائة بالمائة .

لقد كان ذلك أول يوم من حياة سارة ، وفيه اجتازت فى متاعب بدرجة كافية .

لقد أخذت مرثا الموضوع كله مأخذ الجد ، غير أنها أخذت إيمانها أيضاً مأخذ الجد . وقد أبديت ملاحظاتى الكثيرة بقدر ما أستطيع عن جمال وحلاوة طفلتها ، غير أن ذلك لم يفد كثيراً، ثم سألتنى مرثا إذا كنت قد فكرت بأن العشاء الربانى يمكن تناوله فى الرحم . وقد كان السؤال جديداً بالنسبة لى، فقد قالت إنها تناولت من مائدة العشاء الربانى فى الكنيسة الأحد الماضى وآمنت بأن رموز جسد المسيح ودمه سرت فى عروق الطفلة سارة لويس ، قبل أن تولد . قالت ، إن ذلك لأمر هام لأن الطفلة سارة كانت بحاجة إلى كل ما يمكن أن تحصل عليه من النعمة قبل إجراء الفحص .

إن الحياة هبة من الله . إذا ما آمنا بذلك حقاً ، فإذا حاولنا أن نوجد الحياة فإن هذا سيبدو سخيفاً ، إذ قال يسوع : « إن الذين يخلِّصون حياتهم يخسرونها » . أن نحاول أن نخلص حياتنا يجرنا ذلك إلى تطبيق معايير مستديمة متواصلة . ترى هل عملت ما يكفى ؟ هل جاهدت بدرجة كافية؟ كيف أقارن نفسى بأولئك المحيطين بى ؟ هل أترك ميراثاً كبيراً كافياً لأولئك الذين سوف يذكروننى بعد أن أموت ؟ إنه لأمر قاسٍ . والواقع ، أنه ليس هناك سبيل أفضل من أن تخسر حياتك عن أن تقيمِّها باستمرار

إن مجتمعنا لا يستطيع أن يقيِّم ازدهاره ليلٍ بدون استخدام ومقاييس . إذ تقدم لنا صحفنا يومياً دليلاً آخر حول الاقتصاد والعمل أو بعضاً من شعبية القائد ، كما لو كانت هذه الأمور بمثابة مؤشرات صالحة ملائمة تشير إلى خاصية حياتنا معاً . إلا أننا يجب أن نعد مقياساً لأى من الأشياء التى كانت تمثل أهمية بالنسبة ليسوع ، مثل محبة الله من كل القلب ومن كل النفس ومن كل الفكر ومن كل القدرة وأن نحب القريب كنفوسنا (مر ١٢:٢٨-٣٤) . أود لو ألتقط يوماً ما جريدة يومية قدمت تقريراً عن النسبة المئوية للأمريكيين الذين كانوا قد قدموا الخد الآخر وغفروا لمن أساءوا إليهم وأحبوا أعداءهم وأطعموا الجائع وقدموا كوب ماء للعطشان ورحبوا بالغريب وكسوا العريان واعتنوا بالمريض وزاروا المأسورين (مت ٥ : ٣٨-٤٨ . ٢٥: ٣١- ٤٦)

إلا أن ذلك ليس من المرجَّح أن يحدث ، لأن نظامنا في التقييم قائم على أساس من القيم الغريبة تماماً عن ملكوت يسوع المسيح .

في الجنازات لا يتحول النجاح المادي إلى مديح وتأبين ، فلم أسمع ذات يوم عن فرد في العائلة يقف أمام شعب الكنيسة ويحصي عدد الدولارات التي كسبها الفقيد الراحل . هم يريدوننا أن نعتقد بأن هذا الشخص كان ودوداً وشفوقاً ، حتى وإن لم يكن كذلك فإن هذه العاطفة توضح بأننا نعرف في داخلنا ، بأنه في ضوء الأبدية قد قضينا حياتنا نُقاس ونقُيَّم بمعايير ومستويات خاطئة . إذاً لماذا يزعجنا هذا الأمر كثيراً جداً عندما يكون الله رؤوفاً وشفوقاً إلى حد بعيد حتى يخلصنا من نجاح العالم ؟

كان يسوع بائعاً

إنه تحدٍ عظيم بالنسبة للمبشرين بكلمة الإنجيل أن يقدموا تعاليم يسوع للجماهير التي تعيش في عالم مندفع إلى النجاح وإحراز الثروة . فقد تعلم شعب كنيستي طوال الأسبوع ، وبطرق عديدة للغاية ، بأنهم أساساً عبارة عن مستهلكين . وأن استحقاقهم وجدارتهم مرتبطة مباشرة بقوتهم الشرائية ، وقوتهم الشرائية مرتبطة بمدى كدهم ودرجة اجتهادهم البالغ في العمل . فإنهم كمستهلكين لهم الحق في الحصول على الخدمة الجيدة ، والجودة ، وأفضل سعر ممكن لكونهم يكدون ويثابرون لكسب المال . ثم يلتقون بيسوع يوم الأحد ، الذي يرفض أن يقدم لهم خصومات أو صفقة رابحة أو يسمح لهم بأن يمتلكوها بطريقتهم . بل هو يحذرهم بخصوص حساب النفقة لأنهم صاروا تلاميذه : «إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً لا يقدر أن يكون لي تلميذاً »(لو ١٤ : ٢٦).

ما الذي يعنيه يسوع عندما يقول يكون الأولون آخرين ؟ إن الودعاء عادة لا يرثون شيئاً ، ليست الأرض بالتأكيد . وإذا ما أخذ شخص ما ثوبي أكون شاكراً تماماً بأن اللص لم يأخذ ردائي أيضاً .كما أني لست مستعداً لأن أقدمه له . تصور أنك تقدم طلباً لرهن عقار ، وأنك تخبر الموظف المختص برهن العقار قائلاً : « أنا لا أكنز لي كنوزاً على الأرض ولا أهتم بالغد لأن الغد يهتم بما لنفسه » (مت ٦: ١٩، ٣٤) .

إننى مجرب كخادم لكلمة الإنجيل لإيجاد طريقة ما لكى ألطف وأخفف من أقوال يسوع لكى ما تحظى بالقبول لدى شعب الكنيسة كما لو كانوا عملاء أو مستهلكين . إذ أقول لنفسى ، إنهم لا يعلمون ما الذى يحتاجون إليه بالنسبة لهذا الأمر ، فهم يأتون إلى هنا ليجدوا شيئاً ما سوف يعينهم على ما ينجزوه خلال الأسبوع . وإذا لم أقدم لهم ذلك فسوف يقصدون مكاناً آخر . وبعدئذ أدرك بأن علىّ أن أقضى قدراً كبيراً من الوقت فى الصلاة قبل العودة إلى كتابة العظة . فإن ما يحفزنى بصفة شخصية لأن أكون واعظاً ناجحاً قد دفعنى إلى أن أفهم أعضاء جسد المسيح كمتسوقين وأنا مجرد بائع متجول يجول معلناً عن أنباء تختص بالتجارة . وفى الصلاة أعترف وأعمل على أن تكون العلاقات مستقيمة .أنا لست مضطراً أن أتاجر بالله وأروج له كعلاج للمتاعب اليومية . فقد قال اللاهوتى الراحل ريتشارد نيبور بأن الكنيسة لا يمكن أن تكون أكثر عالمية عن اليوم « الذى تعتبر نفسها مسئولة فيه وملتزمة بالمجتمع لأجل الله لا أن تكون ملتزمة بالله لأجل المجتمع » .

إن دعوتى مرعبة ومخيفة غير أنها فى الواقع بسيطة تماماً. أن أسلم كلمة الله المقدسة ، لا أن أنقذها . لا شك أن الذين اعتادوا أن يخلصوا حياتهم بأنفسهم كانوا ينظرون إلى أقوال يسوع على أنها أقوال مخزية . لكن إذا استمر الوعاظ فى تقديم المبادئ المسيحية لكى تصبح أكثر فعالية وتأثيراً فى عالم يتقدم متجهاً فى الاتجاه الخاطئ فسوف نعين شعبنا على الابتعاد السريع عن الله .

لقد أدركت بعض الكنائس هذا الخطر وتدعو شعبها أن يبذلوا جهداً أكثر لكى يحيوا طبقاً للتعاليم الصارمة التى ينادى بها يسوع . ويتخذ قسوس هذه الكنائس هيئة يوحنا المعمدان ، ويدعون المسيحيين الحقيقيين أن يعتزلوا عن العالم الذى سوف يذهب حرفياً بكل ما تعنى الكلمة من معنى إلى الجحيم . وهم يتداركون هذا الخطر بأن يضعوا مستويات ومعايير للسلوك والإيمان الذى يصلح كمعايير لأناس قديسين ، ويشجعون رعيتهم على أن يجاهدوا ويصبحوا أكثر نجاحاً فى أن يعشوا حياة مميزة ومقدسة. وبصورة تهكمية ، نستطيع القول بأن هؤلاء الوعاظ هم أعظم الحضّانات للعالم الذى يصرّ على أنه يمكننا أن نخلص أنفسنا إذا بذلنا جهداً أكثر . إن المسيحية ليست شيئاً تحقق فيه نجاحاً تاماً . فإذا كانت الغاية هى نوال وقبول محبة الله ، عندئذ يكون السبيل الوحيد للتقدم فى الإيمان هو أن نعترف إلى أى مدى صرنا فى ضلال .

إن تعاليم الرب يسوع ليست قاسية ، إنها تعاليم عسيرة . فإن أولئك الذين سمعوا لأول وهلة عبارة يسوع وتصريحه بأن الغنى يشبه جمل يحاول المرور من ثقب إبرة كانوا قد صُدموا من هذا الكلام . لذلك سألوا « إذاً فمن يستطيع أن يخلص ». وقد كان رد المخلص هو بأنه مادام غير مستطاع عند المؤمن فإن كل شئ مستطاع عند الله . فالأمر يرجع دائماً وأبداً إلى قبول نعمة الله ونوالها . أما إذا تعودنا على نوالها والحصول عليها بطريقتنا الخاصة ، فلا شئ أعسر وأصعب من ذلك .

المراهنة بحياتك :

فى اقتصاديات الله لا يعتبر الفشل عكس النجاح ، إنه ضبط موازنة. إن الفشل هو رفض المخاطرة بما سوف يحدث إذا ما تبعنا يسوع . فالكتاب المقدس محشو بالأمثلة والشواهد عن أناس قد اقترفوا أخطاءً جسيمة فى حياتهم ، غير أن الله يستطيع دائماً أن يفدى هذه الأخطاء إلى الأبد . فإبراهيم وموسى وداود وإيليا وبطرس وبولس ، جميع هؤلاء قد كان لهم بحسب معايير ومستويات العالم لحظات من الفشل العظيم . غير أن هذه هى أعظم أمثلة الكتاب المقدس لمن عاش بالإيمان . فإن هؤلاء الذين يدينهم الكتاب المقدس كانوا فى غاية الخوف فى أن يفشلوا . هذه الأمثلة تتضمن العبرانيين الذين رفضوا الدخول إلى أرض الموعد لأن جواسيسهم أخبروهم عن العمالقة والجبابرة الموجودين فى الأرض ، والرئيس الغنى الذى لم يستطع أن يتخلى عن ثروته، والعبد الثالث الذى طمر وزنته فى الأرض حتى لا يضيعها . إن الله يستطيع أن يبدل أخطاءنا ويحولها إلى انتصارات ، إلا أنه لن يخلص أولئك الذين لا يؤمنون بخلاصه . فإن ذلك يتطلب الكثير، إنه يتطلب منا أن نراهن على حياتنا ونقامر بها على طبيعة الله بأن يكون رؤوفاً ، ونحن نعرف نعمة الله التى تبدو بوضوح فى الصليب .

إن أمثلة الإيمان العظمى فى الكتاب المقدس لا تقدم بواسطة الآباء الأولين والرسل ، بل بواسطة أرملتين فقيرتين . فالأرملة التى من صرفة (١ مل ١٧) كانت صورة محزنة مثيرة للشفقة بشكل واضح التى كانت بالكاد تقاوم القحط والجفاف مع ابنها عندما لاقاها إيليا . ولقد وعدها النبى بأنها لو استخدمت آخر حفنة من الدقيق وقليل من الزيت لتخبزها له طعاماً ، فإن مؤونتها من دقيق وزيت لن تنفد إلى أن يرسل الرب مطراً وينتهى القحط والجفاف . وفعلت كما

طلب منها النبى ، فتحققت بأنها غامرت بحياتها لأن نبى الله كان جديراً بالثقة .

وعندما يراقب يسوع الأرملة الفقيرة وهى تلقى آخر درهمين فى خزانة الهيكل ، فنحن غالباً نريده أن يقول لها بأن تحتفظ بتقدمتها . فما من شك بأنها تحتاج إلى تلك التقدمة أكثر من الهيكل . وأما يسوع فيقول لتلاميذه « الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا فى الخزانة لأن الجميع من فضلتهم ألقوا ، وأما هذه فمن إعوازها ألقت كل ما عندها كل معيشتها » (مر ١٢: ٤١-٤٢) . لقد راهنت على حياتها وغامرت بها لأن الله سوف يعتنى بها .

ترى من هم نساء الإيمان ؟ إننا لا نعرف حتى أسمائهن . إنهن مجرد شخصيات عادية مجهولة الاسم ظهرت فى الكتاب المقدس فترة كافية لعمل شئ عجيب ورائع . إن وجوههن محتجبة من خلال القصة . فإن كل ما نستطيع أن نراه هو حاجتهن واختياراتهن غير المعقولة التى اخترنها .

فعندما نأتى أمام الله ، يكون موقفنا باعثاً على اليأس كتلك المواقف التى للأرامل الفقيرات المجهولات . وعندما سخر يسوع بالأغنياء ، كان ذلك لكونهم يراهنون على مالهم . إن معظمنا لا يفكر فى نفسه لأن نكون أثرياء ، غير أننا بالتأكيد نعتمد على شئ ونتكل عليه لنتجنب الإخفاق فقط بحجة أن الله لا يساعدنا على اجتياز وضع أو مرحلة خطرة أو صعبة . إننا مشغولون فى جمع كل ما هو رائع : العلاقات والإنجازات العظيمة والمال والصحة ، أن نكون الابن الجميل ، أو الشخص الذكى ، ومبالغ الأموال التى نتمسك ونتعلق بها لأجل نجاتنا أو خلاصنا . ولكن أيا كانت حصيلتنا من الأموال الطائلة ، فنحن لا نقدر أن نخلص أنفسنا .

وعندما تهجرنا الأشياء التى نعطيها قيمة كبيرة ، وعندما نكتشف بأنه مهما كان مقدار ما جمعناه من مال فإنه ليس لدينا ما يكفى ، وعندما نتحقق أنه حتى مع كثرة الرواج الذى نعطيه قيمة كبيرة فإننا مازلنا فقراء للغاية ، وقتها نكون مستعدين لأن نبدأ الحديث إلى الله ، وليس قبل ذلك . فالإيمان يعنى المراهنة على حياتنا التى نلقيها على نعمة الله .

لقد أخبرنا كاتب سفر ملوك الأول بأن وعد إيليا للأرملة الفقيرة قد تحقق ، وأن أرملة صرفة لم تمت جوعاً كما كانت تتوقع . لكن العهد الجديد لم يخبرنا عن ما حدث للأرملة الفقيرة التى

رآها يسوع وهي تلقى الدرهمين فى خزانة الهيكل . إننا نريد أن نقنع أنفسنا بأن الأحوال سارت على ما يرام بالنسبة لها ، غير أننا لم نقرأ عند ذلك وهذا هو العهد الجديد . يواجهنا بوعد من العصور القديمة ومخاطرة للأيام الحالية ، وهذا ما يفسح مكاناً ومجالاً لإيمان ، فليس لدينا ما يمنع بأن نؤمن أن الله يقدر أن يعول هؤلاء النساء الفقيرات . لكن هل سيعتنى بنا ؟ .

إنه لمن الأهمية ألا نقدم إجابات تعيد الطمأنينة والتأكيد على هذا السؤال بغاية السرعة . فإن إيماننا هو فى شخص ومحبة الله . ولكنه ليس مقيَّداً . ولا هو قابل أيضاً للتنبؤ به . فإن وعد الكتاب المقدس هو أنه حقيقة سوف يخلص حياتنا ، إلا أن ذلك قد يكلفنا كل شئ ثمين لدينا .

لقد اكتشفت أن سفر أيوب هو سفر مزعج ومقلق للفكر . فإننى بلا شك متأثر لما حدث له ، ولكن ما هو مقلق ومزعج للفكر إلى حد بعيد هو تصوير السفر لله . فقد كان أيوب رجلاً باراً « كاملاً ومستقيماً يتقي الله ويحيد عن الشر » (أى ١ : ١) وكان ذات يوم ، ليكشف بوضوح عن نقطة أساسية للشيطان ، أن سمح الله بأن يخسر أيوب كل ما كان له . حتى إنه بعد أن خسر أملاكه وثروته وأولاده ثم صحته ، يأبى أيوب ويرفض أن يلعن الله ويجدِّف عليه . إلا أنه لا يفهم أفعال الله التحكمية الجبرية . ولا أنا أيضاً . لماذا جُرِّد هذا الرجل البار وحُرم من كل شئ كان يقيمّه ويقدره ؟ ما الدرس أو العبرة التى يمكن أن تتساوى مع هذا الثمن العظيم ؟

إن سفر أيوب ليس هو الحدث الوحيد من نوعه فى الكتاب المقدس حيث يظهر فيه الله متجبراً متحكماً . إذ يخبرنا كاتب سفر أعمال الرسل فى الأصحاح الثانى عشر بأنه قد قُبض على بطرس ويعقوب فى وقت واحد تقريباً . وقد أُنقذ بطرس من السجن بواسطة ملاك الرب ، غير أن المخلص قد سمح لهيرودس أن يقتل يعقوب . وليس هناك أى تفسير لهذه الحادثة يقدمه كاتب السفر . لماذا قُبلت تقدمة هابيل لدى الرب وأما إلى تقدمة قايين لم ينظر الرب ؟ لماذا قسَّى الله قلب فرعون عوضاً عن أن يلينه ؟ لماذا اختار يسوع هؤلاء الرجال بالذات ليكونوا تلاميذه ؟ لماذا أُقيم لعازر من الموت بينما لم يُقم يوحنا المعمدان ؟ لقد كان يسوع نفسه هوالذى ذكَّرنا بأن الله يجعل الشمس تشرق على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين (مت ٥ : ٤٥) . إننا نميل إلى أن يكون الله أكثر عقلانية إلى حد ما .

إن القارئ لسفر أيوب يعانى متألماً خلال سبعة وثلاثين أصحاحاً من مراثى أيوب وأفكار أصحابه غير المفيدة ، قبل اكتشاف شئ ما كسبب ومبرر لآلامه ومعاناته . والسبب المفترض لا يعطى جواباً حتى عن السؤال الذى يقول من الذى وضع أساسات الأرض ومن هو الخالق ، دون فهم . وبعبارة أخرى عندما يحين الترك والحرمان من كل شيء ، نستطيع أن نسأل ، لماذا ؟ ولكن الجواب الذى سوف نحصل عليه قد يكون : مَن ؟ ومن المذهل بأن هذه الإجابة بدت لتجيب على مخاوف أيوب وعلى كل ما يقلقه . فقد بدأت القصة بسؤال أيوب لماذا كان إلهه المربك المحيِّر متجبراً للغاية ، ثم انتهت القصة بإدراكه وإعجابه الجديد بسر الله .

ربما أجد فى أيوب قصة مزعجة تحدث كثيراً فى الكنيسة التى أخدم فيها . فليس لدينا عجز فى الصالحين الذين يختبرون تنازلات خطيرة وترك كثير من الأشياء ، وليس من يستطيع أن يفسر السبب . إن دوج Daug هو مثل طيب ، ليس لأن قصته تعتبر قصة مثيرة فى أحداثها بشكل واضح ، بل لكونها مثال توضيحى للتخليات عن النجاح التى تعتبر عادية تماماً .

كان دوج قد نشأ وتربى فى بيت مسيحى ، وقد كان والده رجل أعمال مسيحى مؤمن يتمتع بمكانة رفيعة سامية وكان دعامة من دعامات الكنيسة . وبعد ما تخرج دوج من الكلية مباشرة ذهب ليدير شركة والده للبناء والإنشاءات . وقد كان الأب يذكّر دوج دائماً أن يكون عاملاً مجتهداً ومثابراً ، وقد كان سعيداً لأن يعرف بأنه يوماً سوف يدار مشروع البناء والإنشاءات بواسطة ابنه.

كان الأب قد أنشأ الشركة على اعتبار أنها عمل أو مشروع محلى صغير ومتواضع ، لكن دوج استطاع أن يرى فى المشروع الصغير المتواضع إمكانية ضخمة للتوسع والامتداد . فقد عمل الاثنان معاً سنوات عديدة ، ثم كبر العمل وتطور بالتدريج وحقق نجاحاً اقتصادياً . ثم شاخ الأب أخيراً ، وأسند مسئولية العمل إلى دوج ، مع تحذيره بألا يخسره . ولقد أحب دوج أباه حباً جماً ، وقد كان متلهفاً لأن يظهر بأن وديعة أبيه والثقة التى ائتمنه عليها كانت فى موضعها الصحيح .

استمر مشروع البناء والإنشاءات تحت قيادة دوج المقتدرة البارعة لينمو ويتسع . وبمرور الأيام مات والده ، وقد كانت الشركة مشتركة فى مشروعات تقدر قيمتها بعدة ملايين من الدولارات التى كانت تنشئ ناطحات السحاب فى العديد من المدن الكبرى . وقد كان على دوج أن يشترى

شركة طيران خاصة به وأن يستأجر طيارين لمجرد أن يحافظ على مواعيده وارتباطاته ، فيستمر العمل دون انقطاع . وعلى الرغم من أنه كان يجاهد ويكافح لبناء الشركة إلا أنه كان أول من يقول بأن الله قد باركها . وبإحساس غامض نجد بأن هذا الإقرار والاعتراف بالامتنان والشكر قد زود الجهد والضغط على دوج ليدفعه لأن ينجح كوكيل أمين مخلص على هذه البركات التى من عند الله .

ولأنه لم يكن موفقاً فى حياة التكريس الشخصية لله كما كان فى العمل ، فقد قطع دوج عهداً على نفسه ليحيا حياة صلاة وتضرع على نحو أفضل . فقد كان هدف طفولته المبكرة بأن يكون له وقت للصلاة اليومية . وفى التاسعة والأربعين من عمره صار ذلك الهدف واقعاً بالنسبة له . ولم يكن متأكداً لماذا كان هذا الوقت التعبدى المكرس للصلاة مؤدياً إلى النتائج المرجوة ، غير أنه قبِل هذا الأمر على اعتبار أنه عطية من الله أيضاً . وقد انضم مع جماعة صغيرة للصلاة الأسبوعية مع مجموعة أخرى من رجال الأعمال المؤمنين . فقد كانت تلك هى الحياة التى كان يتطلع إليها منذ أن كان شاباً ناشئاً، فقد كان رجل أعمال مسيحياً ناجحاً .

وفى صلاته ، بدأ دوج يطلب بأن تأخذ حياته اتجاهاً جديداً . ولم يكن متيقناً ما الذى كان يعنيه ذلك الأمر ، غير أنه كان قد اكتشف بأن بركات الله صالحة ، وأنه أراد أن يكون منفتحاً مرحباً بالعطايا القادمة التى سوف يأتى بها الله فى حياته . وقد استجيبت صلواته . وقد حان الوقت بالنسبة إلى دوج أن يكتشف الكثير عن إلهه عن ما كان يريد أن يعرف .

وبعد أن بدأ دوج هذه الصلوات بقليل حدثت تغيرات فى قوانين الضرائب أدت إلى مشكلة خطيرة لعمله الإنشائى المتسع بصورة هائلة . وقد كان ذلك فى نفس العام الذى فيه أنهى الحريق تماماً على بيته فى كندا والذى كان منتجعاً له فى عطلته . وقد كان ذلك أيضاً نفس العام الذى اكتشف فيه دوج أن ابنه الأكبر كان مدمناً للمخدرات .

ويوماً فيوماً بدأ المشروع البنائى الإنشائى الضخم يتهاوى . وقد زاد من الألم رؤيته للتدهور الاقتصادى المحتوم . وقد جرَّب كل شئ ، غير أنه لم يكن هناك مفر عن توقف النشاط الخاص بمشروعه الإنشائى . وذات يوم وبعد سنوات من الصراع والكفاح الشاق ، وبعد سنوات من تصفية المشروع تدريجياً ، كان كل شئ قد انتهى . فقد تم تصفية وبيع شركة الطيران ومكتب شركة البناء والإنشاءات وقصره الضخم .

كان دوج ، خلال هذه الفترة ، يسهر أيضاً على مداواة وعلاج الأسرة بسبب إدمان ابنه للمخدرات . فقد علمته قدراً كبيراً وغير محدود من الدروس فيما يختص بمحدودية مقدرته رغم العمل الشاق . فهو لم يستطع أن يعدِّل من وضع أعماله الإنشائية ، ولم يستطع أيضاً أن يقوِّم ابنه ويصلح من شأنه . لكن ما كان يزعجه ويقلقه إلى أقصى حد هو أنه لم يستطع أن يحدد إلهه ويعدِّل في وضع ما لكي ما يجعله عقلانياً ومنطقياً في تفكيره . لِم كان يحدث كل هذا ؟ فقد بدأ الأمر نوعاً من التحكم والجبرية .

وبعد كثير من الغم والكآبة والمعالجة ، كان ابن دوج قد أقلع عن إدمانه للمخدرات . غير أن دوج كان حائراً بسبب شفاء ابنه تماماً كما كان منحيراً بسبب إدمانه للمخدرات . فإن أناساً آخرون لا ينجون من المخدرات وسلطانها عليهم . فلماذا انتصر عليها ابنه ونجا منها ؟ ترى هل عزم الله على أن يخلصه ؟ لماذا ؟ ففي خلال هذه الفترة كانت زوجة واحد من جماعة الصلاة الذين كانوا يصلون من أجله قد ظهر عليها مرض السرطان وماتت بسرعة عاجلة . فالأمر لا يكون معقولاً أو مفهوماً بأنه لابد لامرأة رائعة عظيمة مثل هذه أن تموت بينما آخرون كان يعرفهم ظلوا على قيد الحياة بنفس المرض . إذاً قد كانت هناك صعوبة في تفسير وبيان الأسباب التي أدت إلى إفلاس أعماله الإنشائية . فقد قلَّب الأمر وفكر فيه أكثر مما ينبغي . ربما حاول باجتهاد بالغ للغاية ، وربما قد ترك الشركة لأن تتفوق من تلقاء ذاتها . غير أنه لم يجد سبباً واحداً يبرر لماذا فشل عمله وكفاحه الشاق .

إن نجاح دوج أخذ يتخلى عنه منذ ثمان سنوات مضت . وقد واظب خلال هذه السنين على أن يستيقظ مبكراً كل صباح ليقرأ الكتاب المقدس ويصلي ، ثم يصارع أحياناً مع إلهه . ولم يتلق أبداً إجابة واضحة فيما يتصل بسبب فقدانه العمل الإنشائي ، إلا أن هذه الأيام التي تعد أقل أهمية بالنسبة له ، فقد تعلم فيها أن يقيِّم علاقته بالله التي كانت قد ازدادت عمقاً للغاية منذ أن بدأ يتكلم إليه كثيراً جداً . فإن كانت رغبته هي فقط تفسير طرق الله ، لظل مجبراً لأن يقول بأنها تحكمية جبرية ، لكنه شعر بأن أسرار الله كانت تجتذبه دائماً ليكون أقرب إلى مخلِّصه . والأمر يبدو في أن الفرق بين تحكم الله وتجبره ، وبين الإله الغامض يتوقف على عين من يلاحظ الأمر .

ففى ختام قصة أيوب كانت ثرواته وكل ما كان له قد رُدت إليه مضاعفة . إننا لم نصل إلى ختام قصة دوج ، غير أنه لا يبدو أن ذلك سوف يحدث له . إن دوج يفقد الاهتمام فى أن يكون صاحب عمل تجارى عظيم . فقد تحول إلى الاهتداء إلى الإيمان الذى قدمه له الله .

فعندما تنشر المجلة المحلية قائمة سنوية بأسماء أكبر رجال الأعمال تأثيراً ونفوذاً فى المجتمع، فإن اسم دوج لم يعد يُدرج فى هذه القائمة . فقد كان فى الماضى لا يستطيع محرر تلك المجلة حتى أن يحدد موعداً للقاء صحفى معه . وأما الآن فإن دوج والمشروع الإنشائى الصغير الذى يديره يعتبر مشروعاً لا تأثير له بجانب نظرائه السابقين الذين واصلوا عملهم ومشروعاتهم بنجاح . إنه يعترف بأن ذلك يؤلمه ، ولكنه عندما يضيف الخسائر يجد أن هناك بنوداً فى حياته تتضمن أشياء ذات قيمة أعظم بكثير عما قد خسره . فقد خسر مشروعه ، ومقداراً كبيراً من الثروة وخسر احترام وتقدير بعض زملائه من كبار رجال الأعمال وأيضاً الأمل فى تسليم المشروع الإنشائى إلى أبنائه كما فعل والده معه . لقد تخلى عن الصورة السابقة لإله يبارك عبيده المخلصين الأمناء بالنجاح وينقذهم نن الأسى والألم . غير أنه فقد أيضاً الحاجة لأن يجتهد ويكافح لكى ما يثبت جدارته وكفاءته لأبيه وإلهه أيضاً .

إن ما قد اكتشفه دوج هو الدعوة الجديدة وهو الهاتف الداخلى الذى يدعونا لأن نحب إلهنا ، الذى يخلصنا من كل الأشياء التى نعملها لتجعلنا جديرين بالحب الذى يمكن الحصول عليه عن طريق واحد فقط وهو قبوله . وإذ قد اكتشف هذا الحب المذهل فها هو يكتشف الآن أنه أيسر له أن يقدمه إلى من حوله . فإن علاقاته بزوجته وجميع أولاده ، بما فى ذلك ذاك الذى كان بحاجة إلى نوع ما من الحب القوى ، قد نمت وتطورت بأكثر عمقاً من تلك الأيام التى كانت نجاحات دوج متحققة خارج نطاق البيت . وقد كانت من أعظم أفراحه أن يكتشف أن الله قد كان لديه هدف وقصد لكل تلك السنين فى عمل البناء والإنشاء. فقد كان دوج واسطة فى بداية تكوين نقابة متطورة مع كنيسة أفريقية أمريكية فى المدينة ، ثم استمر يعطيها قدراً كبيراً من الوقت ، الذى عليه الآن أن يعطيه . إن الاهتداء الذى يحدثه الله فى حياتنا يظهر ذاته دائماً فى شغف ورغبة إلى إرسالية المسيح فى العالم من حولنا ، ولا شىء يتبدد أو يضيع أبداً .

لقد قال لى دوج مؤخراً إنه يؤمن الآن بأنه عندما يحملنا يسوع إلى مكان ما قد لا نريد فى الواقع الذهاب إليه ، فهو بحق مكان أفضل . لكن إدراك حقيقة ذلك هو عطية لا ننالها إلا فيما

بعد ، عندما نرجـــع بأفكارنا إلى الماضى ونتذكر ما كنا عليه مقارنة بمن نكون الآن ، بل وأهم من ذلك ، من كان الله فى رأينا مقارنةً بإله كان غامضاً لكننا نعرفه الآن كمخلص .

حرية أن يكون لك إله غامض :

منذ أيام الخروج من أرض مصر ، نجد أن من أصعب الأمور قبولاً بالنسبة لشعب الله هو أن لهم إلهاً طرقه ليست طرقهم . ولأجل هذا السبب جُرِّب الشعب العبرى ذات يوم بأن يكون لهم إله من خشب ومن حجارة يكون قابلاً لأن يُتنبأ به ومألوفاً . وأما فى هذه الأيام فقد يتحول الناس إلى آلهة القوة والغنى والثروة لنفس السبب ، لأننا نفهم هذه الأصنام . إن أفضل شئ ، نفكر فيه بخصوص هذه الآلهة هو أنهم يتوقعون منا أن نبذل جهداً لنسهم به للحصول على خلاصنا نحن . ولكن لا شك بأن ذلك يعنى بأنها ليست آلهة على الإطلاق ، لأن الإله الحقيقى لا يمكن أن يكون معتمداً على جهد وعمل خلائقه .

ولما أعطى يهوه الرب اسمه للعبرانيين على جبل سيناء قال لهم : « أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر » (خر ٢٠ : ٢) . فقد كان الإعلان عن الاسم فى الثقافة العبرية هو أن تصف شخصية وخُلق صاحبه هو . فإن اسم الله يعنى المنقذ أو المخلص . وبالتالى إذا اتخذنا اسم الرب بغير إجلال واحترام ، فمعناه أننا لا ندعه بأن يكون إله خلاصنا .

فى كل مرة نظن أنه يمكننا أن نجد الخلاص فى عملنا الشاق نكون فى خطر مميت ، فإذا ما عجز عملنا الشاق وجهادنـــا - والأسوأ- إذا أفلح ، فإننا نكون ملزمين أنفسنا بإله ومتقيدين به . وهذا يعنى بأننا قد قدَّرنا مصيرنا فى الترحال فى برية الحياة مفترضين بأن الحل لكل مشكلة هو أن نحاول بذل مزيد من الجهد .

إن من يقضون حياتهم بدون مخلص غامض خفى وبدون أن يشعروا أنهم لا يستطيعون أن يفهموا دائماً ، يعيشون بدون أى إحساس بالرهبة أو الدهشة بالنسبة لحياتهم . فلا شئ يحرك لهم ساكناً ويذهلهم أو يدهشهم أو يربكهم ويقهرهم لأن عالمهم صغير جداً بالنسبة لله لأن يكون أهلاً للتحرك فيه . إنه عالم كئيب بصورة مرعبة حتى إنه لسوء الحظ قد صار مكتظاً ومزدحماً تماماً فى هذه الأيام . لكننى قد اكتشفت من جديد مراراً وتكراراً بأن الله يحبنا حباً كبيراً أكبر من أن يسلمنا إلى ذلك العالم . وسوف يأتى باحثاً عنا كما فعل ذلك لبنى إسرائيل فى أرض العبودية فى أرض مصر . وعندما يجدنا ، سوف يحررنا من أى شئ كان قد أبقانا فى العبودية لاسيما نجاحنا .

الفصل الخامس

متروك من الصحة

إن الله لم يصر إنساناً لكى ما نصبح نحن آلهة ، بل لنصير نحن بشراً بكل ما تعنى الكلمة من معنى ، فالانكسار ليس ضرورياً فقط لنكون بشراً ، بل إنه أفضل فرصة لكى نحيا مع مخلص . ولهذا فإن الشفاء الذى يقدمه يسوع له دور بسيط للتحقيق فى أحلامنا فى أن نكون أفضل .

السقام والأمراض التى تعطينا حياة :

جلس « جون » على مكتبه وأخذ يحدّق فى التليفون . فقد كان يعلم بأنه قد كان عليه أن يجرى مكالمة تليفونية ، غير أنه لم يستطع أن يجرى هذه المكالمة . وأخيراً التقط سماعة التليفون وأدار القرص للاتصال برقم معين ، إلا أنه أعاد السماعة بسرعة إلى موضعها قبل أن يسمع رنين التليفون ، ودفن وجهه بين يديه بينما كانت الدموع تغمر عينيه .

« جون » أستاذ جامعى فى منتصف العمر يقوم بتدريس مادة الفلسفة فى جامعة لها مكانتها . وهو يعانى من مرض السرطان . إذ قد انتشر السرطان فى كل جسمه . والمكالمة التليفونية التى كان يحاول أن يجريها كانت لأولاده الكبار . وقد كان بإمكانه أن يطلع زوجته وأصدقاءه المقربين إليه دون أن يشعر بالإنكسار ، بل إنه حاول أيضاً أن يواسيهم، غير أن خطورة الحالة صدمت الأسرة عندما حاول أن يخبر أولاده بأنه على وشك أن يموت .

إنه لأمر مغرٍ لأن نظن بأننا الإله الذى يرعى أولادنا . إذ نحن نفترض بأننا مسئولون عن مولدهم . ونعطيهم الأسماء ونربيهم ونخصّهم بالحب ، ونعولهم ، ونضع القواعد بالنسبة لسلوكهم ، ونفسر لهم الحياة . كل ذلك يشير ويبدو وكأنه عمل إله . وذلك هو السبب الذى من أجله لا يقدر أحد أن يؤلمنا مثل أولادنا بعد ما يكتشفون أن أقدامنا قد وقعت فى الوحل .

من المؤكد أن كل ولد يعرف أن الوالدين ليس لديهما كل الإجابات على جميع الأسئلة ، أو أن الأسرة تواجه بعض المشكلات ، أو أن الوالدين يواجهان أموراً مربكة ومعقدة للغاية . تلك هى

إننا دائماً نوضح ذلك الأمر بأن الشافى الوحيد هو يسوع المسيح ، وأن الرعاة وشيوخ الكنيسة موجودين لا للعمل السحرى بل للصلاة لأجل الناس والإتيان بهم إلى مخلصهم . غير أنهم لا يزالون يأتون إلى الكنيسة . ونحن نسمع ذلك كله من جانب أولئك الساجدين الذين أصيبوا بأمراض الإيدز والاكتئاب والإفلاس والقلوب التى لا تعمل ، والأولاد الذين يعانون الضيق والاضطراب والشعور بالإثم إلى أقصى حد . والأمر الذى يدعو للدهشة هو أن معظم هؤلاء الناس يبدون فى الظاهر فى صحة جيدة إلى حد بعيد . وأما فى الباطن فهم مرضى يتطلعون إلى مخلص.

كثيراً ما نصلى ونصلى لأجل المرضى ، فقط لأننا نلاحظ بأن صحتهم تصل إلى حال أسوأ . ففى أول مرة أقود خدمة من تلك الخدمات التعبدية ، تقدمت إلىَّ سيدة وطلبت منى أن أصلى من أجل الشفاء من التهاب فى مفاصلها والذى أصابها بالعرج . وقد صليت وتضرعت من كل قلبى لأجلها فى تلك الليلة . ثم جاءت بعد ذلك فى ذلك العام مخترقة ممر الكنيسة مستخدمة عكازاً . ثم جثت على ركبتيها أمام الله ، ثم صليت مرة أخرى وطلبت بأن يشفيها الله من هذا المرض . وبعد ستة شهور سارت وسط صفوف الكنيسة على كرسى المقعدين . فى هذه المرة جثوت أنا وشيخ الكنيسة أمامها طالبين من الله أن يشملها برحمته ورأفته ، وبعد ما انتهيت من الصلاة ، ابتسمت ابتسامة مشرقة للغاية وقالت « إن الله رحيم أيها الراعى . أشكر الله فقد شفى قلبى الذى اعتاد أن يكون قعيداً مشلولاً بسبب الغضب والانزعاج . وأخيراً وبعد طول انتظار أنا امرأة حرة ». ومرة أخرى تعلّم الراعى شيئاً آخر عن النعمة الحاصلة من تنازلات أبناء كنيسته. فلم يكن جسدها أبداً هو سبب قلقها وانزعاجها ، بل كان قلبها المنزعج دائماً . إلا أن قلبها لم يهدأ إلا عندما توقف جسدها تماماً عن العمل وأقعد ، وهنا بدأ قلبها يعمل .

لو أننا قلنا الحقيقة ، لأقر كل واحد منا واعترف بأننا ننتمى إلى ذلك الصف من منسحقى القلوب الذين يأتون إلى الكنيسة يطلبون الشفاء والرجاء والخلاص والمبررات التى تدعوهم إلى أن يواصلوا الذهاب إلى الكنيسة أسبوعاً آخر . ونحن نكتشف كل هذا بنعمة الله ، وهى تأتى دائماً وباستمرار ، وليس كما رجونا أو توقعنا ، لكوننا لا نرجو أبداً رجاءً عظيماً إلى درجة كافية . فعندما يحدث شفاء الله ويتحقق ، يمتد إلى جروح وآلام عميقة ، الآلام التى غالباً لم نكن نعلم بأننا قد عانينا منها .

جميعاً بأن حياتهم لا تتقدم وترتقى كما خططوا لها . ومع ذلك فإن كل عضو فى هذه الجماعة المتميزة قد يؤكد بأن حياتهم لم تكن كذلك إلى أن فارقتهم الصحة الكاملة حتى إنهم اكتشفوا كيف يقدّرون هذه العطية العجيبة الرائعة التى تدعى الحياة .

إن من يعانون من مرض السرطان ليسوا واهمين أبداً أو خياليين بخصوص هذا المرض . فهم يشعرون بمدى قسوة المرض ، أغلب الظن ما يكون السبب هو من العلاج أكثر من المرض نفسه ، إنهم ليسوا سعداء فهم يعانون من مرض السرطان ، وهم لا يتمنونه لأى إنسان آخر . ولكنهم لو كانوا قد اعترفوا بأنهم يعانون من هذا المرض المرعب وأنه لن يفارقهم بسهولة ، عندئذ تتغير نظرتهم إلى الحياة باستمرار . فإن كل يوم يأتى على اعتبار أنه عطية ، فلا أحد يعيش لأجل الغد ، ولا تتخذ العلاقات أبداً المكان الأخير بالنسبة للعمل . فالعمل حرفة أو مهنة نواصل السعى فيه ، لا لكى يكون منتجاً بل لأجل الفرح بالعمل . وإنه لأمر فى غاية الأهمية بالنسبة لمن يعانون من مرض السرطان أن يخبروا الناس كيف يشعرون .

نستطيع القول ، بأن من أحد إحباطاتهم الشديدة هو أنهم أصيبوا بمرض السرطان الذى أجرى هذه التغييرات فى حياتهم . والإحباط الآخر هو أنهم لا يقدرون أن يقنعوا أحباءهم الأصحاء المتاضلين الكادحين فى أعمالهم بأن كونهم منتجين ليس هو الطريق الصحيح لإنفاق الحياة والتضحية بها .

الصلاة لأجل الشفاء :

يجتمع رعاتنا وشيوخنا صباح كل يوم أحد بعد العبادة فى الكنيسة للصلاة مع من هم بحاجة إلى الشفاء . وأحياناً نقدم خدمة تعبدية مسائية تتناول بشكل واضح تعليماً كتابياً عن الشفاء ورفع الصلوات لأجل من هم بحاجة إلى الشفاء . هذه الخدمات التعبدية المسائية هى شئ جميل . فهناك ثلاثة راكعين ساجدين فى مقدمة الكنيسة . ويقف خلفهم ثلاثة رعاة وثلاثة شيوخ . وأمامنا تقف صفوف طويلة من الناس الذين ينتظرون لأجل الصلاة . إنه الموكب العظيم لجسد المسيح المنسحق المنكسر . فالكثيرون موجودون هناك بسبب الصحة الضعيفة . وآخرون قد أتوا للصلاة من أجل أمور أخرى محطمة وغير سليمة مثل عهود الزواج أو القلوب التى كانت قد تمزقت من الحزن والأسى .

العيوب التى نتوقع أن يكتشفها أولادنا ويواجهونها عندما يصبحون أفراداً مستقلين بذواتهم . ولكن حتى بعدما يتركون البيت ويبدأون حياتهم العائلية الخاصة بهم ، لايزال علينا أن نخفف من الأسطورة القائلة بأننا أكثر من بشر فى عيون أولادنا. إلا أنك عندما تخبر ابنك بأنك على وشك أن تموت فمعناه أنك سوف تمزق الأسطورة وتحطمها . لم يكن جون يصارع فيما يتصل بالأسلوب الذي يبلغ به الأبناء الأخبار المزعجة وغير السارة . فى هذه المكالمة التليفونية كان يعترف أمام نفسه بأنه مجرد إنسان على وشك أن يموت { كما هو أمر محتوم على جميع البشر } لكونه كان يعانى من مرض لم يستطع علاجه .

لقد أصبح جون أستاذاً لمادة الفلسفة لأنه يعتقد أن تعليم الناس كيف يفكرون تفكيراً منطقياً قد يوجِد عالماً سليم العقل . فإن ظهور مرض السرطان وانتشاره في جسمه هو أمر يدعو للسخرية بصورة مؤلمة بالنسبة له لأنه عبارة عن مرض جنونى . إذ يُفقد الجسم صوابه حتى يهاجم نفسه عندما تدمر بعض الخلايا بعضها الآخر على نحو عشوائى . فليس هناك تفسير فلسفى مقنع بالنسبة لمرض السرطان .

كان جون يعمل جاهداً لأن يكتسب شهرة من ناحية مهنة التدريس ، ظاناً بأنه لو كان متعمقاً فى تدريسه وكتاباته فقد يكسبه بدون شك مكانة فى قلوب أولئك الذين يعجب بهم . وبعد ما انتشرت أخبار مرضه بالسرطان ، اكتشف بأنه لا يوجد من كان يريد أن يتكلم عن عمله الأدبى وكتاباته الفلسفية المؤثرة . وعوضاً عن ذلك فقد كانوا يريدون أن يتكلموا عن كيف كان مؤثراً فى حياتهم . إن جون لا يزال عاجزاً عن أن يؤمن تماماً بأن الشخص وليس (العمل الأدبى والفلسفى) الذى أكسبه احترام من كانوا حوله .

وبعد اكتشافه لمرضه الخطير ، كتب جون قائمة بكل الأشياء التى كان يريد أن يعملها ، الأماكن التى كان يود الذهاب إليها والأشخاص الذين كان يود أن يراهم قبل أن يموت . وطوال العامين التاليين أخذ يسافر هنا وهناك بقدر ما استطاع ، وكان يتكلم إلى كل إنسان أحبه . فقد كان اختباراً مفيداً ، إذ كان فى الواقع أفضل اختبار لحياته . وكان الجانب المحزن الوحيد هو الإدراك المتواصل بأنه كان بإمكانه القيام بذلك طوال الخمسين عاماً قبل أن يصاب بالمرض .

إن جون هو واحد من الكثيرين من أعضاء الكنيسة الذين يعانون من مرض السرطان . إنهم عبارة عن جماعة متميزة من الناس تشد أفرادها إلى بعض وحدة فى المصلحة ، والذين يكتشفون

اتريد أن تبرأ ؟

يحكى المؤرخون أسطورة عن بركة في بيت حسدا . وبحسب ما جاء في هذه الأسطورة ، حيث يُقال أن ملاك الرب كان ينزل إلى البركة من حين إلى آخر ويحرك الماء . فكان الذى ينزل إلى مياه البركة أولاً ، بعدما تكون مياه البركة قد بوركت ، يُبرأ مهما كان المرض . فقد كانت الأسطورة بمثابة معتقد يسيطر على عقول الناس على نحو شائع . وقد وردت أيضاً فى إنجيل يوحنا .

وذات يوم وبينما كان يسوع ماراً بجوار البركة رأى مريضاً مقعداً كان قد انتظر عند هذه البركة منذ ثمان وثلاثين سنة (يو ٥ : ٢ - ١٥) . وكم من مرة حاول ليكون أول من ينزل إلى مياه البركة ، ولكن لم ينزل فيها أبداً لأنه لم يكن هناك من يساعده ليلقيه فى مياه البركة ، . ثمان وثلاثون سنة من المحاولة للنزول إلى مياه البركة . ثمان وثلاثون سنة من التعهد والتسليم لنفس الخطة من أجل الشفاء .

لأننا بشر ، نستطيع القول بأن جميعنا نتناول موضوع الانكسار والضعف بالبحث والدراسة . فالبعض يتناول بالبحث والدراسة موضوع الأجساد الضعيفة الواهنة ، وآخرون يتناولون العلاقات المنفصمة ، والقلوب المنكسرة ، والأحلام والآمال المبددة أو الأرواح المنسحقة . معظمنا يستخف بهذه المشكلات . إذ نقول لأنفسنا إنها ليست بهذه الضخامة . فقد تعلمنا أن نلهى أنفسنا وننشغل بالعمل . غير أنه فى أكثر لحظاتنا أمانة وشجاعة قد يسلم كل منا ويقر بأنه ربما يكون من الصالح والمفيد ، ولو مرة واحدة ، أن نكون أول من ينزل إلى مياه البركة . ربما نميل بأن يكون لنا ملاك يصلح كل ما هو مكسور .

وعلى الرغم مما قد يكون عليه ضعفنا من وضوح ، فإن معظمنا يتعامل معه بنفس الطريقة التى تناول بها مقعد بركة بيت حسدا مرضه . فقد سمعنا حكايات عن ما يجب أن نقوم به ، ولدينا خطتنا لأن نصل إلى الأفضل . قد نكون غير مستقرين على الخطة (أ). لكن معظمنا لديه شئ ما يجرى حتى إننا على يقين بأن كل شئ سيكون على ما يرام ، ويزيل الألم ويعطينا الأمل والرجاء .

وقد تخلى البعض منا عن العمل بالخطط الموضوعة لأجل أنفسهم ، اختاروا الآن أن يعالجوا

الآلام والجروح الشخصية بأن يضعوا خططاً لأولادهم . ليعينهم الرب . فعندما كانت ابنتنا فى الخامسة من عمرها تقريباً ، كنا نتلهف أن نراها ترقص الباليه لأول مرة ، فقد كانت واحدة من الخمسين الفاتنات المحبوبات إلا أنهن لم يكنّ راقصات موهوبات بشكل بارز . ففى ختام أداء الرقصة الموسيقية الممتعة ، سمعت مصادفة أحد الآباء يقول لزوجته « حسناً يوجد دائماً أوجه نشاط أخرى ».

فإذا لم تفلح خطة ما ، فما عليك إلا أن تجرب خطة أخرى . اجتهد وثابر ، وحاول أن يكون لك علاقة جديدة ، وتحرك جديد لتحقيق الهدف وعمل أو وظيفة جديدة . ربما يتطلب الأمر بأن يجئ الوقت لتعود إلى المدرسة . فهناك العديد من الخطط للنزول إلى المياه الشافية . ومن المؤكد بأن هذه الخطط سوف تنجح ربما فى أى يوم من هذه الأيام ، ولكن أعظم الخطر بالنسبة لخططنا هو أنها تعمينا عن حضور الله . فعندما يمر يسوع الشافى ربما لا نتعرف عليه ونميِّزه على اعتبار أنه مخلصنا . « هذا رآه يسوع مضطجعاً وعلم أنه له زماناً كثيراً فقال له أتريد أن تبرأ » (يو ٥ : ٦) . ترى لماذا سأل يسوع هذا السؤال ؟ من المؤكد أن الرجل يريد أن يبرأ . فقد كان يحاول منذ سنين . ولكن هناك فرق بين كوننا مهتمين قلقين فيما يتصل بضعفنا وانكسارنا وبين رغبتنا فى الشفاء .

وبعد فترة وجيزة يمكن أن نصبح متعودين للغاية بالنسبة للألم حتى يصبح أعظم رفيق موثوق به فى حياتنا . وبعد فترة وجيزة يمكن أن نكتشف معنى عظيماً للألم لدرجة أن الشفاء يسبب لنا الارتباك . لقد وصف « سى.س.لويس » C.S Lewis هذا الأمر كالسقاية الخشنة التى نضعها على كتفينا ، إنها تؤلمنا كل الوقت ، إنها تهمس فى آذاننا بالأمور المرعبة والمروعة للغاية . غير أننا لا نستطيع أن ندع الله يطرحها عنا ، لان السقَّاية الموضوعة على كتفينا قد أصبحت وكأنها الطفل المدلل المحبوب لدينا ، وهو الأمر الوحيد الذى نعتبره ونقيم له وزناً . لذلك فإن سؤال يسوع يستمر بإصرار قائلاً « أتريد أن تبرأ ؟ أتريد بحق أن تبرأ ؟ » . أجابه المريض يا سيد ليس لى إنسان يلقينى فى البركة متى تحرك الماء ، بل بينما أنا آت ينزل قدامى آخر » (يو ٥:٧) . فلو لم يتدخل يسوع فى حياته فإن الرجل كان على وشك أن يقترح على يسوع أن يشكل لجنة لتضع نظاماً يعمل بطريقة أكثر عدالة وإنصافاً ليضمن بأنه سوف يأخذ دوره للنزول إلى البركة متى تحرك الماء .

ولكن « يسوع قال له قم احمل سريرك وامشِ فحالاً برئ الإنسان وحمل سريره ومشى » (يو ٥ : ٨ - ٩) . إن يسوع لم يساعد الرجل المريض بخطته وطريقته لينزل إلى البركة ، لم يجعله يتزوج أو يطلق . لم يهيئ له عملاً أو وظيفة جديدة تعطى أجراً أفضل . ولم يقيمه وسط أصدقاء . فهو لم يفعل أى شئ يمكن أن يصرف انتباه الإنسان عن انكساره وضعفه . فإن ما عمله يسوع هو الشفاء .

إن البعض منا الذين يعانون من ألم جسدى بحاجة إلى أن يتذكروا بأن شفاء يسوع لا يعنى بالضرورة استعادة الصحة الجسدية . فقد دُعينا بأن نصلى من أجل هذا الأمر ، إلا أنه ليس أمراً موعوداً به . إذ أن هناك فارقاً كبيراً بين الصحة الجسدية والشفاء . لقد قمت بدفن عدد كبير من أبناء كنيستى الذين كانوا يعانون من أمراض مروعة بغيضة ، غير أنهم رقدوا وقد شُفوا من آلامهم .

إن الكتاب المقدس يعد بأن يسوع سوف يشفى سقم أرواحنا . إنه يشفى الجروح العميقة التى تؤلمنا ألماً متواصلاً على ما فعلناه ، ألماً على توقعات وانتظارات الحياة التى لم تأت متطابقة طبق الأصل حسبما توقعنا ، ألماً على الخلل والانقسام الذى أصاب عائلاتنا . إن يسوع هو المخلص الذى يواجهنا فى غمرة خططنا وتدبيراتنا التى لا فائدة لكى تمنحنا حياة أفضل ، إنه يدعونا لأن ندرك بأنه معنا . فالخلاص هو قضيته وشغله الشاغل الآن . لذلك نستطيع أن نستيقظ وننهض ونقبل هبة الحياة مهما ظهر عليها من ضعف .

وبحسب ما جاء فى الأصحاح الخامس من إنجيل يوحنا ، ليس هناك من يعانى من أيام صعبة وعصيبة فيما يتصل بالشفاء من المرض أكثر من الناس المتدينين المدققين . فإنه بمواجهتهم لله فى هيئة يسوع المسيح ، واصل الفريسيون كلامهم قائلين إننا نعلم عن الله . ونحن نعلم كيف يعمل الخلاص . فليس هذا هو الخلاص . إن اليوم سبت وأنت لا تقدر أن تشفى فى هذا اليوم . ومن الواضح بأنه حتى المتدينيين الأتقياء لديهم خطط . فقد كانت خطة الفريسيين مدونة فى الناموس ، وبسبب ذلك الأمر قصروا عن إدراك وفهم المعجزة . والمسيحيون أيضاً لديهم خطط. فلدينا خطط لأجل العالم والكنيسة . لدينا خطط لأجل الآخرين ولأجل أنفسنا . هذه الخطط ليست سيئة أو خاطئة ، لكنها عاجزة عن أن تشفى . الله وحده يقدر أن يشفى .

وفى النهاية قال يسوع للذى شُفى « فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشر »(يو ٥ : ١٤)

إنه قول رائع . ففي الأصحاح التاسع من إنجيل يوحنا يقول لنا البشير يوحنا بصورة دقيقة ومحددة بأن المرض لم يكن بسبب الخطية . إذاً فلم يكن لخطية الإنسان تأثيراً بالنسبة لعجزه وشلله . فقد كانت خطيته أنه لم يدرك رجاءه ولم يميِّزه عندما ظهر له يسوع .

إن الكتاب المقدس حازم دوماً ضد أولئك الذين لا يعرفون مخلصهم . إن الرب الشافى معنا ، وهو أيضاً مع هذا العالم الذى يرسم الخطط والتدبيرات ويرهق نفسه بها . والأسئلة الوحيدة التى نستطيع أن نطرحها هى : هل نستطيع أن نراه ؟ هل نستطيع أن نسمعه وهو يدعونا ؟ قم احمل سريرك وامشِ . تغلب على الألم وافلت منه . وامشِ كذاك الذى يمشى مع المخلص .

عندما يمرض الراعى :

فى صباح يوم الأحد وبينما كنت أحلق ذقنى لاحظت أن حنجرتى بها تورم . عندئذ أسرعت فى ذلك اليوم والتجأت إلى شيخ من شيوخ الكنيسة وهو طبيب أذن وأنف وحنجرة . واعتذرت له لأننى آزعجته بهذه المسألة لكننى سألته ما إذا كان الورم أمر لابد وأن يقلقنى . ثم ألقى نظرة عاجلة وقال لى بأنه يريد أن يرانى فى مكتبه صباح اليوم التالى . وأما عن الموعد فى الصباح الباكر فقد تحول إلى يوم ملئ بالفحوص الطبية . وفى النهاية أخبرنى الطبيب بأن النتوء كان عبارة عن ورم ناتج من الغدة الدرقية . وقد كان متاكداً تقريباً بأنه كان ورماً حميداً ، ولكن للتأكد كان لابد من إجراء عملية لإزالة الورم .

وقد كنت مُتاكداً بأنه كان ورماً حميداً لأننى كنت قد قبلت حالاً دعوة من الكنيسة الإنجيلية المشيخية الوطنية فى واشنطن فى مقاطعة كولومبيا لأصبح راعيهم الرئيسى ، وقد كانت المقابلة طويلة وشاملة للغاية ، غير أنى ولجنة الفحص أصبحنا واثقين أن الله قد جمَّعنا . لذلك قلت فى نفسى لماذا وجهنى الله إلى هذه الخدمة الجديدة ؟ هل فقط لكى يسمح لى بمرض السرطان ؟ ولكن هذا السبب لم يكن مفهوماً أو مقبولاً ، فمن الجائز أن لا يكون الورم خبيثاً .. ولكنه قد كان .

وبعد ثلاث عمليات جراحية ، كان الأطباء متفائلين لأنهم تغلبوا على كل المرض ، غير أننى فقدت الآن غدتى الدرقية وبعض الأجزاء الأخرى من رقبتى. لم أكن أحسب نفسى أبداً بأننى موهوب ، إلا أننى كنت أعرف مقدرتى على العمل الشاق . إننى لم أعترف بها أبداً ،

غير أننى كنت قد افترضت منذ فترة طويلة بأننى قد حصلت على ما حصلت عليه من شهادات جامعية ، وربما كل علاقة فى حياتى ، كنتيجة للقيام بحق بمجهود شاق . إنه ذروة الإساءة ضد نعمة الله . إنه الوثنية وعبادة الأصنام ، فقد كان الله على وشك أن يخلصنى منها . لقد كنت مستعداً لأن أخطو نحو أكبر وأعظم تحدٍ مهنى فى حياتى . فكل ما فقدته كان الغدة الدرقية . وهى الغدة التى تنظم الطاقة فى الجسم .

ولقد أبلغت شيوخ الكنيسة فى واشنطون عن مرضى بالسرطان ، غير أنهم قالوا إنهم كانوا لا يزالون متيقنين بأن الله قد دعانى لأن آتى . وبعد عدة شهور بعد أن تم ضبط جرعة الدواء الخاصة بالغدة الدرقية ، كنت مثابراً لا أعرف الكلل فى خدمتى الجديدة . ولقد كنت مصمماً لأن أتأكد بأن لا أحد من رعايا كنيستى يمكن أن يظن أنه قد دعى شخصاً عاجزاً ليكون راعياً لهم . فكثيراً ما كنت أصل إلى الكنيسة حوالى الساعة السابعة صباحاً ، وأمكث هناك حتى العاشرة والنصف مساءً عندما يغير حارس الأمن ورديته ويدير جهاز الإنذار . فقد كان الأمر كما لو أن تلك التجربة المتصلة بمرض السرطان مجرد رمية لا هدف أو قصد منها . ثم حان الوقت للفحص الطبى الشهرى للمرة السادسة . وقد كنت متأكداً بأن فحص تلك المرة سوف يؤكد صحة ظنى بأن مرض السرطان قد زال . ولقد كنت مخطئاً للمرة الثانية . إذ كان السرطان قد انتشر وانتقل إلى صدرى .

إن مدينة واشنطون حافلة بأناس فخورين بأنفسهم الذين يجاهدون ويتصارعون لإحراز السلطة والنفوذ . وهذه السلطة ليست قاصرة على أبناء الطبقة الأرستوقراطية ، فإنه بحسب ما جاء فى أساطيرنا المحلية يمكن لأى إنسان أن يأتى إلى واشنطن ويكافح ويبذل جهوداً قوية للوصول إلى مكانة عالية . ولقد جئت إلى هذه المقاطعة وأنا مصاب بمرض عصبى بكل ما تعنى الكلمة من معنى بسبب هذه المدينة . لأنى كنت أريد بحق أن أكون خادماً بنعمة الله .

وما أن اكتشف الأطباء انتشار السرطان وانتقاله إلى صدرى ، تغير كل شئ بالنسبة لى . فقد خطر فى بالى لأول مرة فى حياتى بأننى لن أعيش إلى الأبد . فالواقع أنى كنت أعانى من مرض يمكن أن يقضى على حياتى .

وقد كان علىّ أن أفحص نفسى طبياً فى مستشفى آخر للعلاج بالطاقة المشعة . وقد كانت جرعة العلاج فى هذه المرة بالغة الشدة لدرجة أنه قد مُنعت عنى الزيارة ، حيث كانت الممرضات

يتركن لى الطعام على الباب ويسرعن بالخروج حالاً كما لو أننى كنت مصاباً بالبرص . فقد كنت منفرداً بأفكارى . فقد كان الأمر كما لو أن الله كان يقدم لى فرصة أخرى لأتلقى الرسالة القائلة لى : « أريد منك فى هذه المرة أن تفكر بخصوصها » .

كثيراً ما قمت بزيارة مرضى السرطان فى المستشفيات وكثيراً ما أخذت معى أناساً لتشجيعهم ، إلا أننى لم أفكر يوماً أننى سوف أصاب بهذا المرض اللعين . هناك شئ وضح لى غاية الوضوح ، ليس عندما كان عندى الكثير لأقدمه ، ولكن عندما صرت منفرداً بكتابى المقدس ومع صلواتى وتضرعاتى . إن الله ليس بحاجة لى ، بل أنا الذى بحاجة إليه . إننى محتاج إلى الله حتى أكون على قيد الحياة اليوم وإننى أشكر كل يوم عندما يعطينى تلك الهبة .

كان العلاج بالإشعاع يسير سيراً حسناً ، وأرجو أن يكون مرض السرطان قد زال تماماً . غير أنى أعلم بأنه يمكن أن يرجع فى أى وقت . لكننى لازلت متيقناً من أننى قد شفيت وتبت عن حياة تزعم بأنها ليست بحاجة إلى النعمة . فقد حدث ذلك فقط بعد ما قطعت الأمل فى يقينى بخصوص الغد .

ترك اليقين :

لقد صارعت « نانسى Nancy اللوكيميا (سرطان الدم) التى أصابتها زمناً طويلاً . فقد كانت هناك أيام كانت تظن بأنها تتحسن وتتغلب على المرض ، وكانت تأتى أيام أخرى عندما يتغلب المرض المرعب عليها ويكتسب المعركة . غير أن شكها وصل إلى نهاية مفاجئة وغير متوقعة يوم استلمت خطأ نسخة من خطاب طبيبها المعالج إلى طبيب آخر ، إذ قال الخطاب بأن نانسى لن تعيش إلا ستة أشهر فقط .

لقد أصيبت نانسى بدوار عنيف بسبب ما اكتشفته . ولم تخبر أى إنسان بهذا الخبر . حتى إنها لم تقل أيضاً لنفسها . ولقد أصابتها ضربة الدوار بينما كانت تتسوق . وبينما كانت تنزل إلى محل البقالة تذكرت بأنها كانت بحاجة إلى شراء علبة بيكربونات الصودا . وبعد أن وجدتها على الرف فحصت تاريخ انتهاء الصلاحية وهى شاردة الذهن ، ثم تناولتها بسرعة خاطفة فيما بعد وقالت : « لقد كنت أقف هناك باكية بدموع غاضبة ، إن علبة بيكربونات الصودا الغبية هذه كان عمرها أطول من عمرى ، فتاريخ صلاحيتها كان سيمتد لأكثر من ستة أشهر ، وكان تاريخ

صلاحيتي سينتهي قبلها .

كانت نانسي مولعة بسرد تلك القصة عليّ بعد أن مرَّ عام على الستة أشهر . ففي اليوم الذي انتهت فيه صلاحية علبة بيكربونات الصودا أقام لها العديد من أصدقائها حفلاً بمناسبة أنها لازالت على قيد الحياة . فقد كان الجزء الذي يمثل أهمية خاصة في الحدث هو الاحتفال بدفن علبة بيكربونات الصودا بعد أن طال عمر نانسي عن عمر البيكربونات . لقد واصلت الاستمتاع بحياتها يوماً ما لأنها كانت قد تركت كل أوهامها بسبب معرفة كم سيطول العمر بها .

وطالما فكرت بأنه لن يتبق لها سوى ستة أشهر ، فقد كان كل يوم يعجّل بها إلى النهاية . فقد جرت الأيام بسرعة ، وأصبحت الستة أشهر خمسة ثم أربعة وثلاثة ثم شهرين . وفي النهاية فكرت بأنه لم يبق لها سوى شهر واحد وتموت . وكانت تعذّب نفسها وهي تسأل نفسها قائلة ماذا أفعل بشهر واحد فقط ؟ فقد كانت مشمئزة للغاية لأن تقوم بعمل أي شئ مثير ، ومحبطة للغاية لأن تقوم بعمل أي شئ مفيد ونافع . ولكن أثناء الأيام التي تلت الأشهر الستة هذه ، وبعدما اكتشفت بأن الحياة غامضة للغاية للتنبؤ بها ، كانت قادرة على أن تحيا بين يدي خالقها شاكرة لأجل كل يوم لم تكن موعودة به .

وذات يوم ذهبت نانسي إلى المستشفى لعمل نقل دم مرة أخرى ، ولم ترجع إلى البيت بسرعة كعادتها في المرات السابقة . وعندما قمت بزيارتها في المستشفى ، كان واضحاً بأنها قد كانت على وشك أن تموت . وقد تحدثنا كثيراً عن هذه العطية العجيبة التي تدعى الحياة ، وإلى أي مدى تكون حقيرة وضيعة لمجرد أن نقبلها دون أن نوجهها . وتحدثنا عن الجوانب الغامضة للحياة الأبدية . ولقد صرحت نانسي بأنها لم تكن قلقة ومهتمة بخصوص هذا الموضوع . إذ كانت قد تعلمت أثناء حياتها على الأرض الكثير عن قبول الحياة على اعتبار أنها فضل ونعمة . وها هي الأن مستعدة لأن تقبل نعمة الحياة الأبدية .

لا أحد منا يعلم متى تأتي نهاية الحياة . فقط عندما نترك كل أوهامنا التي تحتسب للغد بأن نكون أحياء ، وهنا فقط يمكن أن نقبل بشكر على اعتبار أنها هبة الله اليوم .

إحسانات نعمة الله :

إن الشفاء من المرض يخلق عطشاً للتعبير عن الشكر والحب نحو الله . ففى كل مرة أصلى فيها لشخص ما للشفاء من المرض أصبح شاكراً أكثر فأكثر، وهذا ليس لأنى أعلم بأن الله سوف يشفى المريض ليكون معافى متمتعاً بالصحة . لكن كل ما فى الأمر أنى أعلم أنه من المفيد جداً أن أدرك بأننى وهؤلاء المرضى الضعفاء من أبناء كنيستى والذين أحبهم حباً كثيراً هم جميعاً فى يدى إلهنا . إن يدى الله هذه هى تلك الأيدى الصالحة والمعتنية . إننى أعلم بأنه سوف يشفى من المرض . ربما لا يجعلنا معافين أصحاء ، لكن أعلم بأنه سوف يشفى النفس العليلة والقلب اليائس . إنها نعمة عجيبة بأن نوجد بين يدى الله ، حتى إننا لو أدركنا بحق قيمة هذا الأمر لن نكون قلقين بخصوص أن نصير إلى الأفضل .

إن معظم المسيحيين يبدو عليهم أن لديهم نصوصاً من الكتاب المقدس تتردد دائماً فى حياتهم . وبالنسبة لى ، هناك نص يقوله المرنم الذى يتساءل «ماذا أرد للرب من أجل كل حسناته لى.. ؟ » (مز ١١٦ : ١٢) . إننى لازلت أفكر فى كل نعم الله التى قد نلتها . فإن كل الناس الذين جاء بهم الله فى حياتى عندما كنت على وشك أن أزل بسبب ضعفاتى ، أسرتى وكنيستى وأصدقاء كثيرون جداً لا حصر لهم ، واليوم الجديد حيث لم يكن هناك ضمانات لأن يكون لى أى من ذلك كله . فمن المؤكد بأنهم لم يأتوا إلىّ لأنى أستحقهم ، بل قد جاءوا فقط إحساناً وجُوداً لنعمة الله .

وكأى إنسان يخوض الحياة وخبرتها بعيون مفتوحة ، فإنى متألم بسبب العديد من الترك الذى اختبرته طوال الطريق . وبكل صدق وأمانة فإنى لست شاكراً بصفة خاصة بسبب تلك الخسائر المؤلمة ، فإن هؤلاء الذين يقاسون بسبب ضعف صحتهم ليسوا سعداء بسبب جسدهم الضعيف ، ولا الأرامل سعداء بسبب فقدان أزواجهن ، أو رجال الأعمال المفلسون العاجزون عن دفع ديونهم سعداء بسبب فقدان نجاحهم . ولكن السبب الذى يدعو الناس الذين خسروا حياتهم لأن يكونوا شاكرين هو أنهم قد وُجدوا بواسطة مخلصهم ، فقد أعطاهم حياة جديدة . ربما لا تختلف كلها عن الحياة التى كانوا يحيوها من قبل ، ولكن بالنسبة لهم فكل شئ يبدو مختلفاً ، حتى شروق الشمس يُقبل على اعتبار أنه هبة ثمينة يمكن أن تغمرهم بالسعادة والتعبير عن الشكر .

ربما يكون الإقرار بالفضل هو الدعوة المطلقة للمسيحى المؤمن أن يشارك فى أية مهمة يعطيه الرب إياها ، لا لأنه يجب عليه القيام بها ، بل لأنه يجب أن يقوم بها من يتميزون بروح الشكر من أجل كل النعمة التى قد نالوها ، فهم يريدون أكثر من أى شخص أن يقدموا عطايا . إلا أنه لابد لنا من أن نخسر قدراً كبيراً من الحياة قبل أن نكتشف بأن القصد من الحياة أن نهبها لأمور أهم .

فإذا كنا شاكرين ، لا نستطيع أن نساعد فقط ، بل أن نحيا كشهود لخلاص الله . وأما إذا كنا جحودين غير شاكرين ، بصرف النظر عن كم يكون سعينا وجهادنا ، فلا يمكن أبداً أن يكون لنا نداء وطنى مسيحى يدعونا إلى الكرازة ، وذلك لأن المسيحيين يشعرون فى هذه الحالة أن مهمتهم الكرازية هي رد فعل فقط لأن يكونوا فى علاقة حب مع نعمة الله .

إن الغلاف الخارجى لمجلة كنيستنا يقول بأن كنيستنا هى « خدمة النعمة ، الخدمة المتحمسة فيما يختص بإرسالية المسيح فى العالم » . إننا نستطيع أن ندرك ما ينبغى علينا القيام به فقط عندما يكون لنا لقاء مع إلهنا الرحيم . فما أن نكون قد قبلنا النعمة ، فلابد وأن نكون متحمسين بشأن مساعدة العالم لكيما يقبل هذه النعمة . على أنه بقدر ما نحاول ونسعى إلى الانشغال فى مهمة التبشير ، بقدر ما ندرك ونتحقق كم يكون اعتمادنا واتكالنا على الله . فإذا ما حاول المسيحيون أن يكونوا متميزين فى العالم معتمدين فى ذلك فقط على حماستهم أو على أسوأ الأحوال على شعورهم بالإثم ، فهم لا محالة فاشلون . ولكن ما أن قد أصبحوا مخلصين صادقين عند معرفة المخلص عندما يظهر ، فهم يدركون بأن مهمتهم التبشيرية هى ليست لتغيير العالم ، بل إن مهمتهم التبشيرية هى أن يغيروا العالم ، بل أن يصلحوا العالم ليرى نعمة الله . فإن أولئك الذين قد لمستهم يد يسوع المسيح الشافية يريدون أن يدركوا أن المخلص يظهر ثانية أينما يكون .

يعقوب : الضعيف المتعلق بالله :

لا يوجد مرض أشد من مرض التوهم بأننا نستطيع أن نخلص أنفسنا إذا ما جاهدنا وكافحنا . فقد اعتقد يعقوب اعتقاداً قوياً بأن لابد أنه يبذل جهوداً قوية ويعمل بمكر ودهاء للحصول على الربح . فإن حسِّى الباطنى يهتف داخلى بأن يعقوب كان أول من ابتكر تلك العبارة

وصاغها قائلاً « إن الله يعين أولئك الذين يعينون أنفسهم . إنها ليست عبارة كتابية ، غير أنها لو كانت كذلك ، لكان يعقوب قد قالها .

إن معنى اسم يعقوب هو المتعقب المخطط والماكر والمخادع . وقد ثبت ذلك فى النهاية أن الاسم مناسب لأنه من ذلك اليوم كان يعقوب يركزٌ على الحصول على كل بركات الحياة التى كان يستحقها عيسو بصورة طبيعية .

لم يكن عيسو شخصية معقَّده . وربما كان ذلك لأن الحياة لم تكن قاسية عليه . إذ أن عيسو هو من أولئك الأشخاص الذين وُلدوا أصحاء عاديين ، وهو مثل كثيرين فى أيامنا هذه ، الذين يجدون أنفسهم ناجحين ولا يعلمون ما الذى يفعلونه بهذا كله . إن عيسو يدفعنا إلى الدهشة ، حيث أنه كان سبباً لإزعاج حياة يعقوب الذى قضى حياته المبكرة مخادعاً لأخيه الأكبر .

إن قصة هذين الأخوين ليست قصة فريدة من نوعها ، إنها قصة الموسرين وأيضاً المعدمين، قصة من عندهم ومن ليس عندهم ، إنها قصة أولئك الذين تبدو حياتهم كحلم ، وأولئك الذين يقضون حياتهم يطاردون أحلامهم . فهى ليست مختلفة عن قصة حياتنا . قد يكون البعض منا قادراً لأن يكون قريباً لعيسو ، لكن أغلبنا يجد نفسه يشبه يعقوب ، فإننا نميل إلى ما كان يناضل من أجله ، غير أنه مصمم على أن يصنع من نفسه شيئاً ، فإن قصة يعقوب هى قصتنا نحن .

ومن ناحية أخرى، هناك صفة مميزة فى هذه الرواية . فإنه قبل أن يولد يعقوب ، عقد الله العزم على أن يباركه هو ، وليس عيسو . فإنه لكى يبارك الله إنساناً فى العهد القديم ، كان ذلك الأمر يعنى أن يفرز لغرض خاص ويخصص لمهمة فى الحياة . فقد أُعطيت البركة فى القديم إلى إبراهيم جد يعقوب . فقد كان يريد تلك البركة لدرجة أنه كان مستعداً لأن يترك بيته لكى ما يجرى وراء أحلامه التى كان يقدمها الله ويعد بها . فعندما وُلد إسحق متأخراً عن الموعد ، كان إبراهيم قد بدأ فى التحقق بأن البركة لم تكن فى تحقيق أحلامه ، بل فى الحياة مع الله الكريم الذى يعطيها .

إن دروس الإيمان تلك كانت مفقودة عند يعقوب . فقد كانت فلسفته فى الحياة هى أن ما تراه هو ما تحصل عليه . وعلى الرغم من وعد الله لأن يبارك يعقوب فهو لم ير أى شاهد لهذا الوعد.

فقد ظل يعقوب طوال سنى حياته يسمع من الله عن بركاته . ففى تك ٣٢ : ٩ يصل الوعد إلى أبسط صورة له عندما يعده الله قائلاً : « فأحسن إليك ... » .

كانت البركات تأتى فى تلك الأيام على اعتبار أنها حق البكورية . وباعتباره المولود الثانى، فإن رجلنا موضوع حديثنا قد وُلد ليواجه ظروفاً صعبة . من أجل ذلك ملأت الشكوك قلب يعقوب من نحو الله . إنه لا يشك فى البركة ، فهو يدركها ادراكاً حقيقياً . فإن ما يشك فيه هو أنها سوف تكون بركة من نصيبه هو .

إن معظمنا لديه بعض الشكوك من نحو الله . فعندما نقرأ فى الصحيفة اليومية بأن جميع الأمم تموت جوعاً تنتابنا أحياناً بعض الشكوك حول الملكوت الذى قال عنه يسوع بأنه آت ، على الرغم من أننا خلال حياتنا اليومية لا نقضى وقتاً كبيراً نجاهد بسبب مثل هذه المشكلات الضخمة . أغلب الظن هو أننا نشك أننا لن نحصل على مكاسب كثيرة . إذا ما توقفنا عن الجرى والاحتيال .إننا نشك بأن النعمة فى النهاية سوف تساعدنا على اجتياز مرحلة خطرة لكى ما تغيَّر الاتجاه الذى لنا.

وعندما تظهر هذه الشكوك يكون الإغراء الشديد لنا أن نستغل شركة الله حيث نوجهها إلى مطالب طموحة نحصل عليها لأنفسنا . فإن كانت البركة آتية فى طريقنا لتصبح من نصيبنا فإننا سوف نستبعد الله ، فإن كنا قادرين أن ننجز العمل بأنفسنا ، لأننا نعلم بأن هناك فى العالم يوجد الكثيرون أمثال يعقوب وعيسو . هناك الذين يبدو عليهم بأنهم كذلك ، وأولئك الذين على وشك لأن يكونوا كذلك . لذلك نحن ننظر بيأس إلى مجالات نشاطنا وصحتنا وعائلاتنا وأحبائنا وكنيستنا . ونحن نظن بأننا لو بذلنا جهداً كافياً فى هذه المجالات ، لكان فى مقدورنا أن نجعل البركات تحدث .

إن المشكلة المتصلة ببذل الجهد للحصول على شئ بالقوة والخداع دون مساعدة الله هى أننا ننتهى عادة بالإنهاك والضجر. وتأتى هزيمتنا بسبب الأسلوب الذى اتبعناه . لا أحد يقدم مثلاً أوضح لهذا الأمر من قصة يعقوب . ففى الوقت الذى نتناول فيه القصة بسرعة فى الأصحاح الثانى والثلاثين من سفر التكوين نجد أن يعقوب وحيداً ومنكسراً . ففى يأسه فى أن يجد بركة كان قد خسر عائلته وماله ووطنه وكل شئ كان قد حصل عليه باجتهاده وكفاحه . فقد كان عليه أن يلجأ إلى حميه لابان ليهرب من عيسو . وها هو الآن فى طريق الفرار من وجه لابان ، وكان

المكان الوحيد الذى يذهب إليه هو الرجوع إلى عيسو ، ومن وجهة نظر يعقوب كان عيسو مازال يطارده .

والآن فإن كل شئ ينهار وينقلب عليه . فليس أمامه مدن أخرى جديدة للارتحال إليها ، وليس من أعمال جديدة أخرى لكى يعملها ، وليس من زوجات أخر للزواج منهن . فقد ضاعت تماماً الفرص المتاحة لتحسين نفسه بجهوده الخاصة . ففى تك ٣٢ : ٢٤ يقول لنا كاتب السفر بأن يعقوب تُرك وحده ، متروكاً من كل شئ .

الواقع أن يعقوب كان قد بقى وحيداً طوال سنى حياته . فقد قضى حياته غائباً عن الله أكثر مما عاشه مع نعمته. ففى وحدته وإنهاكه وتعبه الشديد ، قضى يعقوب الليلة يصارع الله. وقد كانت تلك الليلة رمزاً للجهاد الذى شمل حياته . فقد كان يعقوب والله يصارعان زماناً طويلاً جداً .

هذا هو جهاد أولئك الذين يؤمنون بالبركة غير أنهم يصارعون ليبقوا على الإيمان ، ليوقفوا الشك الذى يهزمهم ويتمسكوا بالوعد بأن الله سوف يحسن إليهم . إنه صراع مخلص الذى فيه يضرب المثل على استقامة أولئك الذين ينظرون إلى بركة الله نظرة جادة للغاية ، وليرفضوا متناقضات الواقع . فإن لم نؤمن تماماً بالبركة ، فلن يكون هناك جهاد . قد نسقط تماماً فى هاوية سخف الحياة الذى لا قيمة له والذى يميز إيمان الكثيرين فى المجتمع .

وأثناء مباراة الصراع الشديد هذه انخلع حُق فخذ يعقوب . ماذا يكون أسوأ بالنسبة للمخادع المحتال ؟ فقد يصيبه بالعرج وتنتهى أيامه فى تكرار الهروب. فالأمر الذى يلفت الانتباه هو أن يتمسك بهذا الرسول الآتى من قبل الله ويتشبث به ولا يتركه إن لم يباركه . إن هذه الصورة ليعقوب المنكسر والمنهك ، والمتمسك بقبوله لله وبرفض التخلى عنه ، تصور الوضع النهائى للإيمان . ونحن نجد هنا صورة إيضاحية خالدة لكل من قد اتخذوا البركة بجدية ، وجاهدوا للحصول عليها ، فقد انتهت المحاولات بأن يكونوا صفر اليدين ومصابين بالعرج ، لذلك لابد من التمسك بالله والتشبث به . لأنه ، فى النهاية ، لا شيء آخر أمامه ليعمله .

وعند طلوع الفجر جاءت البركة أخيراً . فهى ليست بالضبط البركة التى كان يعقوب قد حاول تحقيقها رغم المصاعب والمتاعب . فهو لم يحصل على الثروة والاحترام واعتبار الذات أو النجاح

بالنسبة لعيسو . فإن شفاءه لم يصلح الفخذ المصاب بالألم . إلا أنه قد شفى وبورك باسم جديد . لم يعد يُعرف على أنه المخادع ، فها هو الآن يدعى إسرائيل الذى يعنى « أولئك الذين يجاهدون مع الله » . « يدعى اسمك إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » (انظر تك ٣٢ : ٢٧ - ٢٨) .

قَدرْت أو غلبت ؟ كيف لهذا المتروك والمخادع الأعرج أن يغلب ؟ لقد نال بركة وهوية عندما اتخذ الله بجدية وجاهد لكى ما يدرك ويفهم المراد من وعوده . إنه لأمر خطير حقاً أن تصارع مع الله ، لكن تلك هى البركة منذ البدء . فقد وجد حياته فى هذا الجهاد .

إن إسرائيل هو بالطبع ، اسم كل الشعب الذين كانوا قد جاهدوا مع الله قروناً عديدة . هؤلاء هم رجال الإيمان ، الذين كثيراً ما يصابون بالهزيمة لكونهم ليسوا على يقين دائماً فيما يتصل بالله . لذلك قد كانت البركة لأناس الإيمان .

إننا لسنا شعباً يتغير بصورة معجزية إلى عيسو لأن الله يحبنا . وهذا ما نريد للإيمان أن يفعله . إننا نريد للإيمان أن يعيننا فى حملاتنا العنيفة الشاقة التى نشارك فيها لتحقيق أحلامنا . ولكن ليس هذا هو القصد من الإيمان . فنحن لا نحيا بالإيمان عندما يتدخل الله فى حياتنا . ولكننا نحيا بالإيمان بنعمة الله عندما لا يكون هناك تدخل .

وكما يوضح أنبياء إسرائيل إن الإيمان يعنى أن نسأل أسئلة . هذا الجهاد لابد وأن يُشجَع . فهو جانب من جوانب هويتنا . إنه يعنى بأن نحيا بالإيمان . فإن كنائسنا محملة بأناس يصارعون ويجاهدون مع مشاكل صحية خطيرة ، ومع عائلات تبدو أنها على وشك الانفصال ، ومع أعمال ووظائف يبغضونها لا يجرؤون على التخلى عنها . والمسيحيون فى أجزاء أخرى من العالم يصارعون مع الجوع والعنف والحكومات المستبدة الظالمة ، وما علينا نحن إلا أن نتساءل مراراً وتكراراً لماذا يحدث هذا كله .

إننا لا نجرؤ أن نهز كتفينا استخفافاً بهذا السؤال ، فلن يحدث هذا إذا كنا رجال إيمان . فإن كل ما نتخلي عنه ونتركه هو دعوة لنا لأن نجاهد مع الله. عندما انتهى يعقوب من الصراع لم يكن قد تغير ، غير أن كل شىء كان مختلفاً ، فقد أدرك يعقوب بأنه قد رأى الله وجهاً لوجه .وقد كان ذلك كل ما كان يتطلع إليه . ومن تلك اللحظة أصبح فى سلام مع الحياة.

وبينما نحن نصارع ونجاهد لكى ندرك الله ونقبل التحدى معه على نحو مخيف ، يكون الوعد لنا بأننا أيضاً سوف نرى وجهه . إنه لا يعطينا ما نريد من أشياء . وهو لا يقدم لنا شروحاً وتفسيرات . إنه فقط يقدم لنا ذاته . وهذا ما تسميه الكنيسة (عبادة) . نحن نؤمن بأن هذا هو القصد من الحياة .

الفصل السادس

متروك من العائلة

***

لا يزال يسوع يدعو تلاميذه إلى ترك أسرهم التى يعتقدون بأنهم ينتمون إليها ،وعندما يتركون الأسرة تصبح حياتهم موحشة ، تصبح خالية تماماً لكى تمتلئ بعطية الله بأسرة جديدة . فتصبح الأسرة الجديدة هى عائلة الله التى تسمى الكنيسة .

الأماكن التى لا يمكن أن تملأ

بعد ظهر يوم السبت كانت قاعة كنيستنا الخاصة باجتماعات الشركة مكتظة بأناس يتحركون دائرياً بغير نظام حول مناضد ، وقد تراكمت عليها الملابس القديمة . فقد كانت رابطة سيدات الكنيسة تقيم سوقها الكسائى الخيرى السنوى لصالح الصندوق المالى الخاص بالأعمال المرسلية . فقد كنت مستمتعاً بالتجول فى القاعة بينما كنت أتجاذب أطراف الحديث فى غير كلفة مع أعضائنا الآخرين الذين يعملون باجتهاد واستمتاع. ثم لفت نظرى وجود هيلين التى كانت قد ترملت بعد ستين سنة من زواجها .

فإنه بنظرة فاحصة إلى وجهها يتضح بأنها عانت كثيراً ، فقد كانت عيناها دامعتين وهى تخبرنى قائلة : « إن زوجى كان يُعنى دائما بنظافة حذائه ، فقد كان يلمِّع حذائه كل ليلة ويضعه بعناية تحت السرير لكى ما يكون جاهزاً فى الصباح . وقد وجدت الحذاء على المنضدة يباع بثلاثة دولارات » .

وقد تحادثت مع هيلين عدة مرات منذ أن مات زوجها « ديك » شأنها فى ذلك شأن الكثيرات من الأرامل ، إذ كانت تشق طريقها أياماً طويلة وسط الحزن والأسى بقدر ما تستطيع. وتجاهد لكى ما تشغل كلية ليس بالأسى والحزن بل بالإبقاء على الذكريات والاحتفاظ بها . فهى قلقة بأنها قد تنسى قيمة وأهمية الرجل الذى لبس ذات يوم هذه الأحذية .

إن الذكرى هى عطية مهمة للكنيسة ، فإن من حرمهم الموت من عزيز لديهم سواء كان أباً أو أماً يريدون منا أن لا ننسى بأن أحباءهم كانوا أناساً متميزين . إنهم يريدون منا أن نفتقدهم

ونتحسر على فقدانهم وتبقى الحياة التى عاشوها فى أرشيف ذاكرتنا. ولهذا السبب نجد أن لدى الكثير جداً من الكنائس القديمة لوحات نحاسية صغيرة منقوش عليها كلام للذكرى مثبتة فى مقاعد ونوافذ الكنيسة بأسماء الناس الذين ماتوا منذ عهد بعيد ، إذ قد حاول أفراد أسرتهم أن يعملوا على أحياء ذكراهم فى كنيستهم . فإن هذا الأمر يداوى الحزن والأسى ويساعد على الاعتقاد بأن الآخرين قد يتذكرون عندما يجلسون على ذلك المقعد أو يمرون أمام تلك النافذة . كما لو أن لوحات الذكرى هذه تهمس فى آذان الكنيسة قائلة « لا تنسوا » .

إنها عطية مهمة ، غير أنها ليست أفضل عطية لمن حرمهم الموت أعزاءهم وأحباءهم . فإن أفضل عطية هى أن نصير بالنسبة لهم جسد المسيح . إذ يعنى ذلك أحياناً بأن الكنيسة هى بمثابة « رجل الأحزان » . إذ يلتف ، بعد الموت مباشرة ، أعضاء الكنيسة حول العائلة ويشاطرونهم أحزانهم ، حيث يقدمون أطباق الطعام للبيت ، ويقدمون التعازى فى الجنازة . فكما يحمل المسيح أحمالنا الثقيلة ، هكذا تحمل الكنيسة بعضاً من أحمالنا الثقيلة من حزن وأسى . إننا نحس بالجرح والألم ، ونكتئب ونبتئس لموت عزيز لدينا كما لو كان أحد أفراد أسرتنا .

وتصبح الكنيسة إن عاجلاً أو آجلاً ، كجسد المسيح أيضاً ، « الراعى الصالح » . إننا نهدى أولئك البائسين المستغرقين فى حزنهم ونخرجهم من حالة التشوش والارتباك الكامل التى تعقب الموت مباشرة ، ونقدم لهم رؤيا لمياه الراحة الساكنة . إننا نفعل هذا الأمر كل يوم أحد عندما تقف الكنيسة وتقر معترفة بإيمانها بالقيامة من الموت وبالحياة الآتية . إننا نفعل هذا الأمر فى كل مرة نُعمِّد فيها طفلاً جديداً الذى تظهر فيه الرسالة الرقيقة التى تذكِّرنا بأنه كما أن الرب يأخذ، فإنه هكذا يعطى . ونحن نفعل هذا الأمر عندما نطلب من شخص جرَّب الحزن أن يخبر شخصاً ما قد مات له حالاً شخص عزيز لديه .

أخيراً نستطيع القول بأن أولئك الذين يجوزون فى حزن وأسى يكتشفون بأن الراعى الصالح قد « رد نفوسهم » . فإن العزيز المحبوب الذى قد مات ليس منسياً وسوف يُفتقد دائماً . وكما حدث ذلك بالنسبة إلى هيلين ، سوف يأتى اليوم عندما يتحقق من حرمهم الموت من أعزائهم وأحبائهم بأنهم قادرون أن يواصلوا حياتهم ، غير أنهم لا يريدون أن يكونوا الشخص عينه تماماً . فهم ليسوا الأفضل ولا الأسوأ . إنهم مختلفون تماماً . إنهم خلائق جديدة . إذ يبدو العالم بالنسبة لهم الآن مختلفاً إلى حد ما ، ويبدو إلههم مختلفاً تماماً، كان الحزن قد غيَّر حياتهم

وهداها . فقد حولّهم وغيّرهم تماماً . وها هم الآن يرون جانباً من الحياة وجانباً من الله ، الذى لا يمكن أن يُرى إلا من جانب أولئك الذين قد فقدوا شخصاً كان عزيزاً عليهم للغاية . وها هم الآن يتطلعون إلى الراعى الصالح الذى يستطيع وحده أن يهديهم فى ليالى الحزن والأسى المظلمة والموحشة .

هل هناك عائلات منكسرة ؟

ليس الموت هو الطريق الوحيد الذى نفقد فيه العائلة التى نحلم بها . فالطلاق هو طريق آخر لضياع أحلامنا . وأحيانا ما يكون أشد وأقسى من الموت . والكنيسة لا تدرى ماذا تفعل لشخص يجتاز تجربة الطلاق . فليس هناك خدمة تذكارية باكية دامعة . وليس من أحد يحضر فى البيت بوجبة طعام . وربما يشعر الأصدقاء بأنهم حمقى ويخشون قول الشئ الخاطئ . لذلك فهم يصمتون تماماً أمام هذا الأمر .

إن الطلاق هو أمر خاطئ مخالف للمألوف . ولا أحد يؤمن بهذه الحقيقة أكثر من أولئك الذين قد اجتازوا تلك التجربة . فليس هناك أى شك فى ذهنى بأن الطلاق هو خطية . غير أنى أجاهد بعناية كيف أقدم خدمة عن النعمة إلى حياة أولئك الذين قد تمزقو وتفككوا بسبب الإخفاق والفشل . والطلاق شأنه فى ذلك شأن الموت ، ليس أمراً يستطيع الناس الفكاك منه والتغلب عليه . فإن منكسرى القلوب قد يشفون أخيراً ، غير أن آثار الندوب النفسية والعاطفية تظل باقية . فإن ألم من اجتازوا تجربة الطلاق عميق . فإذا ما كان الأولاد متأثرين بالطلاق يظل الجرح مؤلماً مؤذياً .

إن جرح الطلاق شديد وقاسٍ بالنسبة للأب والأم أيضاً . ولكن نظراً لأن الأم هى التى ينتهى بها الأمر بالرعاية الأساسية للأولاد والتكفل بهم ، فقد شهدت الكثير من تجارب الرعاية التى تقتصر عليها وحدها .

إننى مندهش لشجاعتها فى قبولها العقبات الضخمة كل يوم . فهى الوحيدة المسئولة عن إيقاظ الأطفال من نومهم ومساعدتهم على ارتداء ملابسهم وانصرافهم إلى المدرسة كل يوم . فهى تتلو فى صباح كل يوم صلاة صامتة هادئة بأن لا يستيقظ واحد منهم من النوم مريضاً . وإذا كانت الأمور تسير سيراً حسناً فإنها تعمل على استمرارية سيرها ، وتعمل كما لو كانت تجتاز

يوماً شاقاً مثل الزوجات اللآتى لديهم أزواج وينتظرونهم فى البيت .

ولكن عندما تصل إلى البيت تكون هى الوحيدة التى يجب عليها أن تعد العشاء للأسرة . ولكن وجبة العشاء هى طريق أطول من المألوف بعد الانتهاء من العمل ، إذ عليها أولاً أن تتوقف بالقرب من المكان الذى تدفع فيه نسبة كبيرة من راتبها لرعاية الأولاد . ثم تتوقف عند البقالة وربما عند منظفى المبانى أو الطبيب البيطرى لتأخذ كلباً مريضاً . وبعد الانتهاء من العشاء ، تسوى الخلافات حول من الذى سيكون عليه الدور فى غسل الأطباق ، وتحاول بعدئذ هذه الأم التى بلا رفيق أن تساعد الأولاد فى واجبهم المدرسى ثم استحمامهم لكى يكونوا مستعدين للنوم . وبعد أن تحكى لهم قصة المساء وتصلى معهم تدسُّهم فى السرير وتغطيهم مع تذكيرهم بأنها تحبهم ولن تتركهم أبداً . ومع بعض اللحظات الثمينة التى مرت ، تقوم بدفع الفواتير ، والغسيل ، ثم تتصل بوالديها للاطمئنان عليهما ، ثم تستعد لليوم التالى لتستأنف كل ذلك مرة أخرى . ولكن بقدركل ذلك التحدى ، فهو ليس الجانب الأصعب من حياة عزوبيتها .

إن أصعب جانب فى حياتها هو الكفاح والتغلب على المصاعب والمشكلات فيما يتصل بترك الأحلام التسى كانت تحلم بها بخصوص أسرتها . إذ أن هذه ليست هى الحياة التى كانت ترجوها وتفكر فيها منذ سنوات عديدة يوم كانت تجتاز طرقة الكنيسة للالتقاء بزوجها على المنبر . إلا أن هذه هى الحياة التى تعيشها الآن . إذ أنها تريد أن تخرجه من حياتها فى هذه الأيام . وإن لم يكن من حياة الأولاد ، حيث أنه يكـون فى العادة مشغولا ومهتماً بهم على المستوى المالى فقط . والأمر الأعظم صعوبة ، أنها تدرك بأنه لابد وأن تربى أولادها على أن يحبوا هذا الإنسان الذى تسبب فى جرحها ، فمن حقها أن تستعدى أولادها على أبيهم الذى تركهم بدون موارد ، لكنها تدرك بأن ذلك قد يؤذيهم ويضرهم .

فإذا كانت محظوظة لوجدت من يقدم لها النصح والمشورة ، وجماعة مشجعة حيث تجد الأمان لتتكلم عنه . فعلى الرغم من شكواها بشأن الاقتصاد فى الانفاق حتى لا تتعدى حدود داخلها ، فإنهم سوف ينصحونها بأن تجاهد وتكافح كفاحاً شديداً لكى تتجنب مواجهة مشاعرها . ولكن عندما تكون منفردة وتختلى بنفسها فى فراشها فى ساعة متأخرة من الليل ، فإنها تحزن وتبكى وتقول لنفسها إنى مشغولة جداً ، فكيف يمكن أن أشعر بهذه الوحدة ؟

إن بعضاً من هؤلاء السيدات يحلمن بالالتقاء برجل آخر يوماً ما الذى سوف يقضى على الوحشة . وأخريات إطلعن على إحصائيات محبطة للغاية فيما يتصل بالأمهات المطلقات اللاتى تزوجن مرة أخرى تمسكا بهذا الأمل . فقد لاحظت الكثيرات صديقاتهن يتزوجن من رجال مطلقين وعندهم أولاد ، لقد أصبحن محبطات بسبب مجموعة القضايا والمسائل الجديدة التى تطلع بها هذه الأسر المندمجة المؤتلفة . وبعد فترة ، نجد أن العديد من السيدات غير المتزوجات لا يدرين ما يأملن فيه . فإنه عند هذه المرحلة يحتجن إلى الكنيسة . إنهن بحاجة إليها لتكون المكان الذى تُذكر فيه كلمات النعمة والرجاء . وهن بحاجة أيضاً إلى الكنيسة لتكون أسرتهن الجديدة حيث تشاركهن انكسارهن فى صميم الموضوع حتى أنهن لم يعدن وحيدات وفريدات كأسرة منكسرة محطمة.

ففى الكنيسة جميع أسرنا تعتبر منكسرة محطمة . حتى فى تلك الأسر التى لايزال فيها الأب والأم يحبان بعضهما الآخر ، فإن هناك جرح كافٍ لا يزيله الوهم بأنهم ليسوا بحاجة إلى نعمة الله لكى يبقوا معاً . فإذا كانت الكنيسة تقصر خدمتها على تدعيم فقط «الأسرة المثالية» لتكون سنداً لها ، فسوف تفقد فرصتها العظيمة لأن تشارك هداية الله لأولئك الذين قد تُركوا منذ زمن طويل بسبب هذه المثالية . وعند هذه النقطة سوف تتوقف الكنيسة عن أن تكون جسد المسيح ، لأن يسوع كان قد أوضح بأنه قد جاء ليشفى منكسرى القلوب . فعندما أدين يسوع من جانب الأبرار من الكتبة والفريسيين بسبب قضاء وقت طويل مع الخطاة ، أجاب قائلاً : «لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى . لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة » (مر٢ : ١٧) .

الأسرة الجديدة :

كثيراً ما تساءلت كم كان اندهاش أسرة يسوع عندما ترك البيت ليبدأ خدمته التبشيرية . فقد كان أكبر الأبناء فى بيت لا أب له تقريباً . فقد تخلى عن الانتظارات والتوقعات العادية لأية أسرة فى أيامه . فقد كان ممكناً أن يتوقع الجميع منه لأن يمكث فى البيت ، وينهض بأعمال ورشة النجارة ويتولى العناية بأمه .

ويخبرنا الكتاب المقدس عن حياة الرب يسوع أثناء خدمته على الأرض ، عندما جاءت أمه وأخوته ليرونه وفيما هو « يكلم الجموع » إذ أمه وإخوته طلبوا أن يكلموه . ولكن عندما قال له واحد بأن أمه وإخوته واقفون خارجاً يطلبون أن يكلموه أجاب قائلاً : « من هى أمى ومن هم إخوتى ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه ، وقال ، ها هى أمى وإخوتى لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى » (مت ١٢ : ٤٨ - ٥٠) . لم يكن يسوع مهملاً لشأن أسرته وأهميتها ، لأنه كان يداوم على الاهتمام بهم حتى إلى الوقت الذى كان فيه على الصليب . على أنه بهذه الأقوال قد أسس أسرة جديدة ، تلك الأسرة التى أقيمت من قِبل الآب السماوى ، قد صارت الآن الأسرة الأولى فى حياته .

هذا الأمر يعتبر أمراً جوهرياً أساسياً أكثر بكثير جداً عن ما يريد أن يقره ويسلم به معظم المسيحيين . فقد تعودنا على سماع الوعاظ يذكّروننا بأن ينبغى أن يكون الله باكورة اهتمامنا وأولوياتنا فى الحياة ، والاهتمام الثانى هو لأسرنا ، وثالث اهتمام موجه نحو الخدمة التى كان الله قد كلفنا بها . لكن هذه الرئاسة الكنسية مع مراتبها (Hierarchy) هى أمر يصعب العثور عليه فى الكتاب المقدس، فالعهد الجديد على وجه التخصيص له مفهوم مختلف للأسرة عن ذلك الذى ظهرفى القرن العشرين . فهو نادراً ما يؤكد لنا بأن الصواب الذى يكمن خلف تكريسنا وعبادتنا لله ينتهى إلى ولاء لنموذج من ثنائية الأب والأم ، ونموذج الطفلين الذى نعتبره الآن أمراً مفروغاً منه ونفترض بأنه يؤلف الأسرة . بل يخبرنا جميعاً بوضوح تام بأننا لو فعلنا مشيئة الآب ، سوف نُعطى أسرة جديدة مؤلفة ممن يتشاركون مع هذا الآب نفسه . فما ندعوه الآن الأسرة النووية ربما يكون أولاً يَكون عضواً فى هذه العائلة الجديدة . فالأمر يعتمد تماماً على من هو الأب الحقيقى للأسرة .

ونحن نوضح هذا الأمر فى كنيستنا للأسر التى لا تشبه نموذج الأسرة المعاصرة . إذ تهتز مشاعرهم عندما يعلمون بأن هناك نموذجاً جديداً للأسرة . وهذا يعنى بأنه لم يعد مقدراً عليهم بأن يجتازوا خبرة الحياة على أنها تحتوى على نسبة من الإخفاق بالنسبة للعائلات التى تتكون من أبوين ، فقد انضموا إلى الآخرين الذين جاءوا إلى الكنيسة لكونهم يعلمون أيضاً بأنهم قد كانوا بحاجة إلى مخلص ، وهكذا قد أصبحوا جزءاً من أسرتنا . إنهم ينضمون إلى أفراد لم يسبق لهم الزواج من قبل ، وإلى أناس متقدمين فى السن الذين كانوا قد ترملوا منذ زمن طويل ، وبأناس

متزوجين لم ينجبوا اطفالاً. ويصبحون معاً أسرة حقيقية . فمن المؤكد بأن هذه عبارة عن أسرة روحية ، لكن هذه هى الأسرة الحقيقية الموجودة هناك إلى حد بعيد .

إن الكنيسة تصنفنا إلى أجداد وأبناء وبنات وأمهات وآباء ، فالذين يعيشون بعيداً عن الأجداد الحقيقيين ، تمنحهم الكنيسة التأثير الناضج والثابت لجيل أكبر سناً والذى يتم غرسه فى حياة أبنائنا . فعندما تمرض شابة فى كنيستنا مرضاً شديداً وتحتاج إلى الذهاب عدة مرات للعلاج ، كان المتقدمون فى السن هم الذين يتناوبون ذلك كما لو أنهم قد كانوا أجدادها بالفعل . ولدينا سيدة غير متزوجة تذهب إلى دار المسنين كل أسبوع لكى تزور والدة أحد الأشخاص الذين يبعد مسكنهم . وخلال سنوات ازدادت هذه العلاقة وأصبحت حميمة للغاية لدرجة أننى تساءلت من هى الابنة الحقيقية . ولدينا رجل كان قد أخذ على عاتقه مسئولية العناية والاهتمام بالشباب الذين خسروا وظائفهم وأعمالهم فى مدينتنا . فهو يقدم لهم يد العون بتقديم النصح والتدبير المالى، إلا أنه فى معظم الأحيان هو يؤدى دور المشير لأب أشيب يقول : « لا تهتموا فإن كل شئ سوف يكون على ما يرام ». والواقع فإن هذا هو كل ما هم بحاجة إليه . فاذا سأل أحدهم هؤلاء الذين يقومون بالعناية بالناس ورعايتهم عن « خدمتهم » فى الكنيسة ، لقالوا إنهم يهتمون فقط ببعضهم البعض . وإنى أحاول أن اذكِّرهم بأن الاهتمام والعناية ببعضنا الآخر هو شأننا ومهمتنا الأسرية .

وعندما نخبر العائلات ذوى الأبوين عن أولوية عائلة الله ، نجد أنهم إما يبتهجون أو يصبحون قلقين تماماً . فلو أنهم قالوا الحقيقة عن أسرهم المعوزة الفقيرة بكل ما تعنى الكلمة من معنى ، لابتهجوا وفرحوا فى أن يكونوا جزءاً فى عائلة الله الجديدة فى الكنيسة . فإذا كانوا لا يزالون تحت تأثير الوهم بأن الكنيسة هى بمثابة مكان يأتون إليه لاكتشاف الأسرار إلى زواج أفضل ، أو المكان الذى يوفر مجموعة من الشباب حتى ما يكون أطفالهم فى حمى من تأثيرات المدارس العالمية العالية ، عندئذ لا يكونون فى غاية السعادة لأن يسمعوا عن انضمام الإخوة والأخوات المعوزين فى شركة الجسد الواحد فى عائلة الرب . إن أعظم خدمة نقدمها لهؤلاء الناس هو أن نكف عن أن نقدم لهم الضمانات الزائفة الخادعة التى يلتمسونها . ولا يتم ذلك ما لم يتحققوا بأن أسرهم هى أيضاً منكسرة حتى يمكن أن نبدأ أية خدمة حقيقية عن النعمة .

لقد كان ديترش بونهوفر Dietrich Bonhoeffer شديد الحرص على أن يذكرنا بأن الكنيسة ليست مثلاً بشرياً أعلى يحتذى به ، لكنها عبارة عن حقيقة إلهية . وقد حذرنا بأن أحلامنا بالنسبة للشركة هي أعظم تهديد للشركة المسيحية الحقة . إنها عائلة الله تلك التى نجدها فى الكنيسة . إن هذه العائلة ليست بالضرورة عائلة أفضل من تلك التى تركناها ، وهى بالتأكيد ليست العائلة التى نحلم بها إنها عائلة مقدسة ، ولكن ذلك لا يكون إلا لأن الله هو أبونا . ففى عائلة كنيستنا نحن نطلب من الناس أن يعتنوا ببعضهم الآخر ، ولكن الحقيقة هى أننا نصارع ونتقاتل ونؤذى بعضنا الآخر تماماً كما تفعل أية عائلة على الأرض . ينبغى علينا أن نطلب كثيراً ونقبل الغفران . ولكن هذا الأمر هو جانب من جوانب تُميزنا واختلافنا كعائلة . نحن نعرف كيف نغفر ، وهذا أيضاً يدخل ضمن مهمتنا الأسرية .

إنه لمن المدهش كيف أن هناك عدداً كبيراً من المنظمات الخيرية فى واشنطون ، التى تجاهد لأن تجعل من العالم مكاناً أفضل . وبعض هذه المنظمات هى عبارة عن جماعات تؤثر على هيئات تشريعية كمجلس الشيوخ مثلاً ، وأخرى عبارة عن وكالات ومكاتب حكومية ، وأخرى عبارة عن جماعات لا جدوى منها التى توجد لتستجيب لحاجة معينة . فإن كل هذه المنظمات تشترك فى فهم مشترك للصواب والخطأ ، فهى على يقين بأن قضيتهم التى يناضلون من أجلها هى على صواب . إنهم موجودون لكى ما يخرجوا عن جماعتهم ويخوضوا غمار المعركة ضد العدو الذى هو الفقر والجريمة والظلم وتلوث البيئة ، إلا أن العدو لا يزال أيضاً هناك فى الخارج .

إن الكنيسة تختلف اختلافاً تاماً عن تلك المنظمات . فإنه بالنسبة لنا نستطيع القول بأن العدو جاثم داخل الكنيسة . فالعدو لا يزال يعمل وذو تأثير على كل قلب من قلوبنا . إننا لا نشارك فى مهمة تبشيرية أو فى الكرازة بالإنجيل للعائلات الأخرى فى الأرض ، لأننا عبارة عن بديل أفضل وأعظم نفوذاً . بل لأننا ندرك كم نحن بحاجة إلى مخلص ، فما أن نلتقى بالمخلص فى العائلة حتى نقبل غفرانه ونتعلم فن التسامح والغفران ، ونكتشف شيئاً يستحق أن نعطيه لمن هم خارج العائلة . فإن ذلك الأمر مهم بصفة خاصة لهؤلاء الذين يعالجون القضايا والمسائل التى لم تحل مع والديهم .

أكرم أباك وأمك :

إن الكثيرين فى هذه الأيام يشتركون فى الرحلات العلاجية الجريئة التى تدعوهم إلى الرجوع والبحث فى القضايا والمسائل التى لم تحل فى ماضيهم . فإن هذه الرحلات ليست سهلة ، ومعظمنا قد يفضل أن يترك الماضى . ولكنه لا يتوقف هناك . فإن أولئك الذين لا يفهمون تأثير الجروح والآلام القديمة قد قُدر لهم أن تهاجمهم هذه الجروح والآلام على نحو مستمر ومزعج . فإن هذه القضايا والمسائل التى لم يتم حلها سوف تستمر لتعقِّد حياتهم وتصعِّبها .

ينبغى علينا أن نقول الحقيقة فيما يتصل بالألم الذى كان جزءاً من تراث أبوينا . ولكن ماذا عن الوصية الخامسة التى تأمرنا بأن « أكرم أباك وأمك » ؟ . هل تشير هذه الوصية بأننا منغمسون فى النظر إلى الجروح التى تأتى عن طريق الآباء والأمهات الذين كانوا أنفسهم غاية فى الانشغال وفى غاية الصرامة والحزم ، بل آذوا أنفسهم لكى ما يمنحونا الحب الذى نحن فى مسيس الحاجة إليه ؟ أم أن الوصية الخاصة بإكرام الأب والأم تنطبق فقط على أولئك الكثيرين من الآباء والأمهات الذين قاموا بعمل جدير بالاحترام ، وأرهقوا أنفسهم بمحبة لأجل أبنائهم ؟ والجواب على هذين السؤالين هو لا .

إنه ليس من الخطأ أن نقول الحق فيما أنجز وما لم يتم إنجازه لوقت طويل جداً ، لكن هذه الوصية ليست مشروطة ، فالكتاب المقدس لم يخبرنا بأن نكرم فقط هؤلاء الوالدين الذين قاما بدورهما وواجبهما كأبوين ، إذ يعلمنا الكتاب بأن « أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك » (خر ٢٠ : ١٢) .

هذه الوصية هى أول وصية من الوصايا العشر التى تأتى مرتبطة بوعد . فإن إكرامنا لوالدينا تطيل أيامنا فى المكان الجديد الذى يقودنا إليه الرب . فإن الوعد يذكرنا بأننا فى رحلة إلى مكان ما . فكما ارتحل العبرانيون من مصر إلى أرض الموعد ، هكذا نفعل نحن كما يواصل شعب الرب لأن يواصلوا ارتحالهم من مكان سابق قديم إلى مكان جديد ، من عائلة سابقة قديمة إلى عائلة جديدة .

وواضح أنه فى توصيته إيانا لأن نكرم الوالدين لا يخبرنا الكتاب المقدس بأن نلغى الانتقال إلى عائلة جديدة . على أنه يحذرنا بأنه إن لم نكرم العائلة التى فيها نشأنا ، فلن نتمكن أبداً

من أن نقبل التى إليها نتجه ، ليس إلى فترة طويلة على الأقل .

إن الكتاب لم يعلمنا بأن نبقى فى البيت مع الأب والأم ، وأن نتفق فى الرأى مع الأب والأم أو نسلم بقيم الأب والأم . والواقع ، أن الكتاب المقدس لم يخبرنا أيضاً أن نحب الأب والأم .

فإن ما يعلمنا إياه الكتاب المقدس بأنه ينبغى علينا أن نكرمهما . أن نكرم يعنى أن نقدِّر شيئاً بسبب ما يتضمنه من مغزى . ونحن نكرم الوالدين عندما ندرك بأننا لم ننشأ من العدم . فقد شُكلت حياتنا بواسطة أولئك الذين قاموا بتنشئتنا وتربيتنا . وقد قام البعض منهم بدور التنشئة والتربية على ما يرام . وقام البعض الآخر بهذا الدور على نحو مرعب ، ولكن على أية حال إن لم نحترم التأثير والنفوذ الذى قد مارسوه فى حياتنا ، فلن نكون أحراراً فى أن نؤمن بالمستقبل ونقبله . وسوف تنفق كل الحياة فى رد فعل غاضب ، فى البحث عن عائلة أسطورية أفضل من نسج الخيال والوهم .

وقد يكون الأمر فى أن عيوب وأخطاء الأب والأم هى أفضل إعداد لنا بالنسبة لقبول العلاقات الخاطئة الناقصة بالنسبة للمستقبل . وبالنسبة إلى أولئك الذين يعتقدون بأن الأم والأب قد قاما بعمل طيب إلى حد ما ، فإن أفضل طريقة كريمة للتعبير عن الشكر هى أن يدركوا مهمة تركهم والتصاقهم بعائلة أخرى .

إن الحياة ليست شيئاً نخلقه ، إنها عبارة عن شئ نقبله، وقد خُلق بواسطة الله . إن الألم والفرح كلاهما خلاَّق مبدع . كلاهما لابد وأن يقدَّرا على اعتبار أنهما التجارب التى تصوغ حياتنا وتشكلها . فلا يوجد مكان يصلح لذلك سوى الحياة العائلية .

فى ختام مراسم احتفال التخرج من الجامعة رأيت مرة مرشحاً لمنصب الدكتوراه مرتدياً روب التخرج ، يقف على درجات سلم الكنيسة . وقد كان ممسكاً بابنه الأصغر بين ذراعيه . وبجانبه وقف أبواه . وبجانبهم كان يقف الجد . أربعة أجيال كانت تبتسم للصورة الفوتوغرافية فى يوم من أيام الابتهاج والتألق . ومن المحتمل أن تظل هذه الصورة الفوتوغرافية موضوعة فى برواز على رف مدفأة شخص ما على اعتبار أنها ثروة لا تقدر بثمن .

إلا أنه لابد أن ننظرعن قرب لنرى كل الأيام العادية المألوفة التى تكمن وراء هذه الصورة .

فقد كان هناك يوم منذ زمن بعيد عندما وضعته جدته على حجرها لتقرأ له قصته المفضلة ،

مشيرة بأصبعه الصغير حول كل حرف لتتبع سير وتطور أحداث القصة . ثم جاء اليوم الذى اصطحبه فيه أبوه إلى الكلية . فعلى الرغم من أن كل فرد من أفراد العائلة حاول جاهداً لينساه فهم لا يزالون يذكرون ذلك اليوم الذى احتدم فيه النزاع البغيض مع ذويه . فقد قال بأنهم كانوا يخنقونه بقواعد وقوانين ، ولم يدركوا بأنه قد صار الآن راشداً . فقد كان يريد أن يحيا حياته الخاصة . وكان والده يثور ويندفع من الحجرة غاضباً ، وأمه تصرخ باكية . فهى مناسبات تبقى فى الذاكرة .

وعاماً بعد عام تراكمت الأيام الاعتيادية ، وكانت هناك أياماً سعيدة ، وأخرى حزينة . ولكن من خلالها صنعت حياة بينما هم يدعونها تجرى لحال سبيلها . فإن أولئك الذين تعلموا أن يقبلوا حياتهم كما هى ، ويتغلبوا على الوهم بأنهم صنعوها بأنفسهم ، وجدوا أن الأمر أيسر لأن يكرموا الوالدين على اعتبار أنها نظام من نظم الله الأساسية لتشكيل حياتهم .

إن هذا الأمر ليس أقل صدقاً بالنسبة للعائلات الفاسدة أخلاقياً . ففى هذه الحالات تكون أفضل طريقة لإكرام الأب والأم هو أن نغفر لهم . فإن هذا هو الطريق الوحيد فى الحياة للخروج من الجروح والآلام القديمة إلى حياة جديدة . ففى أقوال الروائى « آن لاموت Anne Lamott » يقول : « إن الغفران هو التخلى عن كل أمل لامتلاك ماضٍ أفضل » . فإن الدعوة التى يقدمها لنا الله هى أن نتحول عن الماضى ، لا سيما الماضى الذى لم نصنعه نحن . ربما نعتقد بأن التمسك بالجروح والآلام والارتباط بها بصفة مستمرة هو طريقة للحكم على أبوينا وإدانتهم ، لكن هى فى الواقع مجرد أسلوب للرفض لأن نقبل المسئولية بالنسبة للمستقبل .

يوسف : « أما الله فقصد به خيراً »

هناك بعض العائلات أكثر اختلالاً فى دورها الوظيفى عن تلك التى نشأ فيها يوسف . فقد كان يوسف الابن الحادى عشر بين أبناء يعقوب الاثنى عشر . وقد حاول أبوه أن يحبه إلا أنه لم يعرف كيف يحبه . فقد أغدق يعقوب على يوسف بالهدايا لكونه كان يحبه هو وأخيه الأصغر بنيامين أكثر من أبنائه العشرة الآخرين . وأخيراً سئم الأخوة غير الأشقاء وضجروا من محبوب أبيهم ، لذلك باعوا يوسف وأسلموه للعبودية .

وبعد مغامرة مثيرة طويلة ممتلئة بالألم فى ضياع حياته ، وجد يوسف حياة جديدة كمساعد موثوق به لفرعون مصر . فقد كان مسئولاً عن مخازن القمح . وأثناء مجاعة قاسية شديدة جاء إخوته إلى مصر ليشتروا قمحاً ، فعلى من كانوا يعتمدون طلباً للرحمة سوى يوسف ! فعندما اعترفوا بخطيتهم له ، كان قادراً على أن يغفر لأنه فقط كان قد أدرك كيف كانت هداية الله واضحة فى حياته حتى من خلال شرهم .

وهذا لا يعنى بأن الله قد دفع إخوته إلى أن يفعلوا به شراً ، ولكنه يعنى بأنه ليس من شر مهما كان يعجز الله عن أن يفتديه . وما لم يكن الإخوة قد باعوا يوسف للعبودية ، لما وصل إلى منصب لينقذ شعب الرب الموعود من المجاعة . كما قال يوسف لإخوته « أنتم قصدتم بى شراً أما الله فقصد به خيراً لكى يفعل كما اليوم ليحيى شعباً كثيراً » (تك ٥٠ : ٢٠) .

إن أفضل مكان مناسب كأداة شفاء بالنسبة للألم والجرح الذى خلقته عائلاتنا هو فى عائلة الرب الجديدة بين أهل بيت الله وهى الكنيسة . ففى العائلة الجديدة نكتشف دعوتنا المسيحية ، وما يدعُونا إليه الله بأن نفعله بالنسبة للحياة . ومن الناحية النموذجية نجد أن هذه الدعوة الإلهية تُسمع من خلال العديد من اكتشافات المرء لنفسه ، فلا أقل من ذلك وهو الاكتشاف بأن الله قد قصد لنا خيراً حتى من خلال الأذى والشر الذى كان الآخرون قد فعلوه بنا. إن قصد الله الصالح هو أنه من خلال تلك الجروح والآلام وليس على الرغم منها ، سوف تصبح آلات ووسائط عنايته واهتمامه فى حياة الآخرين .

إن أفضل القائمين على خدمة النصح والمشورة هم الذين حرمهم الموت من أعزاء وأحباء لهم فى كنيستنا هم الذين جُرِّبوا بأن يضعوا واحداً من أفراد عائلتهم بين ذراعى الله . إنهم يعلمون شيئاً عن الحزن والأسى لكونهم قد جازوا فى هذه التجربة بأنفسهم . وعلى سبيل المثال ، هم لا يقولون أبداً : «أنا أدرك كيف تشعر» ، لأن المُجَرَّبين يدركون كيف يكون وقع الحزن والأسى الذى يجتازه من فقد عزيزاً دون أنه يكون له من رفيق أو صديق . إنهم يدركون بأن ليس من أحد سوى الشخص الذى تُرك وحيداً يعرف حقاً مدى الإحساس بفقد هذا الشخص المحبوب بصفة خاصة .

إن أفضل عناية ورعاية تقدم لأولئك الذين يجتازون تجربة الطلاق هى التى يقدمها أناس آخرين فى الكنيسة خاضوا تجربة الطلاق . وأفضل عناية تُقدم لأولئك الذين يشتكون من

مشكلات التبعية والاعتماد على الآخرين هو أن ندبرً شفائهم مع الآخرين الذين تقدموا خطوات قليلة فى نفس الرحلة . إن نفس الشركة الشافية من المعاناة والألم تنتظر أولئك الذين ظُلموا وأسيئت معاملتهم فى الطفولة ، أولئك الذين لهم أطفال يعانون من مرض شديد ، وأولئك الذين يتعاملون مع المصابين بأمراض عقلية فى أسرهم .

إنه لأمر حقيقى بأن قابليتنا على أن نُشفى من الحزن أو أن نغفر لعائلاتنا متصلة مباشرة باكتشافنا للدعوة بأن ننتقل إلى العائلة الجديدة وهى أهل بيت الله . تماماً مثلما أدرك يوسف مقاصد الله الصالحة حتى إنه كان قادراً على أن يغفر لإخوته ، ويبرئهم من الشر والأذى الذى أوقعوه به . إن الغفران منفصلاً عن رؤيا مقاصد الله أمر صعب . كما أن تلقِّى رؤيا تتعلق بمقاصد الله بمعزل عن أهل بيت الله ليس ممكناً .

مارى واحدة من شعب كنيستنا هى امرأة مبهجة فاتنة جذابة للغاية ، تبلغ من العمر خمس وأربعين سنة ، غير متزوجة ولم يسبق لها الزواج أبداً . وكانت ناجحة فى عملها مع الحكومة الفيدرالية ، هى محبوبة حباً شديداً من جانب الكثيرين فى كنيستنا . وهى تمتلك منزلها الخاص بها وتمتلك سيارة جميلة وترتحل وتنتقل كثيراً جداً ، وقد أرضت جميع طموحاتها التى كانت تتطلع إليها يوم تخرجت من الكلية . لقد أرضت كل طموحاتها ماعدا شيئاً واحداً . فهى لم تصبح أماً ، وها هى الآن تعتقد بأنها لن تكون أماً .

ولقد أزعجها هذا الأمر وكان مصدر قلق أكثر مما تسلم به وتقبله . ربما تقايض بكل نجاحها وحريتها من أجل تكوين أسرة فى لحظة ، غير أنها لا تصرح بذلك كثيراً . فهى يمكن أن تتخلى عن كل ما نجحت فى الوصول إليه من أجل زوج وأولاد ، إذ يبدو أنها أخطأت فى اختيارات حياتها . لقد جاهدت هى وكثيرات من نساء أخريات لتحقيق النجاح فى أعمالهن ، وكان هناك يوم عندما لم يكن جائزاً للنساء أن يبغلن مستواها فى النجاح المهنى ، وهى ليست مستعدة أن تسهم فى أى جهد للعودة للأيام القديمة عندما كان مكان المرأة قاصراً على البيت. وهى لا تزال تميل أكثر من أى شئ آخر لأن يكون لها أسرة . وهى لا تنسى اختيارها للنجاح المهنى ، غير أنها لم تفضل أبداً بأن تكون وحيدة بلا شريك للحياة . .

لقد تركت مارى الكلية وقد صممت بأن تحصل على عمل وأسرة أيضاً .وافترضت بأنها قد تجد أخيراً الشخص المناسب وتتزوج . وقد توقعت أنهما سوف ينجبا أولاداً ويقوما بتربيتهم فى

بيت محب حنون ، ولم يكن هناك مبرر للظن بأنها لنا تكون قادرة لأن تفعل ذلك. لقد تعرفت بكثير من الجنس الآخر خلال العشرينيات والثلاثينيات من عمرها ، غير أنه لم يظهر أبداً الشخص المناسب . ولقد باشرت فى نفس الوقت عملها بهمة ونشاط وداومت على انتظار توقيت الرب للزواج .

إن مارى تعد مثالاً واضحاً لعدد كبير جداً من النساء غير المتزوجات فى كنيستنا الذين يقتربون من مرحلة خريف العمر . فقد أعلنت ساعاتهن البيولوجية الوصول لسن اليأس ، وها هن الآن يحزن على ترك أحلامهن بالنسبة للأسرة . ولا يزال البعض منهن يأملن فى الزواج ، غير أن الكثيرات قد قررن بأنه حتى وإن حدث ذلك فقد فات الأوان على إنجاب الأطفال .

ولدينا أيضاً عدد من الرجال فى الكنيسة على نفس السفينة ، ولكن لأسباب أنا لا أفهمها تماماً ، فإن الأمر مختلف بالنسبة لهم . فإن معظم الرجال العزّاب لا يشاركون النساء غير المتزوجات تجربة حزنهن على عدم زواجهن . ربما يكون ذلك لأنهم يعتقدون بأن لديهم مزيداً من الوقت لتكوين أسرة . وربما يكون السبب بأنه على الرغم من كل التطورالاجتماعى ، فلا يزال الرجال يملكون امتياز اتخاذ القرار عند طلب يد امرأة للزواج منها . ففى أكثر لحظاتها الساخرة البائسة ،تصرح مارى بأن الرجال الذين كانوا يرغبون فى الارتباط بها جميعهم هم متزوجون الآن.

لقد حدث شئ ما لمارى قريباً بعد ما مات حلمها ، إذ قد استقرت الكآبه فى حياتها . وهى قد استمرت فى مباشرة عملها وأنشطتها العديدة فى الكنيسة ، إلا أن الومضة المبهجة التى اعتادت أن تكون فى عينيها ذبلت وتلاشت . ثم أخذت تبحث عن من يقدم لها النصح والمشورة . وبعد قضاء قدر كبير من الوقت فى العلاج توصلت فى النهاية إلى أن مشكلتها لم تكن اكتئاباً يحتاج إلى العلاج الطبى ، كان شيئاً شبيهاً باليأس من الوصول إلى رجاء إلى حد بعيد . وهذا ما جعلها مشكلة روحية.

ما الذى يمكن أن نتوقعه من مخلص ؟

إن فقدان الرجاء والأمل هو أساساً طريقة أخرى للقول بأننا قد فقدنا رؤيتنا بالنسبة للمخلص . إذ لم نعد نراه عاملاً فى حياتنا . فطالما نحن على يقين بأن الرب يسوع معنا ، نعرف بأن أى شئ يمكن ان يحدث ، فالأناجيل حافلة بروايات عن قوته العاملة المعجزية ، لكن

أعظم معجزة هى أن الله يجد فى يســوع البعض من الذين لم يفقدوا أحلامهم بل وحياتهم أيضاً . فطالما نستطيع أن نرى أن المخلص معنا فلسنا ضالين مفقودين . ولكن إن كنا قد ركزنا بشكل ضيق ومحدود للغاية على الحلم الذى ظننا بأن المخلص قد يحققه لنا ، فإن الحلم يصير هو المخلص بالنسبة لنا وليس يسوع .

ليس حلم من أحلامنا سوف يستردنا إلى الله . فإن يسوع وحده هو الذى سوف يفعل ذلك . واستردادنا إلى الله هو الشئ الوحيد الذى يمكن أن نكون على يقين بأن يسوع يريد أن يفعله . إنه الشئ الوحيد الذى سوف يخلص حياتنا ، حتى لو كان علينا أن نتجاهل أحلامنا ونتحرر منها . ربما لأجل هذا السبب قال يسوع لتلاميذه : « ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنَّة ضد حماتها ، وأعداء الإنسان أهل بيته . مْن أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقنى . ومن أحب ابناً أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى . ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى » (مت ١٠ : ٣٤ - ٣٨) .

إن هذا النص الكتابى قاسٍ عنيف . إذ أن معظمنا يرهق نفسه ويعمل كل ما فى وسعه لكى يحافظ على ترابط الأسرة وتماسكها معاً فى هذه الأيام التى تتسم بإحصائيات الطلاق المرتفعة . فإنه لأول وهلة لا يبدو بأن يسوع وسيفه مزمعان أن يساعدا على إعادة الأسرة إلى مكانتها التى تتسم بقدسية محترمة فى المجتمع . وإذا توقفنا لحظة عند هذا النص الكتابى ودرسناه بعناية ، فسوف نقتنع بأن انطباعنا الأول كان صادقاً . فإن الرب يسوع ليس مزمعاً أن يضمن بأن الأسرة مكرَّمة . وسوف لا يضمن أيضاً بأن الكنيسة مكرَّمة أو أن أمتنا مكرَّمة ، أو أى شئ آخر نريد أن نضعه فى جدول أعماله كمخلص .

إن هذا لا يعنى القول بأن الأسرة ، أو هذه المؤسسات الأخرى لا أهمية لها . فالواقع ، هناك الكثير فى الكتاب المقدس الذى يدعونا أن نوثق علاقاتنا بهم ونوصِّلها بالطريقة التى تكرم الله . غير أن هذا هو الفارق المهم بين الكتاب المقدس وأحلامنا . فما هو ذلك الشئ الذى يجب علينا أن نكرمه ؟ هل هو العائلة أم الإله الذى قد يعطينا أولا يعطينا تلك الأسرة على اعتبار أنها الفرصة لأن نكرمه ؟ إن الله وحده هو موضوع عبادتنا ، ويمكننا أن نتكل على يسوع ونعتمد عليه ليخلصنا من شئ يصبح معبوداً ومحبوباً بدلاً من الله . وهذا يتضمن أحلامنا بالنسبة للأسرة .

من الصعب أن نبنى رجاءنا تماماً على عمل يسوع الخفى وغير المنظور فى حياتنا. ومن الأصعب أيضاً أن نؤمن بأنه قد يكون أمراً صالحاً ليسوع بأن يفصل بيننا وبين أحلامنا .

فى رعايتى واهتمامى الشخصى بمارى كنا قد قضينا قدراً كبيراً من الوقت فى الحديث عن صلواتها . فإنه منذ فترة طويلة جداً كانت تصلى إلى الله طالبة منه أن يعينها على أن تحقق أحلامها . وخلال حالة القنوط التى اختبرتها عندما تأكدت بأنها لن تصل إلى تحقيق هذه الأحلام ، أخذت تصلى صلوات النحيب والبكاء التى يشوبها الغضب . ولم تكن مهمتى أن أخبرها عن ما تصلى لأجله ، بل مجرد أن أجعلها تتكلم إلى الله . ولقد أكدت لها بأن الله يستطيع أن يحتمل غضبها . كانت مارى تصلى لتفهم إلهها . فقد سألت مراراً وتكراراً فى صلواتها ما إذا كان إلهاً صالحاً حقاً ، وما إذا كان قد أحبها حقاً ، وما إذا كان قد تذكر أيضاً من تكون . وقد جاءت نقطة التحول التالية يوم اكتشفت بأنها كانت ببساطة تصلى لله نفسه ، وحينئذ بدت أحلامها أقل أهمية بكثير عن علاقتها بالمخلص . وفى الوقت المعين اكتسبت تدريجياً شوقاً شديداً لأن تكون فقط مع إلهها كل يوم . وقد كان ذلك بالطبع حلم الله دائماً .

ويسوع إايضا كان عنده إجازات مزعجة :

ليس هناك وقت تصطدم فيه تماماً احلام الأسرة مع الواقع مثل وقت عيد الميلاد . فإن عيد الميلاد هو يوم القضاء لحياة الأسرة . فإن الديناميات التى تجعل أسرنا على ما هى عليه طول العام تأخذ بطريقة أو بأخرى فى التضاعف والتزايد فى أيام الأعياد الدينية . والأمور التى كانت مثيرة بصورة غير حادة كل العام تصبح أزمة فى هذا الوقت . والأمور المتصلة بالأسرة التى كانت دائماً هادئة ساكنة سوف تصبح فى هذه الأيام أملنا العظيم لعيد الميلاد البهيج بصورة حقيقية . وبما أن معظم العائلات تجتاز كلا البعدين المهيج والمبهج بالنسبة لهذه الأعياد الدينية ، فيكون معقولاً ومفهوماً فى آخر الأمر بأننا نختبر فى حياتنا قمة مستويات البهجة وأعمق مستويات الانزعاج . فإذا لم يكن شئ آخر ، فإننا نقدر أن نعتمد على عيد الميلاد لكى يكون مثيراً مبهجاً.

وسواء كان طيباً أم سيئاً فهو يجئ كل عام . فالبعض يرهب الأعياد الدينية لأن عائلاتهم لا يقوون على احتمال ضغوطها . إن القشرة الخارجية الرقيقة أو المظهر الخادع يتمزق إذا ما كانت

العائلة قد عملت على ستر الحقيقة وإخفائها .

إن أولئك الذين اجتازوا تجربة الطلاق أو الموت فى العائلة يحاولون فقط أن يسلموا من توقعات موسم الفرح . فإن الكثيرين لا يمكنهم حتى أن يقيموا شجرة عيد الميلاد لأنهم يعلمون بأن هدية شخص ما سوف لا تكون تحتها هذا العام

إن أكثر الناس إقلاقاً لرعاة كنائسهم هم فى أغلب الظن الأشخاص الذين يعتقدون بأن هذا هو العام الذى سوف تتغير فيه العائلة ، ويعيِّدون عيد الميلاد على نحو أفضل . ولأنهم يعبِّرون عن هذه الأحلام ويقصُّونها لى ، فإننى أجد نفسى مجرباً لأن أسأل نفسى : هل هذه هى نفس الأسرة عينها التى قد كانت العام الماضى ؟ لماذا سوف يكونون مختلفين ؟ ولكن عاماً بعد عام ، يتوقعون بأن تتبدل أسرتهم وتتحول بصورة سحرية لتحقيق أحلام كانت قد أُصيبت بالهزيمة كل العام .

إن الكنيسة فى موقع رائع فيما يتصل بمشاهدة ديناميات الأسرة هذه من منظور عصور مختلفة . وذات يوم وفى اجتماع من اجتماعات الكنيسة الذى كان قد انعقد منذ أسبوعين قبل عيد الميلاد ، تحدث بعض من أعضائنا الشباب بصراحة ووضوح عن خوفهم من الذهاب إلى «البيت » لقضاء أيام الأعياد . فقد صرح أحد الشباب قائلاً : « يوجد كثير من التذمر فى بيتى ، فنحن لم نعالج مشكلة إدمان والدنا لشرب الخمر أو سلوك والدتنا العدوانى السلبى طوال الحياة ، ومع ذلك من المفروض علينا فى عيد الميلاد أن نقف حول بيانو الأسرة ونرنم ترانيم الميلاد كما لو كنا أسرة سعيدة » . والعديد من الشباب الآخرين كانوا يراقبوننا ويرصدون حركاتنا كما لو أنهم يعلمون كل السيناريو والتفاصيل التى تخصنا علماً جيداً . ثم تكلم زوجان مسنان .

إذ صرح الزوج قائلاً « إن ابنتنا سوف تأتى بأسرتها إلى البيت خلال أسبوعين ، ولكى أخبركم بالحقيقة فإننا نخشى ما سوف يحدث . إننا نحبها أكثر مما تعلم هى ، حتى أننا لا يمكننا أن نصبر حتى يأتى وقت حضورها لنرى أحفادنا .ولكنها كانت تأتى إلينا طالبة النصح والمشورة، بخصوص مشكلاتها الزوجية ، التى تأتى غاضبة بسببها ، ولكننا لا نتجاوب معها ، ونضع حداً لكلامها الفارغ ، مما يجعلها تلتقط كل أخطائنا كأبوين . إننى مللت من كونى السبب فى أن حياتها ليست سعيدة . فلمَ لا نستمتع بالوقت القليل الذى نقضيه معاً ؟

إننى أتساءل ما إذا كان هذان الجيلان كانا قد سمعا بعضهما بعضاً . فقد كانت الكنيسة بالنسبة لهم الأسرة البديلة حيث يمكن القول إنه عندما يجتاز أفراد الأسرة الذين تربط بينهم علاقة الدم وقتاً عصيباً ، فإنهم يستطيعون أن يحكوا بعضهم لبعض ، فإذا ما تجمعت هذه القصص ونُسجت مع القصص الكتابية ، فإن الرجاء الحقيقى يمكن أن ينبثق ويظهر للعيان .

هناك رواية واحدة فقط فى كل الأناجيل الأربعة تحكى عن حياة يسوع أثناء سنوات التشكيل بالنسبة لسن البلوغ والمراهقة . فهى قصة يصعب فهمها عن ما حدث فى واحد من الأعياد الدينية عندما كان فى الثانية عشرة من عمره ، وحيث لم يكن موجوداً فى المكان الذى كان لابد وأن يتواجد فيه . والقصة تقدم أيضاً مثالاً توضيحياً آخر فيما يتصل بأم يسوع بأنه كان يمكن ألا يكون هناك خلاص ما لم تترك انتظاراتها المتصلة بأسرتها .

لقد كان عيد الفصح ، وهو الوقت الذى يقطع فيه اليهود رحلة طويلة يحجون فيها إلى أورشليم ليتذكروا تحريرهم من العبودية فى مصر . ففى كل عام كان يوسف ومريم يأخذان ابنهما إلى أورشليم لأجل هذا الحدث المهم . ومن المؤكد بأنهما كانا يقصان عليه قصة الخروج العظيمة كل عام . فقد أخبراه عن انشغال الله لأن يحرر الشعب ويعتقهم من العبودية . وقد علّماه بأن اليهود كانوا فى انتظار مخلص آخر ، وهو المسيا الذى سوف يخلص أولئك الذين كانوا قد ضلوا عن طريقهم مرة ثانية .

وفى الثانية عشرة من عمره ، كان يُنظر إلى يسوع على اعتبار أنه رجل قد وصل إلى عمر النضج بحسب التقليد اليهودى . إذ كان يُنتظر منه أن يفهم معنى عيد الفصح وانتظار المسيا بجدية مطلقة . وقد فهم ذلك الأمر ، وهذا هو السبب الذى من أجله بدأت المشكلة ، فإنه بعدما انقضت أيام العيد أخذ أهل الناصرة طريق العودة إلى مسقط رأسهم ، وبعد مسيرة يوم فى رحلة عودتهما إلى بلدة الناصرة اكتشفت مريم ويوسف بأن ابنهما قد فُقد مما سبب لهما الرعب ، فلم يكن من الشائع لصبى فى عمره فى أن يكون مع الآخرين من الصبية فى عمره . فقد قطع هذه الرحلة من قبل ، وقد كان كبيراً بكفاية ليدرك مسئوليته فى أن يلازم القافلة ، ربما كانوا قد أخبروه عن هذه المسئولية .

وبعد أن اكتشف بأن يوسف ومريم أنهما قد فقدا يسوع ، قد اجتازا فى رحلة مثيرة من العواطف والانفعالات والتى سلبتهم القدرة على العودة إلى البيت . فقد أصابهما القلق ، بل

وربما أصابهما الذعر والرعب . فقد قضيا أطول ثلاثة أيام فى حياتهما فى البحث عنه فى كل مدينة أورشليم . فقد كانت مدينة كبيرة، وكانت هناك أماكن عديدة بالنسبة لصبى كانت كافية أن توقعه فى مشكلة . ثم جاءت الدهشة والتعجب ، عندما اكتشفاه أخيراً ووجداه حياً وفى حالة حسنة فى الهيكل . من يتوقع أن يجد صبياً فى الثانية عشرة من العمر فى مكان للعبادة ، يتحادث مع رجال الدين وأمور اللاهوت ؟ فقد كان الموقف مثيراً للعجب .

غير أن شيئاً ما أزعج مريم فبدافع الأمومة استدارت بسرعة وبغضب قائلة ليسوع « يابنى » حيث أنها لم تنظر له كرجل بالغ مسئول ، وواصلت كلامها له قائلة : « يابنى لماذا فعلت بنا هكذا ؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين »(لو ٢ : ٤٨) . فقد كان الأمر كما لو أنها قد سألت ، « يا يسوع لِم لم تكن موجوداً حيثما كان من المفروض أن نكون نحن » ؟ .

فمن الخوف والقلق إلى الدهشة والتعجب ثم إلى الانفعال والغضب . إنها عبارة عن رحلة الكثيرين منا قد قبلناها ورضينا أن نقضيها مع يسوع .

فإذ كنا قد رنمنا ترانيم الميلاد ، وقرأنا قصصاً عن مولد رجائنا لعام آخر ، فنحن نرجع إلى « الحياة الواقعية »ولم يحدث تغيير . لقد انقضت أيام العيد . والأعمال والمسئوليات فى الانتظار . ويمكن للأسرة أن تعود إلى الوراء أحد عشر شهراً ونصف من العام ونستأنف حياتنا الطبيعية متوقعين أن يكون يسوع معنا على نفس الطريق ، حتى إن كنا لا نستطيع أن نراه كل يوم فإننا نعتقد بأنه قريب منا . ربما يكون الأمر مرعباً بأن نكتشف بأنه ليس قريباً منا بقدر ما كنا نظن ونفتكر .

فإذا فقدنا رؤية خلاص الله فى عائلاتنا ، يمكننا أن نحاول جاهدين أن نجد يسوع ونلاقيه فى أماكن كثيرة . إذ يمكننا أن نبحث عنه فى أحلامنا فيما يتصل بما سوف يحدث عندما تتجمع العائلة فى العيد القادم . ويمكن أن نبحث عنه ونتطلع إليه بأن ننصرف عن الأسرة ونتحول عنها وننطلق مسرعين بالعودة إلى العمل . فما أن نكون قد اكتشفنا بأن شيئاً فى غاية الأهمية قد فُقد من عائلاتنا ، فإننا نستطيع مثل مريم ويوسف ، أن نبحث عن أملنا فى كل المدينة . ربما نجده فى مجموعة شباب كنسية مختلفة ، أو فى بيت أكبر وأعظم . غير أننا لن نستطيع أن نجد مخلصاً فى أى منهم ، ويظل البحث مستمراً .

وعندما تتعثر أقدامنا فى المكان الذى يوجد فيه يسوع فإن الدهشة تأخذنا . فالخلاص لا يحدث أبداً كما نتوقع ومما يشير السخرية أن توقعاتنا وانتظاراتنا هى التى تعوقنا عن رؤية يسوع . فالوالدون يندهشون عندما يجدوا يسوع مع أولادهم ، والأولاد يندهشون أكثر عندما يجدونه مع والديهم . وأولئك الذين كان لهم عائلات رائعة سوف تأخذهم الدهشة عندما يجدون يسوع يوم تتخذ حياة الأسرة اتجاهاً معاكساً وتنقلب إلى الأسوأ . وأولئك الذين نشأوا وسط عائلات فاسدة شريرة سوف تأخذهم الدهشة لأن يكتشفوا أنه يستطيع أن يرفع تأثير هذه التنشئة. وبحسب ما جاء فى النص الكتابى نستطيع القول بأن يسوع لا يوجد حسب ما اعتقدنا أنه لابد أن يكون . وهذا يكفى لأن يجعلنا نستشيط غضباً ، فإنه بأسلوب مريم « يا يسوع لماذا فعلت بنا هكذا ؟ » وبأسلوبنا نحن نقول « يايسوع لِم لم تنقذ زواجى من التفكك ؟ يا يسوع لِم لم تنقذ أبى من مرضه ؟ يا يسوع لقد كنت أبحث عنك وأطلبك معذباً وقلقاً ؟ ».

إن رد يسوع على هذا السؤال مدهش ولافت للنظر : « لماذا كنتما تطلبانى ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فيما لأبى ؟ فقد كانت الإجابة كما لو أنه يريد القول : « لماذا تبحثان عنى وتطلبانى ؟ » ألا تعلمان بأننى سوف أكون فيما يخص مهمة الخلاص ؟ » . عادة لا يحدث ذلك ما لم نتوقف عن البحث عن يسوع فى الأماكن التى كنا نتوقع أن يكون فيها ، إلى أن نكتشف اكتشافاً مدهشاً وهو أن هناك ما هو أكثر بالنسبة لله يفوق ما نعلمه ، فهو لديه عملاً أكثر وهداية أكثر ، لحياتنا يفوقان ما قد نلناه وقبلناه .

إن إجابة مريم الأخيرة قد دونّها لنا الكتاب المقدس ، فقد هدأت ولم تعد غاضبة . إذ يخبرنا الكتاب المقدس بأنها « كانت تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها » وقد كانت نفس الاستجابة عينها فيما يتعلق بقصة الرعاة يوم وُلد يسوع ، فقد تفكرت فى الاختبار فى قلبها ولم تفهمه فهماً تاماً .

ربما حدث الكثير من تلك الأمور بالنسبة لمريم ، فقد بلغ الأمر الذروة فى عيد الفصح بعد واحد وعشرين سنة ، يوم وجدت ابنها على عود الصليب . فقد كان مكاناً آخر لم يكن من المفروض أن يكون فيه . لكنه كان المكان الذى تم فيه عمل الله حيث حدث خلاصنا . إذا تجاوبنا معه ، وإذا كنا قد تفكرنا به فى قلبنا وأحببناه حباً عميقاً .

هذه قصة لها أهميتها بالنسبة للكنيسة لكى تقصها على نفسها مراراً وتكراراً . فهى تذكرنا بأنه حتى فى الأسرة الجديدة ، سوف لا يكون مخلصنا قابلاً للتنبؤ به . وهو مهتم بخلاصنا لدرجة أنه لا يوجد فى الأماكن التى تتوقع الكنيسة أن يكون فيه . فإذا كنا على يقين بأنه مهتم فى المقام الأول بحياة أسرتنا الخاصة فسوف تأخذنا الدهشة عندما نجده عاملاً خارج الكنيسة . فإذا كنا مقتنعين بأنه المخلص الوحيد للفقراء والمعوزين فى المجتمع ، فسوف نندهش عندما نجده محباً للكنيسة كمؤسسة اجتماعية ومنهمكة بالشئون المادية بدلاً من الشئون الروحية . وأما بخصوص الأمر الوحيد الذى يمكن أن نتنبأ به هو أنه سوف يبحث طالباً أولئك الذين هم فى حاجة إلى مخلص . وعندما يجدهم ، وقبل أن يطهِّرهم أيضاً ويقدم لهم اللاهوت الصحيح ، يدعوهم إخوتنا وأخواتنا . ذلك هو عمله . وهذا يجعله عملنا نحن أيضاً .

الفصل السابع

متروك من الله

إن أشد خوف يكمن وراء أية خسارة هو أننا قد تُركنا من قِبل الله الذى كان لابد وأن يخلصنا . فإن لحظة التحول أو التغير فى الهداية المسيحية تأتى عندما نتحقق بأن الله أيضاً قد تركنا وتخلى عنا . عندئذ نكتشف بأنه ليس الله ، بل صورتنا عن الله هى التى قد تركتنا وتحولت عنا . وهذا يحررنا لكى نكتشف المزيد عن سر الله أكثر مما نعلم . وعلاوة على ذلك فالتغيير ممكن .

عندما يتأخر يسوع جداً عن المجئ

إننا لا نميل إلى الاعتقاد بأن علاقات يسوع بأصدقائه كانت عابرة . ونحن نعلم بأن التلاميذ قد تبعوه فى كل أرض إسرائيل . فقد كانت حوله جميع أنواع الناس الذين كانوا بحاجة إلى الشفاء والطعام وتلبية مطالب الحياة. لكن هؤلاء لم يكونوا من نوع الأصدقاء الذين يفاجئونه بحضورهم لتناول الغذاء معه لأنهم من نوع الأصدقاء القريبين . على أن الكتاب المقدس يبيِّن بأنه كان له بحق أصدقاء حميمين . وقد كان من بين هؤلاء الأصدقاء مريم ومرثا وأخاهما لعازر ، وقد ذهب إلى بيتهم كثيراً . ومن الواضح أنه كان يقيم عندهم كلما كان فى بيت عنيا . فقد « كان يسوع يحب » هذه العائلة ، (يو ١١: ٥) .

وذات يوم عندما لم يكن يسوع فى بيت عنيا ، أصبح حبيبه لعازر مريضاً بمرض مميت . وقد أرسلت الأختان مريم ومرثا إلى يسوع قائلتين « ياسيد هوذا الذى تحبه مريض » (يو ١١:٣) . إن رد يسوع على رسالتهما تدعو للغرابة والدهشة . وفى ترجمة الملك جيمس الجديدة N.K.J.V تقرأ « وكان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر . فلما سمع أنه كان مريضاً مكث حينئذ فى الموضع الذى كان فيه يومين » (يو ٣ : ٥). ولأن يسوع كان يحب هذه العائلة فإنه لم يندفع بسرعة لينقذ لعازر .

هذا هو الضد والنقيض لما نتوقعه من يسوع . لماذا لم يسرع يسوع فى الذهاب ليعتنى بحبيبه ؟ كيف يمكن للعازر المحب أن يجد مبرراً ليسوع لأن يتخلى عنه ؟ . ربما يكون السبب لأنه بما أن الله فى الجسد فإن يسوع يوضح مرة أخرى بأن طرق الله للمحبة ليست كطرقنا ، حيث أن يسوع لا يسرع إلينا .

ولما وصل يسوع ، وجد أن لعازر كان قد صار له أربعة أيام فى القبر . فقد حضر المخلص متأخراً . بل قد أبطأ جداً في المجئ . هوذا لعازر قد مات . إذ كانت الأمور تسير من سيئ إلى المتعذر والمستحيل .

أحياناً تسحقنا الحياة ونشعر بأننا يمكن أن نستفيد بمساعدة صغيرة . لذلك نصلى لكى تصبح صحتنا على ما يرام ، ولأجل زواجنا لكى ينجح ، ولأجل أن نوفق فى عملنا الذي كان قد تحول إلى الأسوأ . ليس هناك خطأ فى الصلاة لأجل هذه الأمور ، غير أنها ليست ما يخص خلاصنا . فلا ننتظر من يسوع أن يخلصنا بواسطة ما تعلمناه بأن نعتمد على الأشياء التى نخشى من ضياعها وخسارتها . إنه يحبنا حباً شديداً حتى إنه لا يدع لصحتنا وزواجنا أو عملنا أن تصبح هذه الأشياء هى المنقذ لحياتنا . وهو سيرفض كل المجهودات التى تبحث عن الخلاص وتطلبه من أى شئ أو أى شخص آخر غير الله . لذلك فإن يسوع يتأخر عن المجئ ، وهو يراقبنا ونحن ننطلق فى الدخول إلى أزقة وشوارع مسدودة ، وهو يسمح لأن لا تستجاب مطالبنا .

أن نقبل يسوع كمخلص يعنى الإقرار والاعتراف به على اعتبار أنه نصيرنا ومصدر عوننا الوحيد . ليس للحصول على ما نريد ، بل نصيرنا ومعيننا الحقيقى الوحيد . إننا عندما نطلب مخلصاً ، نحن لا نطلب غنائم أو مكاسب ، ولكننا نطلب معجزة . ونحن لا نستطيع أن نكتشف هذه المعجزة إلى أن يكون لعازر قد مات ، والزواج قد انتهى ، وتفككت العلاقات الزوجية، والوظيفة قد ضاعت والصحة قد تهالكت . فما كنا نخاف من أن يحدث فقد حدث .ونشعر أن يسوع قد هجرنا وتخلى عنا فى وقت حاجتنا إليه .

ولما سمعت مرثا بمجئ يسوع تُركت مريم فى البيت وخرجت مسرعة فى الطريق للقائه . وقالت : « يا سيد ، لو كنت ههنا لم يمت أخى » ثم يجيبها يسوع قائلاً لها « سيقوم أخوك » . ثم تمسح الأخت الحزينة المجروحة بعض دموعها وتنهداتها وتقول له : « أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير » (انظر يو ١١ : ٢٠-٢٤) .

إنه لأمر مدهش ولافت للنظر وهى فى حزنها أربعة أيام ، وبعد ما جاء يسوع أخيراً إلى البيت ، بدأت مرثا تناقش معتقداتها معه . إننى أرى ذلك الأمر دائماً ، فعندما يستقبل الراعى مكالمة تليفونية تقول : « تعال سريعاً إلى المستشفى فهو يحتضر » ، فغالباً ما تتكلم الأسرة مثل مرثا . إذ لا يبدو عليهم الاهتمام فى مناقشة شدة حزنهم . إنهم يريدون فقط أن اذكّرهم بما يعرفونه بالفعل ، وما سمعوه مراراً وتكراراً فى الكنيسة أيام الآحاد .

الرب راعىّ فلا يعوزنى شئ .... إن سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً .... اننى أؤمن بالرب الآب القدير خالق السماء والأرض وبربنا يسوع المسيح ابنه الوحيد ... وإننى أؤمن بقيامة الجسد وبالحياة الأبدية . وبينما عادت مرثا إلى عبارة من الإيمان ، قاطعها يسوع ليعلن لها قائلاً « أنا هو القيامة والحياة ... أتؤمنين بهذا » (يو ١١ : ٢٥ - ٢٦)

إننا منذ سنوات وسنوات نحضر عظة بعد عظة . ونستطيع أن نقرأ نصاً كتابياً ونسمّعه من الذاكرة . ونحن نعلم الكثير عن الإيمان ، ونحن ندعو بسهولة بيسوع القيامة والحياة . ولكن يحين الوقت بالنسبة لكل واحد منا حينما يقاطعنا يسوع لكيما يوجه إلينا هذا السؤال : « أتؤمنون بهذا ؟ أتؤمنون بما تعرفون ؟ » . إن الأمر يختلف كل الاختلاف عندما يموت حبيبكم لعازر لأن الإيمان فقط هو كل ما تملكون

فعندما يموت لعازر ، نُلقى إلى الغموض ، وإلى إيمان يتجرد تماماً من أى شئ يمكن أن يقدم لنا عزاء وتشجيعاً . فهذا هو الإيمان الحقيقى . إنه عبارة عن إيمان يتمسك تماماً بصليب يسوع بينما يتضاءل كل شئ آخر . إن الإيمان هو ما يربطنا بالمسيح يوم يكون كل شئ قد انقضى ، آخذاً معه أعظم توقعاتنا وانتظاراتنا التى نتعلق بها .

وهذا يتركنا فى حالة عقلية أقل قناعة بالنسبة لإيماننا ، ولكن مع حب أكبر للمخلص . ومن الجانب الآخر من الموت، فنحن نكتشف بأنه ليس ما نعرفه هو الذى يخلصنا ، بل الشخص الذى نحبه ، والأكثر أهمية فإن الذى نؤمن به هو الذى يحبنا . إذاً فالسؤال الحقيقى بالنسبة للمؤمنين هو: « أتؤمن بأن المخلص يحبنا ؟ » . إن هذا الإيمان يكون كافياً لأن ندرك حقيقة أنفسنا وأهدافنا الخفية ، حقاً إن الإيمان فى محبته لنا قد يكون هو كل ما نملك .

ثم قالت له مرثا : « نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح المخلص » (انظر يو ١١ : ٢٧) . ويتضح من النص الكتابى فيما بعد بأن مرثا لا تفهم فهماً كاملاً ما يعنيه ذلك . لا بأس ، فمن يستطيع التنبؤ بما يعنيه بأن يسوع سوف يخلصنا ؟ فإنه يكفى من الآن أن نؤمن تماماً بيسوع .

وما أن وصلت مريم ، أخت مرثا ، إلى حيث كان يسوع ، لم يتكلموا فى اللاهوت . بل بكوا فقط . وإنه من اللافت للانتباه بأنها تقول أيضاً بأنه كان ممكناً أن يكون لعازر على ما يرام لو لم يكن يسوع قد تأخر عن المجئ . إن كلتا الأختين قد خاب أملهما فى يسوع . فإن حزن مريم لم يكن ليصل إلى مداه من خلال معتقداتها بل من خلال قلبها . ولما جثت عند قدمى يسوع ، وهى تبكى ، كانت دموعها تتساقط كصلوات وتضرعات . فما أن رآها يسوع تبكى أخذ يبكى أيضاً .

إن هذه صورة من أعظم صور يسوع الدافعة على الرجاء والأمل . إذ يمكن استثارة مشاعر الله . فقد « انزعج يسوع بالروح واضطرب » (يو ١١ : ٣٣) فما أن نكتشف بأن الله يشاركنا وجدانياً فى دموعنا ويفيض قلبه بالحنو والشفقة علينا ، يصبح العالم مكاناً غير قابل للتنبؤ به إلى حد بعيد . فمن يدرى ما قد يحدث ؟ فإن هذا هو أهم شئ ندركه ونسلم به عندما يكون لعازر قد مات . فإن كل ما يُترك هو رجاؤنا فى إله يمكن أن تستثار مشاعره ويفيض قلبه بالشفقة . وهذا هو كل ما نحن بحاجة إليه ؟.

لقد رأى بعض المفسرين والشراح للكتاب المقدس بأن يسوع أخذ يبكى لكونه قد علم بأن الإجابة على سؤاله السابق « أتؤمنين ؟ » لم تكن إجابة حقيقية . إننا نؤمن بأن يسوع يستطيع أن يقدم يد العون قبل الموت والخسارة ، ولكن ليس بعدهما . وواضح أننا نؤمن بأن الموت أكبر وأعظم من يسوع .

إن المبرر المنطقى الذى من أجله يكون الإنجيل هو هذه الأخبار السارة هو أن الله ليس محدوداً حتى ولو لم نؤمن . فتقدم يسوع وجاء إلى القبر الذى دُفن فيه حبيبه وصرخ بصوت عظيم قائلاً: « لعازر هلُمّ خارجاً » . وبينما كان الميت من قبل يخرج من القبر ويظهر للناس ، قال المخلص « حلّوه ودعوه يذهب » . (يو ١١ : ٤٣ - ٤٤) .

وكما كان الحال مع لعازر ، هكذا نحن الذين قد تُركنا من جانب يسوع سوف نجد أيضاً أن نفس هذه الحياة تخلق القوة فى العمل . فإن يسوع لا يخلق لنا حياة جديدة لأن إيماننا عظيم، لكنه يخلق شيئاً جديداً فقط لأنه يحبنا .

من الممكن أن يكون الأمر مرعباً لأن نقبل ذلك المخلص العظيم . فأن نسمع المخلص يدعونا بأن نخرج من قبر اليأس والحزن المظلم ، فإن النداء يمكن أن يكون مروعاً إذا كنا قد ثبتنا فى الاستسلام لليأس والحزن . فإنه لكى يفك المسيح قيدنا ويحررنا من الألم ومن كل قيد طوقنا به أنفسنا فذلك أمر خطير ، لكوننا لا ندرى إلى أين سيقودنا . فإذا كنا لا نستطيع حتى أن نضع الموت فى حسباننا ، عندئذ سنحيا حياة لا يمكن بالفعل التنبؤ بها فى عالم غير قابل للتنبؤ به .

إن هذا يعد رجاءً أعظم مما يريده معظمنا . فإنه بحسب ما جاء فى هذا النص الكتابى الوارد فى إنجيل يوحنا ، فعند هذه النقطة تآمر رئيس الكهنة والفريسيون وعزموا على أن يقتلوا يسوع . فإذا كان يسوع يقدر أن يغلب الموت ، فلا شئ إذاً يكون يقينياً مؤكداً . ربما يكون ذلك لغزاً غامضاً إلى حد بعيد جداً . إننا نطلب مخلصاً يعيننا على إبطال الموت ويعطينا ما نريد ، إلا أنه عندما يأتى نكتشف بأننا لم نكن نريد الله بحق أن يصبح مهتماً .

فمع الله يتعذر تجنب التغيير فى حياتنا ، وأما بدون الله ، يكون التغيير مستحيلاً . فلا يهم إلى أى مدى نريد أن نتغير ، فنحن لن نرغب فى التغيير أبداً ، قبل أن ندرك الله ونراه بصورة مختلفة .

ما الذى يتغير عندما يتم التجديد ؟

لقد كنت راعياً مدة طويلة تكفى لأن أشهد شيئاً من نماذج النمو الروحى المسيحى . ومثل كل النماذج التى هى عبارة عن تصميم أو قانون عام ، وكما هو متبع مع كل الأحكام والقوانين العامة ، هناك استثناءات من غير شك . على أن هناك نموذجاً لا يزال ينطبق على صحة الاختبار العادى لمسيحيين كثيرين .

ففى بدء الحياة المسيحية ، تكون معرفة الناس محدودة ، إنهم فقط يرون يسوع ويقبلون نعمته وفضله . إنهم يحبونه لأنهم اكتشفوا بأنه يحبهم . وهم مثل المحبين المحدثين ، يرغبون فى أن يخبروا كل شخص عما وجدوه . إنهم مصابون بدوار الفرح على ما قد حدث بالنسبة لهم ،

حتى لو كان ما فهموه قليل.

فإن كان المسيحيون المحدثون فى إيمانهم محظوظين ، فإنهم سوف يجدون كنيسة سوف تجتذبهم إلى الأسرة وتبدأ فى عملية المعرفة والتكوين الطويلة لتشكيل إيمانهم . وهذه هى المرحلة الثانية لنموهم الروحى . فقبل ذلك كانوا يتعلمون بالتدريج إلى حد بعيد . فقد صرفت الكنيسة ألفى عام تتعلم كيف تغرس معتقداتها فى أذهان الناس ، وقد يكون الأمر مفهوماً بأننا قد أصبحنا أكفاء وصالحين تماماً فى تعليم المهتدين الجدد عما يؤمن به المسيحيون .

أخيراً يكتسب تلاميذ المسيح قدراً كبيراً من المعلومات والحقائق الدينية . ومع ذلك ، فإنهم يدركون إلى حد ما بأن هذه المعلومات والحقائق التى اكتسبوها لا تحيى نفوسهم ، إذ قد عاد العطش القديم إلى ماء الحياة الأبدية . فعلى الرغم من أن عقولهم ممتلئة بالمعرفة ، فقد صارت قلوبهم فارغة مرة ثانية .

إن هذا الأمر يحث المسيحيين ويدفعهم إلى المرحلة الثالثة ، حيث يقضون بقية حياتهم ، وهم يحاولون العودة لمجرد رؤية يسوع وقبول النعمة . إنهم يصلون إلى نقطة حيث كانوا قد شاركوا فى مجادلات دينية كثيرة للغاية لا تخرج عن مجال كم عدد الملائكة الذين يستطيعون أن يتحركوا على رأس دبوس . لقد ملأوا فراغات العديد جداً من الكراسات العملية لدراسة الكتاب المقدس التى تحتوى على تعليمات للتنفيذ وفراغات للكتابة فيها ، ولقد تعلموا عن طريق السماع من منبر الكنيسة الكثير جداً من دراسات الكلمات اليونانية . ولقد قاموا بتنفيذ الكثير جداً من برامج العمل التبشيرى ليخدعوا أنفسهم ويتوهموا مقدرة تعديل وضع المعوز والمسكين وعلاج مشكلته . لقد رأوا الكثير جداً عن الكنيسة ، كمؤسسة تقوم على الخدمة الذاتية لكى يظلوا يرونها على اعتبار أنها جسد المسيح . وذات يوم يكتشفون أنهم قد فقدوا رؤية يسوع .

إن هذا الأمر يضع جدول أعمال لبقية حياتهم . ولا يعنى ذلك أنهم يتوقفون عن الاشتراك فى العمل والخدمة فى الكنيسة أو يتوقفون عن التعلم . فقد يصبحون فقط قليلى التحمل لأى شئ لا يعينهم على الاقتراب إلى يسوع . إنهم مصممون على أن يجدوا حبهم الشديد له مرة ثانية . والآن وهم يتعهدون بالاشتراك فى مهمة تبشيرية ، لا لإنجاز شئ ما ، بل لكى يجدوا يسوع فى الأماكن التى يظنون بأنه سيكون موجوداً بها . وإذا درسوا علم اللاهوت ، فلا يكفى أن يملأ تماماً عقولهم ، بل لابد وأن يلهب الآن قلوبهم ويثير عواطفهم . والمكان الذى يتعبدون فيه لا يمكن

أن يكون بعد مدرسة للقديسين ، لأنه يجب عليهم الآن أن يتم فحصهم في مستشفى الخطاة حيث يستطيع أولئك الذين تاهوا وضلوا السبيل مبتعدين عن الله أن يتجددوا ويرجعوا إلى الله ويشفوا من أمراضهم التي توقع في النفس شعور الوحشة

ولا يعد هذا الأمر تفسيراً ساخراً مشوباً بالشك بخصوص التهذيب المسيحى ، لأن المعرفة التي كانوا قد اكتسبوها هي معرفة ضرورية . فهي نافعة للروح القدس ، الذى لابد وصمم على أن يحيى رؤيتهم عن المخلص . فإنه كلما كان تحصيلهم من المعرفة وكلما كان عمق الحقائق الكتابية التي يكتشفونها ، كلما يصبحون مسيحيين متضعين بواسطة سر الله العظيم . إنه شئ يشبه علاقة الزواج . وإننى أجد أن حديثى الزواج يتظاهرون بالألفة وعدم الكلفة مع بعضهم الآخر إلى حد بعيد جداً . فعندما يتجادلون يصرحون بأمور مثل « إنك دائماً تفعل هذا الأمر » غير أننى استمعت مصادفة من أكثر من زوج وزوجة مسنين فى كنيستنا يصرحون قائلين « لافرح أو مداعبة ؟ إننى لم أعرف ذلك أبداً عنك ».

وإذ تواجه المسيحيين معرفتهم المحدودة ، فإنهم يختبرون أيضاً محبة عظمى للإله الذى لن يتخلى عنهم ولن يتركهم ، حتى عندما كانوا يعيدون الإله بالصورة المرسومة بشكل لاهوتى للإله الذى كان يتخلى عنهم ويتركهم باستمرار . فإنه عند هذه المرحلة الثالثة للنمو ، يوم أن سلموا بقية حياتهم لاستعادة رؤية يسوع ، حتى إنهم أخذوا أخيراً وبعد طول انتظار لأن يتغيروا حقاً إلى خليقة جديدة . وهذا لا يعنى بأنه لا يمكن أن يكون هناك تغيير فى حياة المسيحى فى بداية الطريق ، لكنه تقدير تقريبى للتحول والتغيير المعجزى الذى يعتبر ممكناً لأولئك الذين كانوا قد توقفوا عن قراءة الكتاب المقدس كما لو كان مجرد كُتيب للتوجيه والتعليم لإحداث تغييرات على مسئوليتهم دون مساعدة أو إرشاد .

وفى مطلع رحلة الإيمان المسيحى يمكن أن نتغير بسهولة ، ولكن غالباً ما يكون ذلك عبارة عن استبدال نوع من القهر بآخر لا يقاوم . فإن من كانوا يشتاقون إلى القوة والسلطان قبل أن يلتقوا بيسوع يجدون بسرعة مراكز القوة والسلطان فى الكنيسة . وأولئك الذين تهربوا ذات يوم من مشكلاتهم فى ثقافة تتسم بإدمان المسكرات وتعاطى المخدرات يمكنهم الآن الفرار إلى ثقافة ثانوية مسيحية ، حيث تُقدم وسائل أقل هدماً للإبقاء على فقدان الحس وتفادى الواقع وتجنبه . إنه بمثابة تحسن ، إلا أننا نستبدل أساساً مجموعة من المخدرات بأخرى . فأولئك الذين كانوا

مهذبين قبل البدء فى رحلتهم إلى الإيمان المسيحى يزمعون الآن أن يصبحوا مسيحيين مهذبين وأما أولئك الذين كانوا حمقى قبل الدخول فى الإيمان المسيحى يزمعون الآن أن يصبحوا حمقى يدرسون قدراً كبيراً من علم اللاهوت .

ويظل هذا الأمر إلى أن نسأم من الأشياء التى نقوم بها لأجل أنفسنا فى الحياة المسيحية مما يدفعنا إلى نعرِّض أنفسنا إلى تغيير حقيقى ، الذى لا يمكن أن يتم إلا بواسطة الله . وسوف لا تنفتح أنفسنا إلى ذلك النشاط المقدس قبل أن نستسلم ونخضع لتوجيه الله من خلال كل المعلومات والحقائق الكتابية التى اكتسبناها عنه . ولكن ما أن يتوقف كل ذلك ونكتشف بأن الله سر ، نصبح منفتحين لهذا السر فى حياتنا الخاصة أيضاً .

أخيراً نحن متأهبون لأى شئ . . إذ كنا قد توقفنا عن إعادة ترتيب خطايانا ، لأننا كنا قد توقفنا عن إعادة ترتيب الصورة التى كوَّناها عن الله . فقد اعترفنا بأننا لا نفهم إلهنا ، فما بالك وفهم أنفسنا . فإن كل ما نستطيع قوله هو :« اللهم إرحمنى أنا الخاطئ ». وها نحن الآن مستعدون لأن نقبل تغيير الله لحياتنا .

لقد شاهدت معظم الناس الذين تصيبهم الأفكار القهرية يستسلمون أخيراً محاولين أن يصححوا أوضاع الحياة ويفهمونها فهماً واضحاً . إنهم لا يستطيعون تفسير ما حدث ، غير أنه كان يتضمن شيئاً ما فيما يتصل للاستسلام لعبادتهم لإله كثير المطالب . لقد شاهدت أكثر الناس ذكاءً بيننا يصلون فى النهاية إلى مرحلة تتسم بالفرح والابتهاج فى جهلهم الشديد ، لأن المعرفة لم تعد تحول بينهم وبين اختبار الله . وهم يصرحون لى بأن الفرح قد وُلد من التحقق بأن الله واصل الظهور والحضور فى أماكن تتجاوز نطاق حدودهم اللاهوتية . ولقد شاهدت أيضاً حمقى يصبحون شفوقين رحماء لأنهم تخلوا عن إلههم الغضوب بعدما تخلى هو عنهم تماماً . وها هم يمكنهم الآن أن يكتشفوا إله الرحمة ، الذى يشكِّلهم ويحوِّلهم إلى خدامه الرحماء .

كيف حدث هذا ، ومتى حدث ، ولماذا حدث ، الحقيقة إنه ليس لديهم إجابات على هذه الأسئلة ، والواقع أنه ليس لديهم اهتماماً كبيراً فى توجيه هذه الأسئلة . إنهم مشغولون للغاية فى النظر إلى جمال الرب .

لقد قال داود بأن الأمر الوحيد الذى كان قد تعلم أن يطلبه من الرب هو أن يقضى حياته فى عبادة الرب . فإن كل ما كان يلتمسه الآن هو « أن ينظر إلى جمال الرب ويتفرس فى هيكله » (مز ٢٧ : ٤) . شيئاً ولم يكن مصادفة أن أتى النظر إلى جمال الرب أولاً بالنسبة لداود . فإن كنا لن نرى الله حقاً فى جماله الغامض فسنظل نسأل أسئلة خاطئة . وإذا كنا قد سألنا الأسئلة الخاطئة عن الله فمن المؤكد بأننا سوف نسأل الأسئلة غير الصحيحة عن أنفسنا .

إننا لم نكن فى وقت ما على خطأ أكثر من الوقت الذى سألنا فيه أنفسنا فيما إذا كان لنا إيمان بالله . فقد قال سى.س. لويس » بأنه عندما سأل نفسه ما إذا كان له إيمان بدأ يفقده ، لأنه نظر إلى إيمانه وليس إلى الله . إن أفضل طريقة لتقوية الإيمان هى عدم فحصه ، بل التطلع إلى ذاك الذى نؤمن به . وإذ نكون مركزين أنظارنا تركيزاً شديداً على الإيمان فإن ذلك يشبه محاولاتنا فى أن نحسِّن رؤيتنا وذلك بخلع نظاراتنا لننظر إليها . فالنقطة الأساسية هو أن ننظر بواسطتها وليس إليها . فإذا ما نظرنا من خلال نظارات الإيمان نكتشف عمل الله الملهم ، بل وربما عمل الله المخيف . عندئذ نتحقق بأنه لم يكن إيماننا أبداً هو الذى خلصنا وغيَّرنا ، بل الإله الذى لا ندركه .

المسيحيون الذين يتوقفون عن الإيمان

نشأ (توم) وتربى فى بيت مسيحى . وقد عقد العزم على أن يصبح مسيحياً عندما كان فى الثانية عشرة من عمره ، وقد اعتمد فى كنيسته المعمدانية يوم الأحد التالى . ثم أصبح أخيراً قائداً لاجتماع الشباب الذى ينتمى إليه ، كان مشتركاً فى فريق الترنيم بالكنيسة ولم يكن الأمر غريباً على أى إنسان عندما التحق بكلية اللاهوت . وأثناء وجوده فى كلية اللاهوت كان توم يعاون فى اجتماع الشباب فى الكنيسة المحلية . وعلى ما يبدو كان لديه وزنة متميزة للعمل مع من هم فى سن المراهقة . وبعد التخرج من الكلية قُدمت إليه عروض كثيرة من الكنائس وجماعات كنسية مماثلة ليعاون مباشرة فى خدمات اجتماعات الشباب .

وفى عمله الجديد اختبر توم نجاحاً عظيماً بكل المستويات . فقد أحبه الأولاد ، وقدَّره الآباء والأمهات ، وقد نمت مجموعة الشباب الذين يخدم بينهم ، وتزوج زميلته التى أحبها وهو فى الكلية، التى كانت قد خصصت نفسها لتوم وأيضاً للخدمة الكنسية التى شاركا فيها. وسارت

الأمور على ما يرام لمدة عشر سنوات .

وذات يوم أذهل توم المشرف المسئول عندما قدم استقالته ، وصُدم المشرف صدمة شديدة وسأله عن سبب الاستقالة ، ولما أراد المشرف أن يقول « هــل كانت بسبب اقترافك خطية أخلاقية ؟ ، ابتسم توم بهدوء وقال « كلا إن السبب ليس على ما تظن . إنه أسوأ من ذلك . فلست أعلم ما إذا كنت لا أزال أؤمن بكل شئ أنادى به . ولم أعد متيقناً من يكون الله ، وأنا لا يمكننى أن أتظاهر بالإيمان » . وبعد سلسلة من المجادلات والمناقشات اللاهوتية الطويلة مع المشرف ، وبعد محادثات حتى ساعة متأخرة من الليل مع زوجته عن حصوله على إجازة مفتوحة ، ترك توم الخدمة ، ولم تكن هناك أزمة معينة فى حياته عجلت بفقدانه الإيمان ، فكل ما فى الأمر أنه توقف عن الإيمان .

وبعد إتمام تدريبه الخاص بالدراسات العليا ، حصل توم على وظيفة بمصنع لصناعة المواد الخام وظل مبقياً على عهود الود والمحبة لأسرته . فقد كان متحمساً على تنشئة أولادهم فى كنيسة محلية ، وواظب على حضور العبادة مع زوجته التى أصبحت قائدة فى الخدمة الكنسية . ففى كل يوم أحد يقف شعب الكنيسة لتلاوة قانون الإيمان الرسولى ، ولا يستطيع توم أبداً تلاوة الكلمات الافتتاحية القائلة « أؤمن باله واحد » .

إنه لم يتعود أبداً أن يعيش بدون إيمان . فإذا ما وجه إليه سؤال قد يجيب قائلاً بأنه كان يبحث عن الله ، وأيا كان الأمر فقد كان ذلك جوهر وأساس حياته . لقد كان موفّقاً تماماً فى عمله غير أنه لم يجد فيه معنى أو هدفاً كبيراً . فقد قام بعملٍ طيب فى المجتمع ، إلا أن هذا العمل لم يمنح أى رجاء للذين خدمهم . وفى ليالٍ كثيرة قد يجئ إلى البيت عائداً من العمل لكى يطّلع على كتب الأدب أو الفلسفة أو اللاهوت أو أى من كان له وجهة نظر عن الحقيقة . استمر فى البحث والدراسة سنوات طويلة ، ولم يكتشف شيئاً من الحقيقة ، ثم تعب أخيراً ووصل إلى حالة من الإنهاك والتعب النفسى والعقلى الشديد . إذ قد سئم من شكوكه وتعب من بحثه للوصول إلى الحقيقة . وبينما كان يشرح ذلك لزوجته ، كان قد استسلم للحقيقة القائلة :« لم يكن هناك شئ آخر ينكشف هناك »

ولسبب الالتحاق بعمل جديد تحرك توم وأسرته إلى مجتمع جديد . وها هو قد عاد يرافق زوجته فى الذهاب إلى الكنيسة . ولكن هذه الكنيسة كانت مختلفة . إذ كان الواعظ راعياً

أشيب الشعر واسع الاطلاع ، ونادراً ما كان بحاجة إلى أن يكرر من على المنبر الكلام المسيحى المبهم المطوَّل . فقد كان يعظ بصدق وأمانة عن الشك والإيمان كما لو كانا متلازمين يتمم بعضهما الآخر وليسا منفصلين . كان يستشهد بلا شك بمفكرى الفلسفة الوجودية الفرنسيين ، إلا أنه كان يختتم عظاته بحب عميق للرب يسوع . وقد تساءل توم ما الذى جعل هذا القسيس يتماسك ويصمد .

وفي صباح يوم أحد كان النص الكتابى للعظة من الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا. فبعد ما كان يسوع قد أجرى معجزات وآيات كثيرة مشتملة على معجزة إطعام الخمسة آلاف رجل والمشى على الماء ، بدأ جمع كثير من التلاميذ يتبعونه . عندئذ تكلم يسوع ببعض الكلام الذى يصعب فهمه عن من يكون وإلى أين كان مزمعاً أن ينطلق . فأخذ معظم أتباعه الجدد يتذمرون لكونهم لم يقدروا أن يفهموه ، لذلك رجعوا إلى الوراء وتركوه . عندئذ التفت يسوع لتلاميذه الاثنى عشر وسألهم قائلاً: « ألعلكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا ؟ » فأجابه بطرس قائلاً : « يارب إلى من نذهب ؟ كلام الحياة الأبدية عندك » (يو ٦ : ٦٧ - ٦٨) . فقد كان واضحاً بأن التلاميذ لم يفهموا هذه الأقوال على نحو أفضل من الجمع الذى كان يمشى وراءه . فكل ما عرفوه بأنه لم يكن هناك شئ آخر .

ثم جلس توم على المقعد وأخذ يبكى . إذ قد ظن بأن هذا كل ما فى الأمر ، فلم ينته بحثه الطويل باكتشاف واضح ينير بصيرته بالعلم والمعرفة بل بهمس أو صوت خفى مُتعب . وبدلاً من التقدم العقلى ولمعرفة الله الذى كان قد سعى جاهداً إليه سنوات طويلة ، فقد أدرك الآن بأنه قد يرجع إلى الإيمان لمجرد أنه لم يكن هناك أى مكان آخر يذهب إليه .

ومثل بطرس ، لم يفهم توم كل أقوال يسوع . إذ تساوره شكوك كثيرة غير أنه يفضِّل أن يحيا كما لو أن كلام يسوع هو كلام حقيقى أنه يؤمن بأن هذا هو المخلص الوحيد . وأيضاً نظير بطرس يواصل توم اتِّباع هذا المخلص الذى لا يستطيع أن يفهمه فهماً كاملاً . فبالنسبة له يكفيه أن يتبعه فحسب .

وبعد أن أحيل القسيس الحكيم إلى التقاعد ، كنت أنا خليفته على منبره . وقد كانت فرحتى أن أرث الرعاية التى كان قد بدأها فى حياة الكثيرين ، بما فيهم أسرة توم . ولم يمض وقت طويل ، حتى اقتربت منى زوجة توم فى نهاية فترة العبادة وهى تبكى قائلة لى « خمِّن من

تلى قانون الإيمان الرسولى اليوم » .

لقد تعودت تناول طعام الإفطار مع توم من حين لآخر . وإننى أستمتع كثيراً جداً بأحاديثنا لأننى أحبه كثيراً وأعجب باستقامته وكمال شخصيته . وقد كان علىّ أيضاً أن أرقب كيف ينمو فى الإيمان استجابةً لصمت الله .

صمت الله :

كثيراً ما يكون الله صامتاً حين نفضّل أن يتكلم ، وهو يتدخل ويقاطعنا أثناء الكلام حين نفضّل أن يظل صامتاً . إن طرقه ليست طرقنا .

أن نحيا مع إله الخليقة المقدس يعنى أن نواصل حياتنا مع إله لا يفسرٌ ذاته لنا . وهذا الأمر يعنى أننا نعبد إلهاً كثيراً ما يكون غامضاً بل غاية فى الغموض الذى لا ينسجم مع أسلوبنا من أجل حياة أفضل . وهذا الأمر يعنى فى مفهومنا أن الله ليس هو أفضل صديق لنا ، وليس محبوبنا الكتوم الذى يحفظ السر ، وليس تعويزة لحسن الحظ... إنه الله .

إن المقدس لا يمكن أبداً أن يكون تحت أمر تضرعاتنا وصلواتنا المتحمسة ، وإطاراتنا اللاهوتية ، وحاجتنا الشديدة لأن يؤيدنا شخص ما ويناصرنا . وسوف لا يكون الله أبداً مقيداً. وسوف لا يكون آمراً . ولهذا السبب كثيراً ما نتحول ونلجأ إلى آلهة أخرى أكثر طوعاً وسهلة الانقياد. والبعض يبحث عن المقدس فى العمل أو فى العلاقات بين الناس أو فى الطبيعة . وفى حالة خيبة أملهم فهم ينغمسون فى الفتنة والسحر الذى يصيبهم بالهوس حيث يظهر هذا بوضوح فى حركة (العصر الجديد The New Age Movement) . وحينما نسأم من ذلك ، سوف نتجه إلى شئ آخر ننتظر منه أكثر . إن المشكلة تكمن فى أن آلهتنا البديلة لا تشبع حاجاتنا . وذلك لأننا قد خُلقنا ونحن فى شوق إلى المقدس . لأنه ليس شئ آخر سوف يفى بالغرض .

فقد كان البحث عن المقدس الذى دفع توم بعيداً وأقصاه عن الإجابات المعادة والمكررة بصورة جيدة للغاية والتى كانت إلى حد بعيد عبارة عن جانب من خلفيته المسيحية . فقد تطلع إلى علاقة بشئ مقدس حقاً ، وكل ما كان يملكه هو استقامة الإيمان ، فإذا كان الإيمان هو هو مجرد مجموعة من الإجابات الصحيحة، فهو ليس إيماناً بالله بل بنظام دينى . لقد كان استسلام الفريسيين المتحمس للدين هو الذى أثار غضب يسوع غضباً شديداً عليهم . وهم أيضاً كان لديهم

كل الإجابات الصحيحة ، غير أنهم لم يحبوا الله .

وعلى نحو أساسى نستطيع القول بأن مشكلة الفريسيين ومشكلتنا تنطوى على إدراك الفرق بين معرفة الله والمعرفة عن الله ، ونحن بلا شك نخلط بين الاثنين . فإن أحدهما ينطوى بداهة على معلومات وحقائق ، بينما يعتبر الآخر علاقة حيوية أساسية بالله . إن المؤرخين يستطيعون أن يكرسوا حياتهم لمعرفة كل ما يستطيعون معرفته عن ابرهام لنكولن - الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية - فيمكنهم دراسة حياته ومؤلفاته وأقواله التذكارية التى صرح بها فى خطبه ، يتجادلون مع بعضهم البعض فيما يتصل بالتفسير الصحيح لأقواله ، ولكن فى نهاية المطاف لا يستطيعون القول بأنهم كانوا يعرفونه . فإن ذلك الأمر متروك لأولئك الذين عايشوه . تعد الكنائس البروتستانتية الأفضل فى مساعدة الناس على أن يعرفوا أموراً عن الله ، أكثر مما نعمله نحن فى مساعدتهم لكى يعرفوا الله كأناس عايشوه . ولا ينبغى أن يدهشنا ذلك ، فعندما يحتاج المسيحيون حقاً إلى إيمانهم ، فسوف يتيهون سريعاً ويضلون الطريق فى البحث عن إله يستحق العبادة والسجود له إذا كانت المعرفة هى كل ما يملكونه . إننى لا أريد القول بأن رحلة توم الإيمانية هى رحلة نموذجية بالقياس إلى المسيحيين الذين يرتدون عن الإيمان . فليست المشكلة دائماً مسألة عقلية ، فأحياناً ما تكون الأزمة فى الإيمان ناشئة عن خلل أو أزمة فى الصحة أو فى الزواج . ربما صلى شخص ما مراراً كثيرة طالباً من الله أن يشفى شخصاً عزيزاً ومحبوباً لديه ، غير أن الموت قد حدث ، وصار من المحال أن يؤمن بأن الإله المحب يسمح بذلك . وكما تبدأ رحلة الإيمان بالشك . فإن العودة إلى الله والرجوع إليه هو عادة نفس الشئ . والشكاكون مثل الابن الضال ، لا يرجعون إلى بيت الأب لأنهم اكتشفوا أنهم اخطأوا . ولا يرجعون إلى البيت لأن الأب قد سعى وراءهم طالباً إياهم . لكن السبب يكمن فى أنه بعد التجول والبحث فترة من الزمن يسأمون ويعيهم التعب ، ثم يتذكرون أخيراً المكان الذى تركوه .

إن أى شخص قد اجتاز هذه الرحلة يستطيع أن يشهد على الخوف والألم اللذين تحدثهما هذه الرحلة ، ومع ذلك فهى ليست الرحلة الفريدة من نوعها . إذ ربما بطرق أقل إثارة يجب علينا جميعاً أن نأخذ طريق العودة ونأتى إلى بيت الأب لأننا نتيه جميعاً ونضل السبيل . ربما لا نضل ونحيد عن إيماننا لسنوات عديدة ، إلا أننا نحيا كما لو أنه غير حقيقى . وهناك تجربة نقع فيها عندما لا يكفينا الإيمان ونشعر أن الله لم يعطنا أية علامات معجزية تتعلق بحضوره . ولهذا

فمن الضرورى أن نمارس الاعتراف فى صلواتنا ، إذ فى هذه الصلوات نعلن فيها لله على نحو أساسى بأننا قد سئمنا لأنه لم يعطنا حتى الآن التوجيهات التى كنا نريدها منه ، ولذلك سوف نسير فى طرقنا الخاصة ، وها نحن الآن قد ضللنا بالفعل ، وهنا تكون بداية البشارة.

إن الضالين فقط هم الذين وجدوا أنفسهم بين ذراعى الأب ، وأما الابن الأكبر الذى يمكث مع الأب لا يجتاز اختباراً دينياً . إنه لأمر فى غاية الخطورة بالنسبة لحياتنا الروحية أن تحيا بحذر شديد للغاية . ففى أقوال « سيمون فايل » Simon Weil : « ليس هناك جانباً آمناً خالياً من المخاطر بالنسبة للعقيدة الصحيحة » . فلو أن الابن الضال قد عاش مقتصداً موفراً أمواله ، لما كان عليه أبداً أن يجد طريق عودته إلى بيت الأب . إذ أن رسائل التذكير التى تذكّرنا إلى أى مدى قد تحولنا بعيداً عن الله ، تجعلنا جميعاً أكثر استعداداً لأن نقبل نعمة الله ، التى هى الطريق الوحيد لنرجع إلى بيت الآب . إن النقطة الأساسية فى مثل الابن الضال ، التى كان على الابن الأكبر أن يدركها ، هى لا أن يكون صالحاً . بل أن يكون بين ذراعى الأب .

إن الأب ينتظر طوال غيابنا عن البيت مترقباً عودتنا ، وعلى استعداد لأن يقبل الذين هم على استعداد لأن يرجعوا إلى ذراعيه الممدودتين « لأنه هكذا قال العلى المرتفع ساكن الأبد القدوس اسمه . فى الموضع المرتفع أسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح » (إش ٥٧ : ١٥)

يا يسوع هل يهمك ؟

كان التلاميذ فى البحر مع يسوع فى سفينتهم ، عندما هبت عاصفة ريح شديدة فى البحر . فقد أظلمت السماء ، وبدأت الأمواج تضرب السفينة وتغمرها بالماء . ويمكننا أن نتصور التلاميذ حيث يشدون أشرعة السفينة وينزحون الماء منها محاولين أن يقودوا سفينتهم الصغيرة فى عاصفة الريح الشديدة . ربما تساءلوا كيف لهذه العاصفة أن تهب بسرعة إلى هذا الحد . وربما اعتقدوا أنه ما دام يسوع كان فى سفينتهم ، فلن يصيبهم أى شئ . لكن عاصفة الريح الشديدة وصلت إلى درجة أسوأ بينما كان يسوع نائماً فى غرفة قبطان السفينة . وعلى ما يبدو أنه قد تخلى عن عمله باعتباره ربان تلك السفينة التى تقاذفتها الأمواج .

وفى الوقت الذى يحكى فيه البشير مرقس قصة يسوع وهو يهدئ العاصفة فى (مر ٤:٣٥-٤١) نراه يبنى أحداث القصة حول ثلاثة أسئلة مهمة . فقد جاء السؤال الأول من التلاميذ عندما

أيقظوا يسوع من النوم قائلين له : « يا معلم أما يهمك أننا نهلك ؟ ».

إننا جميعاً ندرك طبيعة هذا السؤال . إذ يرن جرس التليفون ، إنها أخبار سيئة ، فقد مات أحد الأبوين . لقد انتهى زواج الابن . والورم خبيث . وإذ تنتهى المكالمة التليفونية تصبح السماء مظلمة فى وجوهنا . ثم يبدأ هبوب الرياح ، وتبدأ أمواج عاصفة شديدة تلاطم سفينتنا الصغيرة التى تدعى الحياة . ثم نصلى قائلين : « يا يسوع أما يهمك بخصوص هذا الأمر »، إننا نعلم أن يسوع قادر وذو سلطان . ونحن قد سمعنا عن ما يستطيع أن يفعله . وربما كنا قد شاهدنا شيئاً من قدرته وسلطانه فى حياة أناس آخرين . فالسؤال يكون : « يا يسوع هل تقدر أن تفعل شيئاً ؟ » ، ولكن السؤال يأتى بهذه الطريقة ، يا يسوع هل يهمك ؟ هل يهمك أمرى ؟ »

عندما أسكت يسوع العاصفة ثم سأل تلاميذه سؤالاً . لماذا أنتم خائفون أليس لكم إيمان ؟ ويتوقع يسوع منا أن نعرف أن الإيمان لا يمنع عنا العاصفة .

إن معتقداتنا ، وربما إيماننا يصبحان بلا قيمة كبيرة إذا كان كل ما نعتقد به هو أن يسوع قادر أن يجرى معجزة لو أنه فقط بذل عناية . إن الإيمان هو الذى يقنعنا بأن نرى المخلص على متن السفينة .

لقد ارتعب التلاميذ وخافوا خوفاً شديداً مما رأوه إذ كانوا يرتحلون مع « المعلم » فترة طويلة من الزمن . وأما الآن فهم يعلمون أنه أكثر من معلم للتعاليم والحكمة ، فالريح أيضاً والبحر يطيعانه . عندئذ سألوه السؤال الثالث الذى كان إلى حد ما قد تكرر من كل تلميذ آنذاك قائلين : « أى إنسان هذا ؟ » وكما كان الأمر فى كل اختبار للعبادة المخلصة الصادقة ، فقد انتقلوا من حالة الخوف إلى المهابة . وإن السؤال الصحيح الذى يأتى عقب كل معجزة ليس هو « ما الذى يقدر أن يفعله يسوع ؟» بل « من هو يسوع ؟ » . فما أن نعرف من هو ، فإن الأسئلة التى تدور حول المعجزات تفقد متعتها .

إننا نشك بأن يسوع سيغيِّر الطريقة التى نتخذها فى حياتنا ، لأننا نظن بأننا نعرف يسوع معرفة جيدة أكثر مما ينبغى . فنحن نفترض بأنه ما هو إلا معلّمنا ، أو تذكرة دخولنا إلى السماء أو المخلص المشغول بالعالم للغاية ولا يجد وقتاً كى يعتنى بنا . فإذا ما افترضنا بأننا نعلم ما سوف يفعله يسوع لافترضنا بأننا نعلم ما سوف يحدث فى حياتنا عندما تضربنا العواصف

وتزعجنا بشدة . إلا أن هناك سر غامض فيما يتصل بالمخلص . وهذا أيضاً يجلب الغموض إلى حياتنا لأننا لا نعلم كيف سيتدخل فى حياتنا .

عندما كنت فى كلية التذوق الفنى كتبت ورقة بحث عن اللوحات الزيتية التى رسمها السير « جشوا رينولدز Sir Joshua Reynolds » . فقد أمضيت فترة طويلة من الوقت فى المتحف، درست بعناية عمله الفنى ، وأردت أن أظهر خبرتى وإطلاعى الواسع لأستاذة التذوق الفنى فى الكلية . فملأت ورقة البحث بالإشارات إلى أخطاء الرسام رينولدز التى عملها فى لوحاته الفنية، والخدوش التى أثبتت أصالة الأعمال الفنية الأصلية ، وصحة نسبتها إلى الفنان ، والأساليب الواضحة التى عوّد فيها تلاميذه على أن يدهنوا خلفيات اللوحات الفنية . وعندما أعادت لى أستاذة مادة التذوق الفنى ورقة البحث الخاصة بى ، كان تعليقها الوحيد هو « ولكن ما هو رأيك فى فنه ؟ »

إنه من السهل علينا أن نقلل من أهمية شئ معروف ونسقطه من الحساب ، وهكذا نفقد المشهد الذى يتسم بالعبقرية فيما نعتقد بأننا نعرفه معرفة جيدة . إنه من الصعب بصفة خاصة أن نقدّر قدرة الله على الخلق والإبداع فى حياتنا الخاصة .لأننا نعتاد إلى حد بعيد الخدوش والخربشات الموجودة فى اللوحات الفنية لدرجة أنه يتعذر علينا أن نرى الفن . فكلما جعلنا الشئ الغامض فى مستوى المألوف ، يضيع منا ويتركنا .

فعندما رجع يسوع إلى الناصرة ليكرز بالإنجيل أخذ الناس يتساءلون :« أليس هذا هو ابن يوسف ومريم ؟ » . إذ كانوا يعتقدون أنهم كانوا يعرفون يسوع معرفة جيدة لدرجة أنهم لم يحاولوا أن يعرفوه . وعند موت يسوع عرفه واحد من اللصوص على الصليب أكثر من أولئك الذين كانوا قد أمضوا سنوات يشاهدونه وهو ينمو ويكبر. فلو كان أهل الناصرة موجودين عند الجلجثة . فأنا أتخيل أنهم سوف يظلوا يتساءلون « أليس هذا هو ابن يوسف ومريم ؟ » . ربما كانوا يظنون أن آثار الجروح على يديه وعلى قدميه وجنبه كانت مجرد تشوهات قبيحة . فإن ما لم يكن قد رأوه هو أن تلك التشوهات كانت علامات ورموز خلاصهم .

ترك يسوع :

إن الإنجيل ينشغل بأحداث الجمعة العظيمة وعيد الفصح والقيامة . إذ تدور القصة الكتابية

قبل الصلب حول تركنا للفردوس والوطن وبيت الأب. فلا يهم كم مرة كررنا تعهدنا لأن نبقى بقرب الله ، إلا أنه لم يكن قبل أن نتيه ونضل الطريق بوقت بعيد. أحياناً ما نترك الله بحثاً عن آلهة أخرى . وبعض الأحيان نضيق باتّباع مخلص يظل يتكلم عن النفقة الباهظة لكوننا تلاميذه لكنه لم يقدنا أبداً إلى الأماكن التى كنا نريد الذهاب إليها . ومع الوقت يأتى قارئ الكتاب المقدس إلى آخر الأناجيل ، حيث يكون من الواضح بأننا لسنا قادرين على أن نبقى مع الله . وهكذا سوف نواصل اختبار ترك الله وهجرانه ، الذى سوف لا يرافقنا إلى الأماكن التى فيها نظل تائهين وضالين فى بحثنا عن خلاص آخر . فإن كان لابد وأن نجد الله ، فلن يكون ذلك إلا نتيجة إيجاده هو لنا . فلابد وأن يعاوننا الله ولا يتركنا فى اختبار تركنا له .

إن كفارة يسوع على الصليب وموته لأجلنا يوضحها لنا الكتاب المقدس بصور ورموز عديدة. فهو كحمل الله ، قد دفع عنا ثمن عصياننا وتمردنا . وباعتباره رئيس الكهنة الأعظم ، أقام جسراً وشيد طريقاً على الهوة التى خُلقت بين الله والجنس البشرى . وكعبد متألم ، جسَّدت محبته العظيمة الإله الذى يتألم مع المتألمين . إن كل نظريات الكفارة هذه هى نظريات صحيحة بكل ما فى الكلمة من معنى وجديرة بالتحليل المفصَّل . ومع ذلك ، فإنه يوجد قصد آخر بالنسبة للتكفير عن الخطايا ، فعلى الصليب أخذ يسوع وضعنا فى ترك الله لنا .

إن صورة يسوع المعلق على خشبة الصليب وهو يطلب أباه قائلاً : « إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟ ». هى لحظة من أكثر لحظات المسيحية إظلاماً وقتامة . فكيف لله الآب أن ينصرف عن ابنه الحبيب ويتخلى عنه ؟ وعلى الرغم من عزم يسوع وتصميمه على أن يكون ذبيحنا فكيف توقفت ملائكة السماء عن اندفاعهم ونزولهم بسرعة على سلم السماء لإنقاذ ذاك الوحيد الذى كان فى حضن الآب ؟ وها هو بولس الرسول يعالج هذه المسألة قائلاً « لأنه جعل الذى لم يعرف خطية خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه » (٢ كو ٢١:٥) . لقد ترك الله يسوع على الصليب وتخلى عنه لأنه قد صار خطيتنا .

وفيما يتصل بالمبررات غير الواضحة بالنسبة لى ، فإن المسيحيين فى هذه الأيام لا يميلون إلى صورة الكفارة هذه . ربما نكون متضايقين ومنزعجين بأن يصير يسوع خطيتنا لأننا لا نؤمن حقاً بقوانين إيماننا التى تقول بأنه قد كان إلهاً تاماً وإنساناً تاماً . إن ما نريد أن نقوله هو أنه قد كان إلهاً فى صورة إنسان . إننا نريد يسوع الذى ينظم ويصلح حياتنا ويعلمنا تمييز الأفكار والمفاهيم

فقط كما يقدر الإله أن يفعل . إلا أنه قد أصابنا الهلع بسبب الكلمة الذى صار جسداً . فإن هذه هرطقة قديمة قدم الغنوسية ، ولا يجب على الكنيسة في هذه الأيام أن تكون متسامحة مع هذه الهرطقة عن ما كانت عليه الكنيسة الأولى . فليس هناك خلاص لو أن الله قد افتقد الأرض فقط لفترة وجيزة دون أن يصير أبداً متحداً بجسدنا ، وقد أدى هذا الاتجاه الفكرى إلى أن نحدد أنفسنا فى فكرة واحدة تدور حول تعاليم يسوع الأدبية والأخلاقية ، وهذا قادنا إلى التفكير فى أنفسنا على أننا نتاج روحى متميز يحيا داخل إطار سلوكى له لاهوت محدد ، غير أننى أعتقد أن ظنوننا بخصوص المخلص المتروك ربما تتجه بصورة أعمق من هذا الاتجاه اللاهوتى .

والواقع ، إن مشكلتنا فيما يتصل بهذه الصورة هى أنها تفزعنا إلى أقصى حد . فلو أمكن أن يدير الله ظهره لابنه وينصرف عنه ، لافترضنا بأنه يمكن أن يدير ظهره لنا وينصرف عنا . وهذا عندما لا نكون أكثر خطأ . ولأن الله قد ترك ابنه على الصليب فإنه لا ينبغى علينا أبداً أن نخاف من أن الله يمكن أن يتركنا ويصرف انتباهه عنا . لأنه فى تركه ليسوع الذى صار خطية وانصرافه عنه تحول الآب واتجه إلينا وفى تلك اللحظة صيرنا أبراراً ، صرنا « بر الله » .

كيف لصورة الترك القاتمة هذه أن تكون حافلة بهذا الرجاء العظيم إلى حد بعيد ؟ كيف أمكن للآب أن يحبنا حباً جماً حتى يترك ابنه الوحيد ويتخلى عنه ؟ ربما يكون هذا سبب خوفنا إلى حد بعيد . فإن ما يخيفنا إلى أقصى حد هو أن نلقى هذا الحب العظيم . إلا أن الخوف هو بالضبط التجاوب الصحيح والمناسب إذا كنا قد قررنا أن ننال الحياة الجديدة التى سوف تأتى يوم قبولنا لتلك المحبة المفرطة التى فاقت الحد .

إننا ندعو ذلك (بالنعمة) وهي تعنى أن يهبنا الله ما نحن بحاجة إليه وليس ما نستحقه . إنه لأمر مخزٍ ، فقد كان عاراً بالنسبة للسماء لأن يكون يسوع ذبيحة من أجل عالم مملوٍ بالخطاة والأثمة . إنه لأمر مخز بالنسبة لأولئك الذين لم يعترفوا بعد بأن كل برهم ما هو إلا خِرق بالية، فالنعمة تواجهنا باتهام بأن أيا كان ما نبذله من جهد ، فلا نقدر أن نخلّص أنفسنا . فلا يأتى خلاصنا إلا عن طريق نوال وقبول محبة الله .

فإذا قمنا بذلك . بقبولنا هذه المحبة ، يتغير كل شئ . فذلك هو ثمن قبول نعمة الله . فعاجلاً سوف نجد بأننا قد أدرنا أيضاً ظهورنا إلى الصليب حيث توقفت جهودنا التى كنا نبذلها لخلاص نفوسنا . إذ قد حان الوقت لكى ما نواجه المخلص المقام الذى سوف يقودنا الآن

إلى دعوة جديدة لأن نكون مع الآب إلى الأبد .

القصة التي بلا نهاية

إن الأناجيل الأربعة جميعها تصف لنا حادثة القيامة ، غير أنها تصفها في تفصيل أقل مما كنا نريد . فإن رواية البشير مرقس عن القيامة هي الأقصر ، ونهايتها تبدو مفاجئة وغير متوقعة تقريباً . فمن المحتمل بأن الترجمة الأصلية لإنجيل مرقس قد انتهت بالملاك الذى يتكلم إلى النسوة اللآتى كُنْ داخل قبر يسوع الفارغ . فما أن عرف أنهن كن يتطلعن ويطلبن يسوع يقول لهن الملاك : « قد قام ، ليس هو ههنا ، إنه يسبقكم إلى الجليل » (انظر مر ١٦:٦-٧) .

هذه ليست نهاية الرواية . فهى ترجئ الكثير جداً وتتركه معلقاً فى الهواء ، فلماذا لم ينتظر يسوع التلاميذ عند القبر ؟ لماذا تركهم هناك ؟ ما الذى حدث بعدئذ فى الجليل ؟ كيف غيرت المقابلة النهائية حياتهم ؟ عند هذه النقطة نحن لا نعلم شيئاً .

إن هذه الأسئلة ليست مجرد أسئلة أكاديمية نظرية ، فإنه إلى جانب قصة القيامة نريد أن نعرف مزيداً من التفاصيل عن كيف ليسوع المقام هذا أن يغير حياتنا أيضاً . ولكن بحسب ما جاء فى إنجيل مرقس نجد أن الإنجيل مصمِّم على ترك هذه الرواية ناقصة . وذلك لأن الرواية مكتملة فى كل تلميذ كان المخلص المقام قد ذهب للالتقاء به . فهناك العديد جداً من الفصول الكتابية فى إنجيل مرقس مازالت باقية لأن تُكتب .

إننا نعلم الفصل الكتابى ونعرف ما حدث أثناء تلك الفترة الطويلة عندما كان من الصعب رؤية يسوع ، واعتقدنا بأنه كان قد تركنا وتخلى عنا . وربما نستطيع أيضاً أن نحكى بعضاً من القصة عن كيف وجدنا المخلص المقام ، وكيف كان يبدو مختلفاً . فبالإيمان، نحن نؤمن بأنه لا يزال هناك ، فصل أو فصلين بعد لأن يُكتبا ويمكن أن يكونا حافلين برجاء الحياة المغيرة . لأننا نعلم الآن أن يسوع يسبقنا ويشير إلينا وينتظرنا لأن نجئ إليه .

إن قصة القيامة لم تكتمل لكونها قد صُممت لأن تقودنا إلى مستقبلنا مع الله . فإن قصة القيامة لا يمكن أن يكون لها نهاية . فهى لا تتكلم عن شئ انتهى بل عن ما قد بدأ حالاً . عن مستقبل مجهول وغامض للغاية لا يستطيع أن يكتبه سوى الله . فأيا ما كان الترك شديداً عنيفاً وإلى أى مدى تكون الخسارة بالغة حادة ، حتى وإن كانت الخسارة يسوع نفسه لدرجة أن نكتئب ونحزن ، فإن رسالة الملاك لنا هى « لا تبكوا عند القبور » أين سنجد رجاءنا المقام ؟ لقد سبقكم إلى ......

الفصل الثامن

تسبحة شكر

وعلى الجانب الآخر للهجر والترك تصبح كل الحياة عبارة عن تعبير عن العرفان بالجميل. فالرحلة التى قطعناها عبر طريق الخسارة كانت طويلة وحافلة بالألم . إنها تكلفنا حياتنا . ففى صميم الهجر والترك نجد أن الشئ الوحيد الذى تبقى كان محبة الله . ولكن لكى نكون منفردين بمحبة الله فإن هذا هو الطريق الوحيد لإيجاد الحياة مرة أخرى .

ممن تفيض كل النعم والبركات :

إن كنيستنا ، مثل العديد من الكنائس ، تنشد تسبحة الشكر لله كل يوم أحد . وأثناء جمع عطايانا لله والتقدم بها أمام الكنيسة ، يعلو صوت الأرغن ، ثم يقف شعب الكنيسة ويأخذون فى الترنيم فرحين مبتهجين وقائلين :

سبحوا الرب من منه تأتى الخيرات	**سبحيه يا جميع الخلائق على الأرض**
سبحوه فى الأعالى يا جند السماء	**سبحوا الآب والابن والروح القدس**

إننا نرتل هذه الترنيمة كثيراً جداً لدرجة أنها يمكن أن تصير حفرة طقسية مظلمة تختفى فيها عقولنا . ولكن حتى وإن كنا نتمتم الكلمات ونحن شاردى الذهن ، فلا نزال نتدرب ونكرر دورنا كشعب شاكر . وباعتبارى الراعى فإنه يجب علىَّ أن أقف أمام شعب الكنيسة وأراقبهم وهم يرتلون هذه الترنيمة . وأنا أتساءل فيما يفكرون فيه وهم ينشدون ترانيم الشكر والحمد لله من أجل كل نعم الحياة وبركاتها .

هل نؤمن حقاً بأن كل النعم والبركات تفيض علينا من قِبل الرب ؟ إذ بينما يحمل من يجمعون عطايا وتقدمات الشعب ليضعوها أمام الله ، أينبغى على المرء أن يتفكر متسائلاً هل أحمد الله ؟ فقد أجهدت نفسى إجهاداً شديداً للحصول على هذا المال الذى أقدمه للكنيسة . ولكن إن كنا نظن أن الأموال التى نضعها فى طبق العطاء كانت أموالنا ، نكون قد أخطأنا

القصد من العبادة . إن كل ما يتصل بالحياة يأتى كنعمة وبركة من الله ، حتى النعم والبركات التى لم نكن قد نلناها بالفعل ، إذ أن ما نضعه فى طبق العطاء هو مجرد رمز للحياة التى سوف نضعها فى طبق العطاء

وسواء آمنا أن الحياة هى شئ لابد من بذل الجهد للحصول عليه أو نؤمن بأن الحياة هى عبارة عن شئ نناله فحسب ، فما أن نبدأ فى فهم فى الكتاب المقدس ، فإننا سوف نجد ذلك الاختيار فى كل صفحة من صفحاته تقريباً . ترى هل الله هو الخالق أم نحن ؟ هل يسوع هو المخلص أم نحن ؟ هل الروح القدس يمنح الحكمة أم نحن أذكياء تماماً من أنفسنا ودون مساعدة وإرشاد منه ؟ فقد كان علينا أن نختار . والكتاب المقدس يحذرنا بأن نختار بتدقيق.

فإذا قررنا أن نجاهد لتحقيق حياتنا ، لكان لدينا سبب وجيه ومقنع لأن نهتم ونقلق . إننا نعرف أناساً كثيرين جداً قد خسروا زيجاتهم وأعمالهم وصحتهم ، ونعتقد أن ذلك لا يمكن أن يحدث لنا . لقد رأينا أشياء كثيرة جداً يصعب أن ندعوها بركات . ففى أروع لحظاتنا التى تتميز بالشجاعة يتحتم علينا أن نسلم بأنه يمكن لأى مأساة تحت الشمس أن تصيبنا غداً . لذلك فإن كان الأمر يتوقف علينا فقط لكى نجعل الأمور جيدة ، لكان القلق الشديد رفيقنا المخلص .

إن القلق هو الحاضر دائماً ، والذى يهيج فينا الخوف بأن الحياة ربما تفلت من بين أصابعنا وتضيع منا . إن الناس القلقين يأتون للعبادة وأياديهم قابضة على أشياء بإحكام ، ويعتقدون أنهم قد حصلوا عليها بأنفسهم ولابد وأن يجتهدوا للحفاظ عليها . فإن تسبحتهم لله تقول : « أشكرك اللهم أنى لم أولد فى بلد من بلاد العالم الثالث . أشكرك بأن قد كانت لى الفرصة لأن أبدأ حياة ، أرجو منك يا إلهى الحبيب أن لا تسلبنى إياها وتحرمنى منها » . لكن يوماً ما سوف تزول كلها وتنقضى . يوماً ما سوف نصرف النظر عن عملنا وصحتنا وأولادنا . سوف يأتى يوم يتحتم فيه أن نترك أحبائنا بين ذراعى الرب .

إن أولئك الذين كانوا مسعورين يتكالبون على الحصول على معيشتهم وأرزاقهم سوف يحيون ذلك اليوم بألم وحزن شديدين . ولكن عندما يأتى ذلك اليوم لأولئك الذين قد تعلموا أن يقبلوا الحياة كهبة ، فسوف يقدمون حياتهم ويعيدونها بقلوب عامرة بالامتنان والعرفان بالفضل ، شاكرين على الهبات والعطايا التى سمح لهم بها الرب أن يملكوها ويحتفظوا بها فترة وجيزة .

دروس مستفادة من دار مسنين :

في نهاية أسبوع طويل جداً حافل بجدول الأعمال ، وجدت نفسي متجهاً بسيارتي إلى دار مسنين للقيام بخدمة العشاء الرباني . وقد كان ذلك آخر شئ أردت القيام به .

وقد بدأ الأسبوع بثلاثة أيام في اجتماع نهضة غير موفقة، ثم رجعت إلى مكتبي يوم الأربعاء متوجهاً إلى صندوق البريد الداخلي ، والذي كان مكدساً بخطابات من أناس لهم أحلام وتطلعات لكنيستنا ، وكانوا يريدون القول بأنهم لم يعملوا إلى حد كافٍ لتكون الكنيسة على ما يرام . لقد قصرّت عن أداء أعمال كثيرة جداً في أول الأسبوع لدرجة أنه قد كان لابد من قطع إجازتي الأسبوعية يوم الثلاثاء. وكان عليّ في صباح يوم الجمعة أن أتدخل في نزاع هيئة ما . كان يوم الأحد سريعاً في تسلسل الأحداث والأفكار التي مرت بي ، كانت العظة أبعد من أن تكون مجهزة .

وبعد ظهر يوم الجمعة تابعت السير إلى الدار « لأضطلع بهذا التعهد وأقوم به » وفي السيارة صليت بالفعل إلى الله طالباً منه أن يعينني على أن أتم هذا الأمر حتى أعود إلى العمل . إنه أمر لا يصدق .

وبعد ما قمت بخدمة موجزة للنزلاء القادرين على المشي أو غير الملازمين للفراش ، رافقني شيخان من الكنيسة لأخذ مائدة العشاء الرباني لأولئك الذين كانوا معاقين وغير قادرين على ترك حجراتهم . وقد التقيت آنذاك بالسيدة « لوسيل لينز Mrs. Lucille Lins والتي كانت قسيسة في الكنيسة التي أعمل بها الآن .

إن السيدة لينز تكاد تكون كفيفة تقريباً وثقيلة السمع إلى حد كبير . ولقد أضحت بالتدريج منزوية عن العالم ومنصرفة عنه ، إذ قد اعتلت صحتها ، وهاهي الآن حبيسة حجرة صغيرة ، بعد أن كانت قد هجرت بيتها منذ سنوات مضت . ولقد عمرّت طويلاً بعد موت زوجها وأصدقائها المقربين . وقليلون جداً في كنيستنا لا يزالون يتذكرونها . لقد فقدت كل شئ تقريباً ماعدا الحياة نفسها .

لقد كان مشهداً متواضعاً ، وقد حاولت أن أكون مرحاً. وقد قالت لي شيئاً لم أستطع فهمه. فقد كان واضحاً بأننا لن نتناول حديثاً عويصاً يصعب فهمه . إذ قد تمتمت بهذه الكلمات « هذا

هو جسدى المكسور لأجلكم . هذا هو دمى المسفوك لأجلكم » . فقد تحسسْنا فريضة العشاء الربانى فأخذت بيديها المرتعشتين لتصل إلى الخبز الموضوع على الطبق الصغير الذى كنت ممسكاً به أمامها . وسكبت الخمر على بنطلونى . وقلت لنفسى ، هناك شئ آخر ليس على ما يرام. وصليت صلاة مختصرة ، ثم ربتُّ بلطف على ظهرها وعبرّت لها عن مدى محبة الله لها . وإذ تأهبت لمغادرة الحجرة ، أدهشتنى بأن أخذت تصلى .

فقد قالت وهى تصلى بصوت واضح : « أشكرك اللهم ، لكونك طيب معى للغاية . أشكرك لأنى لست منسية . أشكرك لأنك تحبنى دائماً »

وأخيراً كان قد دخل شئ ما إلى مجهوداتى المجنونة بأن أكون المخلِّص والمنقذ . وفى حالة من الذهول وفقدان الصواب سقطت على الكرسى مرة أخرى . ومرت لحظة صمت طويلة . ولم أكن أريد أن أتركها ، فقد كانت أول لحظة مقدسة بالنسبة لى طوال الأسبوع ، وقد أدركت بأن هذه المرأة كان لديها الكثير لتعلمنى إياه ، فقد استطاعت هذه المرأة الكفيفة أن تبصر ما لم أستطع إبصاره .

لقد نلت الكثير جداً ، لأنه من الآن أنا لازلت متمسكاً بالكثير منه ومؤمناً به . لقد فقدت السيدة لينز كل شئ ماعدا محبة الله ، ومايزال قلبها عامراً بالإقرار بفضل الله . فأنا لم أكن قد صليت صلاة الشكر الفردية طوال الأسبوع ، إذ قد كنت مشغولاً للغاية طالباً من الله أن يعيننى لأنال المزيد .

ثم عدت متباطئاً بسيارتى إلى الكنيسة مردداً الصلاة التى كنت قد تعلمتها حالاً من هذه القديسة العظيمة : « أشكرك اللهم لكونك طيب معى للغاية . أشكرك لأننى لست منسياً . أشكرك لأنك تحبنى دائماً » . إننى لا أستطيع أن أتصور ما قد يحدث للمسيحيين إذا ما صلينا جميعاً هذه الكلمات من القلب . ونستطيع أن نكف عن السعى الشديد لأن نصبح سعداء أو ناجحين أو أقوياء ، فيمكننا أن نحب الله حباً شديداً حتى أننا لا نشعر بالقلق لأجل هذه الأمور . ويمكن لنا أن نستقر فى الحياة التى لنا ونحب الناس الذين أعطاهم الله لنا ، بمن فيهم أولئك الذين لا يستحقون المحبة كما لو كانت المحبة مستأهلة ومستحقة دائماً . فكل ما نستطيع أن تعمله عندما تكون محبوباً ، هو أن نكون شاكراً .

الدعوة إلى الشكر :

« وفى ذهابه إلى أورشليم اجتاز يسوع فى وسط السامرة والجليل ، وفيما هو داخل إلى قرية استقبله عشرة رجال برص » (لو ١٧ : ١١) . إنه لأمر لافت للانتباه أن يُعرَّف هؤلاء الناس على اعتبار أنهم مجرد عشرة برص . فنحن لا نعلم شيئاً عن عائلاتهم أو بيوتهم وشهاداتهم العلمية وإلى أى مدى كانوا ناجحين قبل إصابتهم بعدوى مرض البرص ، وسواء كانوا رجالاً أم نساء . وهذا هو ما يفعله المرض بالناس ، فهو يقضى على جميع الصفات المميزة للشخصية . ونحن لا نعلم أيضاً أسماء هؤلاء الناس . إنهم مجرد « عشرة برص » وفوق ذلك نستطيع القول بأن كل ما نعلمه هو أن واحداً منهم كان سامرياً . فقد كانوا جميعاً يطلبون الرحمة .

إن أول شئ يخبرنا به هذا النص الكتابى عن الدعوة أو النداء المسيحى هو أنه قبل أن يستقبل أى منا يسوع ويدنو منه ويبدى استعداده لأن يقوم بعمل شئ مهم ، يجب علينا أولاً أن نرى أنفسنا كواحد من البرص المجهولين غير المعروفين فى بحثهم وطلبهم للرحمة . فإن هذا الدرس الأول ربما يكون الأشد صعوبة على الفهم . فإن معظم المسيحيين يريدون أن يكونوا فى خدمة الرب . ومن ناحية ثانية ، نحن نريد أن نبدأ المهمة التى كلفنا بها الله كأناس كاملين نسبياً بأسماء ووجوه وقصص مميزة التى تجعل منا أشخاصاً ذوى شأن يستحقون لأن يُستخدموا . لكن الحقيقة هى أن أمراض الحياة قد تركتنا جميعاً بعلاقات مشلولة وأحلام معطلة ، ومع الوقت نحولّها إلى يسوع ، وكل ما يتبقى هو حاجتنا للرحمة .

ويعد « جراهام جرين » Graham Greene واحداً من الكتّاب المفضلين بالنسبة لى . فقد كانت روايته بعنوان Burnt Out Case بالنسبة لى مصدراً غنياً رائعاً من الناحية اللاهوتية لدرجة أننى تعهدت بأن أقتبس منها فى عظاتى مرة واحدة سنوياً . وهى قصة عن مهندس معمارى يدعى كويرى Queery الذى قام بتشييد كاتدرائيات ، غير أنه لم يكن مؤمناً بالله . فقد كان كويرى ينعم بالشهرة والنجاح ، ولكن أيا كانت عظمة الكاتدرائيات التى شيدها ، فهو لم يستطع أن يجد أى هدف ومعنى لحياته . ثم انزوى أخيراً عن المجتمع وكفَّ عن الاشتراك العملى فيه، واتجه إلى حيث يؤمن بأنه المكان الأخير على الأرض وهو عبارة عن مستعمرة لمرضى الجزام فى الكونغو فى أفريقيا . وعندما وصل كويرى قال للطبيب المسئول عن العمل فى

المستعمرة إنه قد جاء إلى ذلك المكان لأنه ينتمي إليه ، إذ كانت نفسه قد تآكلت .

لم تمر فترة طويلة قبل أن يبدأ كويرى بالاهتمام بواحد من المرضى ، وهو رجل مقعد يدعى « ديوجرانياس » . وذات يوم يتجول ديوجرانياس بعيداً جداً في الغابة . ويذهب كويرى للبحث عنه ثم يضل هو نفسه . وفي ساعة متأخرة من الليل وجد الاثنان بعضهما الآخر ، « فقد كان ديوجرانياس رافعاً البقية من يده المصابة بالبرص ثم صرخ منادياً بأعلى صوته ، وأدرك كويرى أن الرجل أصيب بالشلل بسبب الخوف ، فقد سقطت اليد التي بلا أصابع على ذراع كويرى وكأنها مطرقة وأمسك به هناك. فلم يكن هناك شئ يمكن عمله سوى الانتظار للصباح . وفي اليوم التالي عندما كان يتكلم كويرى مع الطبيب قال : « عادة مايكون الوقت ليلاً عندما تصل الأمور إلى خاتمة المطاف في حياتي ، غير أن هذا الأمر كان بمثابة بداية جديدة . فلم يكن هناك شئ لأي منا يستطيع القيام به سوى الانتظار وملازمة بعضنا بعضاً في هذا التعانق الغريب ». وبهذا التعانق الغريب بدأ كويرى رحلته المقدسة في العودة إلى الله .فقد كان الأمر كما لو أنه وبعد طول انتظار ليتعانق مع برصه ، وهو إذ يفعل ذلك يكتشف بأنه متعلق بمجد الله ومشدود إليه ، فإن تلك الليلة كانت بداية لاهتدائه إلى الإيمان بالله . ثم بنى في النهاية مستشفى بسيطاً جداً للمستعمرة . فهو يعتبرالمستشفى تحفة رائعة من روائع حياته ، لأنه لأول مرة يكون قد شيد فيها شيئاً بدافع من الامتنان والمحبة .

إن إرساليتنا فيما يتصل بخدمة الله لا يمكن أن تبدأ أبداً بالاعتقاد بأن لدينا شيئاً ما لنقدمه . فمن المؤكد بأن الكثير جداً الذي نقدمه لله وهو وقتنا ووزناتنا وأموالنا وكلمات الرجاء فيما يختص بالإنجيل . غير أننا لا نبدأ أبداً هناك ، ولكننا نبدأ بالإقرار والاعتراف بأننا سواء كنا أشخاصاً ناجحين أو منبوذين ، فنحن بحاجة إلى الرحمة ، وإلا فإن ماندعوه إرسالية مسيحية سوف يكون بحق عبارة عن قناع كاذب للبقاء أقوياء . فإذا ما قدمنا صدقة للمعوز والفقير فغالباً ما يكون ذلك لمجرد أن نحس بأننا خيرين . ويثبت التاريخ مدى خطورة الإرساليات عندما تبدد الكنائس المُرسلة الأموال ، وتنفقها على مشكلات العالم . ولقد تكشف ذلك عن تمزق وتعطيل بالنسبة للعالم الثالث وموت لروح الكنائس الغربية الموسرة . فإن أردنا أن نهدى العالم من حولنا إلى مكان أكثر قداسة ، يتعين علينا أن نبادر بالسماح لأنفسنا بأن نهتدى ونتحول إلى برص. عندئذ نستطيع أن ننضم ونشترك مع أصوات أولئك الذين يصرخون إلى الرب

طالبين الرحمة .

وعندما رآهم يسوع « قال لهم اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة . وفيما هم منطلقون طهروا فواحد منهم لما رأى أنه شفى رجع يمجد الله بصوت عظيم » (لو ١٧ : ١٤) . فإن كان الدرس عن الإرسالية هو الالتفات إلى ألمنا وما نقاسيه من معاناة ، فالدرس الثانى هو الرجوع إلى يسوع المسيح ونحن فى صلاة شكر .

إن كل ما فى الإرسالية المسيحية يدور حول الشكر والإقرار بالفضل عن ما صنعه الرب يسوع فى حياتنا نحن . فإن أولئك الذين يشاركون فى الإرسالية المسيحية ليسوا هم من يجودون بالإحسان رغبة فى خير الآخرين ، وهم ليسوا دخلاء أو مهتدين حديثاً لائقون ومتفقون مع قواعد الدين من الناحية اللاهوتية . إنما هم مبعوثى الشكر وموفدين لتمجيد الله فى صلاة الشكر .

انني أذكر حينما كنت شاباً وجدت نفسى بأنني كنت واقعاً فى قصة حب . والأمر الجدير بالانتباه والذى أحتاج بعض الوقت حتى أتأكد منه أني كنت محبوباً من هذه السيدة . فإن الوقوع فى الحب هو عبارة عن التعبير عن امتنان القلب العميق ، والإقرار بالفضل بسبب نوال حب شخص ما . فالإرسالية التبشيرية هى ببساطة ما نجده أنه أمر لا يقاوم لأن نفعله عندما نؤمن بحق بأن الله يحبنا . أنها عبارة عن تعبير عن الامتنان والإقرار بالفضل ، وهى بالتالى حالة الوقوع فى الحب بصورة أكثر عمقاً .

وسواء كانت المحبة التى نظهرها لجيراننا وزملائنا أو المحبة التى يظهرها المرسلون لكل جماعات الناس ، فمتى دخلت المحبة إلى العالم ، هكذا يدخل الله ، لأن الله محبة .

إنه لأمر ملفت للانتباه أن العشرة البرص كلهم فى رواية البشير لوقا كانوا قد شُفوا من مرضهم . فقد نالوا كلهم رحمة الله ، ولم يعد إلا السامرى فقط ليمجد شافيه ، فالذين من خارج الحظيرة فقط - أى الأمم - هم الذين صار لهم نصيب فى شركة الشاكرين الممجدين لله . وأيا ما كانت طول مدة نصيبنا فى تلك الشركة ، وأيا إن كان عدد المرات التى وقفنا فيها لنرنم تسبحة الشكر والحمد والتمجيد ، علينا أن نتذكر أننا بحق لا ننتمى إلى بيت الرب هذا باستحقاقنا ، إذ أنه قد جئ بنا إلى هناك بفضل نعمة الرب يسوع ورحمته .

ثم قال له يسوع : قم وامضِ إيمانك قد خلصك » (لو ١٧ : ١٩) . فعندما نمضى فى

سبيلنا نكتشف أننا لا نستطيع أن نقاوم الكلام عن ما قد حدث لنا . لكن الإيمان الذى نتكلم عنه فيما يتصل بإقناع الآخرين عن صحة اللاهوت المتصلة بالخلاص ، فإن ذلك ليس هو الذى قد خلصنا . إذ أن ما خلصنا هو رحمة يسوع . ونحن مثل المحبين الذين وقعوا فى الحب ، نريد أن نتكلم عن يسوع كل الوقت . فنحن لا نستطيع التوقف عن الكلام عنه لو حاولنا ذلك . إذ نحن محبين له حباً جماً .

ذلك هو أساس خدمتنا للآخرين . فهو بمثابة صدى نوال محبة المخلص . لقد كان دكتور صموئيل هينز Dr. Samuel Hines قساً مشهوداً في مدينة واشنطون . ولقد سكب نفسه على ما يزيد عن خمسة وعشرين عاماً في حياة الشعب في كنيسته . وقبيل أن يموت، كانت لى الفرصة لأن أتحدث معه عن الخدمة في مدينتنا . وكنت قد وصلت مؤخراً ، وكنت أحاول أن أقدم بعض الرجاء إلى المدينة . وكنت قد عملت فى النهاية فترة طويلة للدرجة التى أصبحت فيها محبطاً . ولقد واجه صموئيل معوقات أشد وأكبر من المعوقات التى واجهتها أنا . فقد كانت كنيسته فقيرة ، وكانت احتياجات المنطقة المجاورة لكنيسته احتياجات شاملة لكل شيء ، غير أننى لم أره أبداً محبطاً . إذ حينما كنا نجلس معاً على مقعد من مقاعد كنيسته المتواضعة ، سألته عما كان يدعوه إلى مواصلة العمل .

ثم ضحك وأجاب قائلاً : « إن الأمر بسيط بالنسبة لى ، لا تنس ياكريج أبداً بأن كل إرسالية مسيحية هى بخصوص الشكر والعرفان بما قد صنعه الرب ، وهو يصنعه ومزمع أن يصنعه »، إن أرساليتنا هى أن ندرك عمل الله ونحبه . فإن كل ما نفعله لأجل يسوع هو أساساً تعبير عن الإقرار بفضله علينا ، فذلك هو الينبوع الوحيد العميق لدرجة يمدنا بها لأجل أولئك الذين حولنا .

الحياة العاطفية :

أن تحب شخص ما يعنى أن تدخل مع هذا الشخص فى جولة عاطفية مثيرة . نحن لا نعلم إلى أين ستأخذنا المحبة ، إنها تقودنا على نحو نموذجى إلى قمة حياتنا كما إلى أعماقها . فليس هناك شخص آخر غير هذا الشخص قدر أن يملأ قلوبنا بالفرح أو يكسرها بالألم . فإن هذا ما يحدث لنا تماماً عندما نظهر حنواً وشفقة للآخرين كتعبير عن محبتنا ليسوع .

إن كل قسيس أعرفه لديه قصص عن الدوامة الانفعالية العاطفية التى تنطلق بهم سريعاً إلى

مرتفعات شاهقة من الفرح ثم تندفع بهم بسرعة بالغة ، وتدخل بهم إلى وديان منخفضة من الحزن والأسى . فإن يوم السبت الذى يبدأ باحتفال زفاف ، قد ينتهى بجنازة طفل أو موت فجائى لفرد من أفراد عائلة بحادث سيارة . فإن هذه الأحداث هى عبارة عن سلسلة أحداث الحياة المثيرة التى تنطوى على تضارب خطير وعنيف .

إن الحدث الدرامى الأكثر رقة ولطفاً يقع كل يوم ، إلا أنه من الأصعب أن نراه أو ندركه، وذلك لأن تفضيلنا للمستوى الآمن فى الحياة يعمينا عن حب الحياة الواقعية . فلو أننا قد آمنا بحق أن الله كان ينتظرنا عند أطراف الحياة المرتفعة والمنخفضة ، لما اخترنا أن نستقر فى المستوى المتوسط حيث يكون من الصعب رؤية أحداث الله المثيرة ، حيث تكون الأيام كئيبة للغاية . وربما فضلنا بدلاً من ذلك أن نغامر فى أكثر مواقف الحياة عمقاً وتعقيداً التى نحن مدعوون لأن نكتشفها . إن معظم المسيحيين الذين أعرفهم يمكنهم أن يختبروا مشاعر أقوى فى حياتهم . فإن معظمنا لا يبكى وينتحب بحرقة كافية ، أو يضحك بصوت عالٍ بدرجة كافية . إننى أعتقد بأننا نتجنب الأحداث المثيرة ونتفاداها لكوننا نخشاها وغير راغبين فيها .

لقد تعلمنا أن نعيش قدراً كبيراً جداً من الحياة على السطح المستوى الممهد الواقع بين المستوى العالى والمستوى المنخفض ، حيث نستقر ونتلاءم مع التوقعات المعقولة التى تعانى الحرمان جوعاً من الحياة . إن معظمنا لا يستطيع أن يذكر آخر مرة بكينا وبللنا وسادتنا بالدموع لأن شيئاً ما قد حدث لجار لنا ، فما بالك لبلد فى أوربا الشرقية أو أفريقيا . ولا نستطيع أن نذكر آخر مرة قرأنا فيها جريدة يومية كانت قد تضمنت أخباراً سارة رائعة التى كان علينا فيها أن نعانق شخصاً ما ونهنئه فرحين بأن قدراً قليلاً من ملكوت المسيح قد طلع على العالم وظهر له . ربما يكون ذلك لأننا خائفون من أن نحتال على أنفسنا أو نخدعها بأن ندع لتوقعاتنا من العالم أو انتظاراتنا منه أن تصبح سامية للغاية . إلا أن المسيحيين الذين خسروا حياتهم فى اتّباع يسوع استسلموا للآمال المتواضعة البسيطة وانقادوا لها . فإذ قد صرنا تلاميذ للمسيح فإن الأمر يكون مثيراً للغاية عندما نعيش الحياة المشوبة بالحذر والاحتراس .

لقد قضى يسوع وقتاً طويلاً عند الحياة فى ارتفاعها وانخفاضها . فهو كإله فى الجسد ، عاش بحلم عاطفى . فلم يكن الحلم واقعياً للغاية إذا أخذنا الاختيارات بعين الاعتبار ، لكن يسوع كان يشير باستمرار إلى ما وراء الإمكانات المعقولة ليدعو الناس إلى حياة مثيرة مع الله .

فحينما رأى عشاراً قصير القامة يفعل شيئاً مستحيلاً فى رد نصف أمواله إلى الفقراء ، ابتهج يسوع جداً وأقام حفل عشاء فى بيت زكا . فإن الرؤيا المستحيلة وغير الممكنة بالنسبة لله كانت قد نفذت وحدثت من خلال توقعات كل شخص . فعندما رأى المخلص الهيكل وقد دُنس بسبب أولئك الذين لا يهتمون بقداسة الهيكل ، استشاط غضباً وقلب المكان رأساً على عقب . فقد أغضبه الموقف غضباً شديداً لأن يرى الإنسانية وقد وقع اختيارها واستقرت على عالم يخلو من ما هو مقدس . غير أن هذا هو تماماً ما نفعله عندما نصِّر على حياة تتسم بالحذر والاحتراس . فلن يكون الله داخل أى توقع من توقعاتنا أو انتظاراتنا ، أقلها تلك التى تحاول أن تحوِّل القداسة إلى صيغ أو وصفات طبية يمكن أن تكون رائجة وصالحة للعرض والتسويق بسهولة .

ومن خلال شخصية فى رواية من رواياته يعلق « جون ليبديك John Lipdike قائلا «لقد أضاع الغربيون وقع الملحمة الشعرية كلها . وأن نساء العالم الثالث لازلن يستطعن أن يجعلن النغمة الحزينة الحادة أن تأتى من قاع النفس تماماً . فإن موسيقى الحياة إن لم تصبح حادة النبرات بما فيها العالية والمنخفضة . فهى تفقد تأثيرها وتصبح مملة وغير معروفة ، فهذا هو الخطر الجسيم للمعيشة فى مجتمع فخم يفترض بأن طرقه وأساليبه الفنية الحديثة وثروته كانت قد تعرضت لخطر الأذى و الخسارة ، فإن معظم أبناء الطبقة الوسطى من لا يعيشون فى خوف وقلق لأن بيوتهم سوف تنتهك حرمتها عنوة واغتصاباً أو أنهم سيموتون جوعاً أو أن الجنود سيعتدون عليهم . إذ أن هذه الأحداث لا تحدث إلا فى الكتب والأفلام السينمائية التى تستخدم الموضوع أو المادة المعروضة لتسليتنا . ولكن الحقيقة هي أن ما هو تحت القشرة الرقيقة لحياتنا المحترمة المقبولة والمنتظمة هو أكثر إثارة من توقعنا .

نادراً ماينقضى أسبوع لا أدعى فيه إلى بيت عائلة كانت قد اكتشفت كيف يكون الأمر حساساً فيما يتصل بغزوات المرض والموت والوعود المنقوضة . فكثيراً ما قد كانت هناك مشكلات ومعقَّدة فى البيت منذ فترة طويلة ، غير أن مؤامرة الصمت والسكوت الناشئة هى التى جعلت من المتعذر مناقشة المشكلة . فقد كان الأمر كما لو أن كل شخص قد أصبح أصماً إلى حد ما بالنسبة للنغمة المنخفضة . ثم ازدادت أخيراً نغمات الألم المكتومة وعلت جداً حتى إنه لم يعد ممكناً تجاهلها ، ولكن حينذاك يكون عادة الوقت متأخراً جداً لإعادة التوازن الذى كان للعائلة يوماً ما .

ونظراً لأننا نخشى المجازفة والخوض في تلك الأنغام المنخفضة ، فإننا نبنى الحياة التى تجعل من الصعب أيضاً الإصغاء إلى لحظات الفرح المألوفة العادية التى تحدث فوقنا باستمرار . هناك أسباب كثيرة جداً تدعونا إلى أن نسبح الله ونحمده خلال اليوم . ولكن نظراً لأننا نندفع فى التجوال بسرعة بالغة نحاول أن نخلص حياتنا ، ونفقد أفضل الأصوات الناعمة الرقيقة التى تجعل السماء أيضاً لأن تفرح وتهلل : « انظروا طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم السماوى يقوتها . ألستم أنتم بالحرى أفضل منها » (مت ٦ : ٢٦) .

بعد أن تركت معهد اللاهوت بفترة قصيرة ، قمت باصطحاب مجموعة من طلبة الكلية من كنيستنا إلى معسكر عمل لمدة قصيرة فى قرية . فبعد الأسبوع الأول من المعيشة والعمل مع كنيسة صغيرة فقيرة فى القرية ، أصبحنا مشغولين تماماً فى قضية لماذا سمح الله لهذا الفقر الشديد أن يوجد . وكنا نناقش هذه القضية كل أمسية فى دراستنا للكتاب المقدس . ولقد تحدثنا عنها كثيراً بينما كنا نرمم الثقوب الموجودة فى سقف الكنيسة القديمة ، ونناقشها باستمرار فى أوقات تناول وجبات الطعام . ولقد كانت سيدات الكنيسة المحلية يقمن بخدمة موائدنا ، وكن يقمن بالاهتمام بنا بفرح عظيم . ولقد زرنا بيوتهن الفقيرة المتواضعة التى كانت غالباً ما لا تزيد عن الكرتون المسمَّر على بعض من الألواح الخشبية المنصوبة . حتى الحدثات قد ظهر عليهن الكبر والانحناء بسبب قسوة الحياة والمعاناة التى يواجهنا فى معيشهن . إننا سوف نترك حالاً ذلك المكان البائس ، غير أن هؤلاء النسوة وأولادهن من المحتمل ألا يتركون المكان أبداً . لقد كان أشد وأقسى جزءفى القصة هو معرفة أن الأولاد الذين كنا نلهو ونلعب معهم كل ليلة سوف يكبرون بالتأكيد ، يدخلون غمار حياة لن تكون أفضل من تلك الحياة التى كان ذويهم يعيشون فيها .

وذات مساء ونحن على مائدة العشاء طلبنا من راعى الكنيسة أن يُبدى لنا وجهة نظره عن كيف ينادى المسيحيون بالرجاء لأولئك الذين يعيشون بهذا اليأس . وبينما كنا نوجه أسئلتنا لراعى الكنيسة ، كنا نسمع أصوات النسوة اللاتى كن يطهين لنا الطعام . وقد علت الدهشة وجه الراعى بسبب السؤال الذى وجهناه إليه . فقد قال بأنه من الواضح أن شعب كنيسته كانوا فقراء وقد يستمرون على هذه الحال . ثم تساءل بدهشة قائلاً : « اليأس ؟! أين رأيتم اليأس هنا ؟! » وفى تلك اللحظة سمعنا ضحكاً من المطبخ . ثم رفعنا أبصارنا لنرى النسوة وهن يرقبن ولدا يلعب

بالبرتقال قاذفاً به في الهواء. ثم تساءل الراعي « أهذا هو معنى القنوط واليأس ؟ . إن يسوع المسيح مخلصنا ، فكيف نيأس كالذين لا رجاء لهم ؟ » وإذ كان يتكلم ، تذكرت مطبخ كنيستنا الجديد ، الذى كان موضوع جدال ومناقشات كثيرة ، بينما كانت تصارع جماعة ضد الأخرى وتتنازع معها بسبب التنظيم والمسئولية المتعلقة بتلك القطعة المشتهاة من الطبقة الكنسية العليا . إننى لم أستطع أن أتصور أعضاء كنيستنا حتى أن يسمحوا لطفل لأن يدخل المطبخ ، فكيف يتسع لهم أن يستمتعوا به إلى درجة الضحك . إلا أن هؤلاء السيدات فرحن هذا الفرح الشديد بسبب صبى يلعب بالبرتقال ويقذفه فى الهواء . ثم جعلنا هذا الأمر أن نتأمل ونقلّب الأفكار هنا وهناك . وأمضينا بقية الرحلة نتحدث عن لماذا تدفعنا أساليب حياة طبقتنا المتوسطة لأن نيأس بسبب مستقبل يشوبه الغموض ، وليس ذلك الذى فى كنيسة القرية .

من اليسير علىّ كراعٍ أن أجمع المال لأجل الفقراء والمحتاجين ، وأنظم البرامج التى تعمل على العناية بهم وترعاهم أو حتى لأجعل الناس يقدمون الطعام والبطاطين للذين بلا مأوى . لكن هذه ليست إرسالية يسوع التى جاء من أجلها ، الذى أظهر بصورة نموذجية علاقة مع أولئك الذين هم فى عوز وحاجة ، فهذا ما هو شاق وصعب بالنسبة للكنيسة . إذ قد نفضل بالأحرى أن نوضع من الفقراء والمحتاجين ونحولهم إلى قضية للبحث والدراسة . عندئذ يمكن لنا أن نناقش النظريات السياسية أو اللاهوتية لليساريين واليمينيين لإيجاد حلول لهذه القضايا . أما إذا اكتشفنا أن للفقراء أسماء ووجوه وروايات تكسر قلوبنا ، لفعلنا أكثر من مجرد مناقشة المسائل والقضايا . وهنا يجب علينا أن نقيِّم حياتنا الخاصة .

فإذا ما عقدنا العزم على أن نبقى مع يسوع ، سوف يجب علينا أن نقول الحقيقة فيما يختص بحاجتنا الخاصة إلى خلاصه . وإنا لراجعون سريعاً إلى الصليب ، حيث يقودنا حبه دائماً ، إذ يعتبر ذلك حباً أعظم بالنسبة لجميعنا .

الشكر لأجل خليقة الله :

هناك جهد ضخم تبذله العديد من الكنائس في هذه الأيام لمساعدة الناس على أن يصيروا على ما نعتقد أنهم بحاجة إليه. وهذا يعنى أن نحولّهم إلى شئ آخر عن ما هم عليه . وإلى حد ليس بقليل نستطيع القول بأن هذا الهدف مدٌعم بعدم رضا الناس بحياتهم هم ومخاوفهم الشديدة ، فعليهم أن يرهقوا أنفسهم ويحمّلوها بأعباء شديدة إلى أن يموتوا . هذا القلق يقودهم

إلى الآف التعبيرات المختلفة عما هو مطلوب لكى يصيروا شيئاً آخر . وفى محاولة السعى لأن نظل فى تنافس فى ميدان الاعتماد على الذات ، فإن الكنيسة تعدنا بأننا إذا اتّبعنا يسوع فسوف يهدينا ويحولنا إلى خلائق جديدة . إن ما نقصده بقولنا هذا وما يقصده الكتاب المقدس به ليس بالضرورة نفس الشئ

فعندما يغيِّرنا الله ، لا يعطينا هوية جديدة ، بل هو يسمح أن نكتشف ما قد كانت عليه هويتنا الحقيقية منذ البدء . فالفارق فى غاية الأهمية ، فبينما نحن نشق طريقنا خلال العديد من تنازلات الحياة نكتشف أن الحياة الجديدة التى يواصل الله خلقها ، لا تبدو لنا غريبة تماماً . بل تبدو صورة أكثر نقاءً من ذواتنا ، فهى الذات التى خلقها الله لنكون عليها من البدء . إنها استعادة صورة الله فى حياتنا . إنها انعكاس لصورة الرب يسوع المسيح ذاته . غير أنها ليست شيئاً مختلفاً عن الخليقة الصالحة التى كانت موجودة فى فكر الله منذ البدء .

من المؤكد أننا لم نصنع حياتنا الخاصة . فالله وحده هو خالقنا . إذاً لماذا عندما يهدينا إليه تكون النتيجة شيئاً مختلفاً عما قصده لنا منذ البدء ؟ إن عمل الخلاص بالنسبة ليسوع المسيح هو أنه يدركنا أو يجدنا بعد ما كنا قد ضللنا طريقنا ساعين لأن نصبح شيئاً آخر عن ما نحن عليه . إن كنائسنا يمكن أن تحسن صنعاً عندما تعترض سبيل الوهم القائل بأن الدين أو أى شئ آخر سوف يعيننا لأن نصبح شيئاً ما . وبدلاً من ذلك نحن نريد من الكنائس أن تساعدنا على أن نكون على ما نحن عليه.

فإن أولئك الذين يدركون هذا الأمر يعيشون شاكرين ، فهؤلاء هم قديسو الكنيسة العظام . إنهم ذوى فائدة عظيمة لخدمة يسوع المسيح لكونهم ليسوا منهمكين ومشغولى البال بأن يجعلوا من أنفسهم شيئاً ما ، فقد ماتوا عن ذلك الأمر ولا يكترثون به مراراً وتكراراً ، إلى أن يمكنهم أن يتقبلوا أخيراً الجمال الرائع فيما هم عليه بلا تغيير . وبعد عمر طويل من ضياع حياتهم ، كان قديسو الله الناضجين يكتشفون أنهم غير معصومين من الخطأ ، وأنهم عبارة عن كيان مشوه بسبب النقائص حسب المعايير التى يضعها عالمنا . غير أن تلك هى الخليقة التى صنعها الله ورأى أنها « حسنة» ، وأما القديس فلا يعود يدعوها « ليست حسنة تماماً » ، وذلك لأن كل مهمة القديس أولاً وأخيراً فى هذه الحياة هى مجرد أن يقدم سبحاً وحمداً لله .

إن خلاصة قواعد الدين لطالبى المعمودية يؤكد قائلاً « إن غاية الإنسان الرئيسية هى أن

يمجد الله وينعم به إلى الأبد » . إننا لا نستطيع أن ننعم بالله ما لم نحيا لكى نمجده . ونحن لا نستطيع أن نفعل ذلك ما دمنا نسعى إلى أن نعدِّل أو نحسِّن الخليقة التى قد تسلمناها .

فإذا كنا ننعم بالله حقاً ، فإننا نصبح أحراراً لأن ننعم بالعالم من حولنا . فلم نعد ننظر إلى أولادنا على اعتبار أنهم أشياء ناقصة غير تامة حتى يلزمنا أن نغيرها أو نحولها إلى تصورنا ومفهومنا الخاص عن الصلاح . ولم يعد أصدقاؤنا وشركاء حياتنا يُعالجون معالجة طبيعية لأن يكونوا بحسب ما نريد منهم . فالخلفيات والبيئات التى كنا قد نشأنا فيها لم تعد شيئاً ينبغى أن نهرب منه لكى نجد ذواتنا . فإن مهمتنا بين الفقراء والمعوزين وكرازتنا بالإنجيل بين أولئك الذين لا يعرفون المسيح كرب لم تعد تصاب بالإحباط بسبب الضرورة الزائفة القائلة بإصلاح الأمور وتقويمها .

وهذا لا يعنى أننا لا نحتاج إلى التغيير - تغيير فى علاقاتنا أو فى العالم من حولنا ، فذلك هو السبب الذى من أجله نهتدى ، وبواسطة الإرسالية التى أعطاها المسيح لنا . ولكن إذا كانت لحظة انطلاقنا للإرسالية هى الشكر المتسم بالبهجة لأجل ما عمله الله وما يعمله وما هو مزمع أن يعمله ، لكان علينا على الأقل أن نتخلى عن القلق الذى يصيبنا عندما نضع أنفسنا بدلاء للخالق .

إن من لهم إله ليسوا بحاجة لأن يصيروا إلهاً . فهم مستغرقون للغاية فى انتظار خلاص الرب الواضح . اسألوا القديسين ، وسوف يخبرونكم . فليس هناك شئ أبهج من أن نشهد خلاص الرب .

سنظل دائماً نفقد أشياء عزيزة لدينا مثل الأصدقاء والصحة والأحلام والآمال، فليس هناك شئ يبقى على ما كان عليه، وهذا هو موضوع الكتاب إذ يتناول قصص رجال ونساء اكتشفوا أنهم لا يحيون الحياة التى كانوا قد خططوا لها، فقد واجه كل منهم خسارة عظيمة. ترى هل يتشبثون بشئ آخر لأجل خلاصهم؟ أم يمكن أن تظل أيديهم مفتوحة بدرجة كافية لقبول الحياة التى مات يسوع لكى يقدمها لهم؟





١٠١٠٢٧٢٢